التَّعلِيقُ

عَلَى شَرحِ حَدِيثِ «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ»

لِابْنِ رَجَب رَحِمَهُ اللهُ

لِمَعَالِي الشَّيخِ الدّكتُور

عَبدالكَرِيمِ بن عَبدالله الخُضَير

عُضوِ هَيئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ وعُضوِ اللَّجنَةِ الدَّائِمَةِ لِلإِفتَاءِ سَابِقًا

الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخضير، عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن

التعليق على شرح حديث «ماذيبان جائعان» لابن رجب - رحمه الله -. / عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن الخضير - الرياض، ١٤٤٢هـ

ص ٣٠٤؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٠-٧-٩١٥٣٨-٦٠٣-٩٧٨

١- الحديث - شرح أ. العنوان

ديوي ٢٣٧,٧ ١٤٤٢/٧١١٧

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٧١١٧

ردمك: ٠-٧-٩١٥٣٨-٦٠٣-٩٧٨

معالم السنن

المملكة العربية السعودية - الرياض - حي الجزيرة شارع طلحة بن عبيدالله - مبنى معالم السنن -

هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٤٥٠٤٥٨ - فاكس: تحويلة ١٥٠ - جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٧٤٩٥٥٥ -

البريد الألكتروني: books@malemassunan.com - shkhudheir.com

الموزعون: شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع

الرياض: - هاتف: ٢٢٥٥٤٧٣ تحويلة: ٥٠٦ - ٥٠٢ - فاكس: ٢٢٥٠١٦٧

الرياض والمنطقة الوسطى: ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥

المنطقة الغربية والمنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية ومنطقة القصيم: ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥

البريد الألكتروني: www.afaqbooks.com - Sales@afaqpub.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم معالي الشيخ عبد الكريم الخضير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فإن أصل هذا الكتاب دروس ألقيت على الطلاب وسجلت ثم قام المكتب العلمي بمعالم السنن بعناية من أمينه العام الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد الفوزان بتفريغ المادة العلمية ومراجعتها من قبل كبار الطلاب المختصين ولم يقصد التأليف والنشر من الأصل الذي تكون فيه المادة محررة من المصادر بحروفها، ولعل المراجعة النهائية تكون بعد صدوره وحصر الملحوظات عليه وتلافيها والله ولي التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الكريم بن عبد الله الخضير

عفا الله عنه

تقديم معالي الشيخ عبد الكريم الخضير

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ أصل هذا الكتاب دروس ألقيت علىٰ الطلاب وسجِّلت، ثم قام المكتب العلمي – معالم السُّنن – بعناية من أمينه العام الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد الفوزان بتفريغ المادة العلمية ومراجعتها من قِبَل كبار الطلاب المختصِّين، ولم يُقصد التأليف والنشر من الأصل الذي تكون فيه المادة محررةً من المصادر بحروفها، ولعل المراجعة النهائية تكون بعد صدوره وحصر الملحوظات عليه وتلافيها، والله وليُّ التوفيق، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الكريم بن عبد الله الخضير

عفا الله عنه

كلمة مؤسَّسة معالم السنن

الحمد لله الذي رفع بالعلم أهلَه واجتباهم، وأورثهم علم الكتاب وبه اصطفاهم، وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبِّينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه من مُبتَدَاهم إلىٰ منتهاهم، وعلىٰ التابعين ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين واقتفاهم.

أما بعد:

فإن ممَّا لا يخفىٰ علىٰ أحدٍ ما للعلماء من منزلة عليَّة، ومكانة سنيَّة، فهم ورثة الأنبياء، ونجوم السَّماء، وزينة الدُّنيا، وبِهم قوامُ الدِّين، روىٰ أبو الدرداء رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لَتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتىٰ الحيتان في الماء، وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ**».

ومن العلماء الذين بذلوا وقتهم في تعليم العلم ونشْرِه معالي الشيخ العلامة عبد الكريم بن عبد الله الخضير – حفظه الله ومتَّع به –،

والذي عرفه أهل العلم وطلبته بالتفنن والاتساع، وجودة التحقيق، وسعة الاطلاع.

وقد وفَّق اللهُ الشيخَ منذ زمن طويل للتصدي لشرح كتب أهل العلم في مختلف الفنون والتعليق عليها، فشرحها بشروح جامعة نافعة، أثراها سعةُ اطلاعِ الشيخ ومعرفتُه بمكنونات الكتب - لا سيما المطولات منها -، واختلاف طبعاتها؛ مما جعل لهذه الشروح رواجًا بين طلاب العلم، علىٰ اختلاف مستوياتهم.

كما هيَّأ الله مؤسسةَ معالم السنن لخدمة علم الشيخ ونشره منذ تأسيسها عام ١٤٣٣؛ بكل الطرق المتاحة، وها هي - بفضل الله - تبشِّر طلاب العلم ومحبِّيه بطباعة كتاب: «**التعليق علىٰ شرح حديث: «ما ذئبان جائعان» لابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ».

ومما يحسن التَّنبيه عليه أن هذا الكتاب هو في الأصل شرحٌ صوتيٌّ، تمَّ تفريغه، وترتيبه، وخدمته خدمة علميَّة بعد إذن الشيخ بذلك؛ ونظرًا للصعوبة البالغة في تحويل النتاج الصوتيِّ إلىٰ قالب الكتب المطبوعة، ولاستشعار المؤسسة المسؤوليةَ المنوطةَ بها، وطلبًا للإتقان دون تكلُّفٍ، رسمت المؤسَّسة لنفسها خطة مجوَّدة - أقرها الشيخ حفظه الله -؛ لتخرج كتبُهُ بجودةٍ عاليةٍ، تُرضي - بإذن الله - طلَّاب العلم ومحبيه، وقد كانت مراحل العمل علىٰ كتب الشَّيخ وفق الآتي:

الأولىٰ: صفُّ المفرَّغ من التسجيل الصوتي ومطابقته.

الثانية: العمل علىٰ ترتيب المادة بما يتناسب مع الكتاب؛ مع عدم التصرف في كلام الشَّيخ، وعند وجود ما يشكل من المسائل يتم عرضه علىٰ الشيخ - حفظه الله -.

الثالثة: تخريج الأحاديث والآثار، وعزو الأقوال والمذاهب إلىٰ أصحابها، والخدمة العلمية للكتاب.

الرابعة: المراجعة اللغوية للكتاب والتأكُّد من سلامة النص من الأخطاء النحوية والإملائية التي قد تحدث أثناء العمل.

الخامسة: مراجعة الكتاب من قبل متخصص في الفن المشروح؛ للتَّأكُّد من سلامة المادة العلميَّة بعد العمل عليها من قبل الباحثين.

السادسة: إجازة الكتاب للطِّباعة من قبل مستشاري المؤسَّسة العلميين.

وفي هذا المقام البهيج لطباعة هذا الكتاب، نشكر الشَّيخ - حفظه الله - علىٰ ما قدَّمه ولا يزال يقدِّمه لطلاب العلم، أَعْظَمَ الله له المثوبةَ والأجرَ، وبارك في علمه وعمله وعمره، ونفع بعلمه الإسلامَ والمسلمين.

ونثَنِّي بالشكر لفريق العمل في مؤسسة معالم السنن علىٰ الجهد الكبير الذي بذلوه لإخراج الكتاب.

ونثلِّث بشكر المستشارين العلميين في المؤسَّسة، والمراجعين المختصِّين، وكلِّ منْ ساهم وشارك في إخراج الكتاب، فجزاهم الله خيرًا، وبارك في أعمالهم.

ونسأل الله تعالىٰ التَّوفيقَ والسداد، وندعو كافَّة أهل العلم وطلَّابه حيثما كانوا إلىٰ مدِّ يد النَّصيحة، والمسارعة بإبداء الملاحظات والاقتراحات علىٰ ما قد يقع من أخطاء فيما طُبِع ويُطبَع من شروح الشَّيخ، فالمرء كثير بإخوانه، والله المسؤول أن يباركَ في الجهود ويتقبَّلها.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبيِّنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

(مقدمة الشارح)

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فموضوع هذا الكتاب: التعليق علىٰ شرح الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحديث: «ما ذئبان جائعان»، وهذا النوع من الكتب لا يحتاج إلىٰ كثير شرح وتحليل؛ لأنه من الوضوح بمكان يفهمه كل أحد، ولو قرئ علىٰ عامة الناس لفهموه؛ إلا أن مقصودنا هنا وضع تعليق يسير عليه، بحيث يسهل الانتفاع به؛ حيث إن مؤلفات هذا الإمام الحافظ من أنفع ما يعالج به المسلم قلبه.

وقد توجه كثير من طلاب العلم إلىٰ دراسة العقيدة؛ لأنها أهم المهمات، ورأس المال الذي يصحح به عمل القلب، كما توجهوا إلىٰ دراسة الفقه الذي يصحح عمل الجوارح، والذي له أثر كبير في صلاح القلوب.

ثُمَّ إنَّ هناك أدويةً تعالج القلب مباشرة، جاءت بها نصوص الكتاب والسنة، وانبرىٰ لشرحها وتوضيحها أمثال شيخ الإسلام، وابن القيم، وابن رجب، وغيرهم من العلماء؛ ففي سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الكثير مما يتعلق بأعمال القلوب، ففي صحيح البخاري من الأبواب التي قد لا يصل إليها طالب العلم - لكونها في أواخر الصحيح - ما هو بأمس الحاجة إليه؛ حيث إن أحاديثها عامل كبير في صلاح قلبه، مثل: أبواب الفتن، وأبواب الرقاق، وغيرهما من الأبواب مما يشمله حديث: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[(١)]؛ وعليه فالمراد بالفقه في الدين ما هو أعم من الفقه العملي؛ لأن الفقه في الدين يشمل جميع أبواب الدين، بما فيها ما يتعلق بأعمال القلوب.

وقد كثر في كلام العلماء ذكر ما يتعلق بأعمال القلوب، ويوجد في ثنايا التفاسير، وشروح الحديث الشيءُ الكثيرُ من ذلك، غير أنه ماثلٌ بوضوح وسعة وجلاء في كلام ابن القيم، فله مصنفات خاصة في هذا الشأن، مثل: «مدارج السالكين»، و«الداء والدواء»، و«إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، و«طريق الهجرتين وباب السعادتين»، و«مفتاح دار السعادة»، وغيرها، كما أنها مبثوثة في كثير من كتبه كـ«الفوائد»، و«بدائع الفوائد»، وعلىٰ نحوٍ منه الحافظُ ابن رجب.

هذا، وإن الكتب التي عالجت أدواء القلوب قد يوجد في بعضها

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، (٧١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، (١٠٣٧)، وابن ماجه (٢٢١)، من حديث معاوية رضي الله عنه، وجاء من حديث عمر، وابن عباس، وأبي هريرة رضي الله عنهم.

شوبُ ابتداع؛ كـ«إحياء علوم الدين»، فهذا الكتاب وما كان علىٰ شاكلته من الكتب يُنتفَع بها، ويُستفاد منها بعد تصفيتها، أو التعليق عليها من قبل أهل العلم؛ للتنبيه علىٰ مواطن المخالفات فيها.

والكتاب الذي نحن بصدد التعليق عليه له منزلة خاصة عند أهل العلم؛ فهُمْ يقرؤونه، ويُقرَأ عليهم في دروسهم، فكان وضع هذا التعليق سيرًا علىٰ نهجهم، واستمرارًا لهديهم، عسىٰ الله أن ينفعنا به في الدارين، وهو المستعان، وعليه التكلان.

(ترجمة الحافظ ابن رجب وما فيها من فوائد)

[اسمه، وولادته، ووفاته:]

هو: الإمام الحافظ، أبو الفرج، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، البغدادي، ثم الدمشقي الحنبلي. و«رجب» لقب لجده عبد الرحمن، قيل: لُقِّب برجب؛ لأنه ولد في رجب.

ولد الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وتوفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة عن أقل من ستين عامًا(١).

وإن الإنسان ليعجب حينما يرىٰ هذا العِلْم المبارَك المنتشر مع هذا العمر القصير؛ مما يدل علىٰ أن طول العمر إن لم يُقرَن بالعمل الصالح والعلم النافع، فلا قيمة له، ويدل علىٰ ذلك ما رواه أحمد، والترمذي عن عبد الرحمن بن أبي بكرة(٢)، عن أبيه، أن رجلًا قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره، وحسن عمله**»،

(١) ينظر: إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر ١/ ٤٦٠.

(٢) هو: عبد الرحمن ابن الصحابي أبي بكرة رضي الله عنه، نفيع بن الحارث الثقفي، ولد: في خلافة عمر بالبصرة سنة ١٤هـ، وتوفي سنة ٩٦، قال أحمد العجلي: «عبد الرحمن ثقة». ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٦/ ٧، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٤١١.

قال: فأي الناس شر؟ قال: «**من طال عمره، وساء عمله**»[(١)]، فطولُ العمر إنما يكون خيرًا إذا قُرِن بحسن العمل. فهناك من يعيش أكثر من مائة سنة، ثم يموت ولا أثر له يذكر، وهناك من عاش ثلاثين سنة أو زاد علىٰ ذلك قليلاً، ونفع الله به نفعًا عظيمًا؛ فعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات عن تسع وثلاثين سنة[(٢)]، وابن عبد الهادي مات دون الأربعين[(٣)]، والحافظ الحكمي عن خمس وثلاثين[(٤)]، وغيرهم كثير ممن عظم نفعهم مع قلة أعمارهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٤١٥)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، (٢٣٣٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والحاكم (١٢٥٧)، وجاء من حديث أبي هريرة، وجابر، وعبد الله بن بسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة إحدىٰ وستين، وتوفي في رجب سنة إحدىٰ ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وستة أشهر. ينظر: الطبقات لابن سعد (٥/ ٤٠٧– ٤٠٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ١١٥، ١٣١.

(٣) هو: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة، المقدسىٰ، الحنبلىٰ، توفي سنة ٧٤٤هـ، له كتاب «الأحكام» في ثمانية مجلدات، والردّ علىٰ السبكي في رده علىٰ ابن تيمية، و«المحرر» في الحديث، وشرع في كتاب «العلل»، ولم يكمل. ينظر: الدرر الكامنة ٥/ ٦١، والتاج المكلل (ص: ٤٠٢).

(٤) هو: حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، من علماء المملكة العربية السعودية من تهامة، ولد سنة ١٣٤٢هـ، وتوفي سنة ١٣٧٧هـ، له مؤلفات عديدة، منها: «سلم الوصول»، وشرحه «معارج القبول»، و«اللؤلؤ المكنون في أحوال المسانيد والمتون»، و«السبل السوية لفقه السنن المروية». ينظر: مقدمة معارج القبول بشرح سلم الوصول ١/ ١١–٢٦، الأعلام؛ للزركلي ٢/ ١٥٩.

[مصنفاته:]

أَلَّف الحافظ مصنفات عظيمة الفائدة، علىٰ سَنن السلف الصالح وهديهم وطريقتهم، ومن قرأ في كتابه: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» عرف قيمة هذا الرجل؛ فهو شرحٌ بنفَس السلف خالٍ عن التعقيد، وعن الاصطلاحات الكلامية وغيرها، يشرح الحديث بالحديث، وبكلام السلف الصالح، ويستنبط منه علىٰ طريقة أهل العلم، وعلىٰ ضوء القواعد والجوادِّ[1] المطروقة عندهم، بما يتفرد به رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فشرحه للبخاري لو كمل لنفع الله به نفعًا عظيمًا، والموجود منه فيه بركة ونَفْع، وله طرق في الجمع بين الأحاديث قد لا توجد عند غيره؛ لأنه إمام حافظ مطلع.

وابن حجر وإن كان حافظًا؛ إلا أن طريقة ابن رجب أقرب إلىٰ هدي السلف من طريقة ابن حجر، وفي كلٍّ خير، وفي المقابل تجد في شرح ابن حجر ما يحل كثيرًا من الإشكالات مما لا تجده عند غيره؛ لأنه استوعب الكتاب استيعابًا كاملاً من جميع الوجوه، والكمالُ لله ولكتابه.

وكتاب ابن حجر في غاية الأهمية لطالب العلم، وطريقته في الشرح علىٰ طريقة ووتيرة واحدة، فشرحه من أول حديث إلىٰ آخر

(١) الجوادُّ: جمعُ جادة، وهي الطريق. ينظر: لسان العرب ٣/١٠٨. ومختار الصحاح (ص: ٥٤).

حديث بنفَسٍ واحد، وطريقة واحدة؛ وذلك بخلاف أكثر الشراح والمفسرين؛ حيث يبدؤون كتبهم بهمَّة وعزيمة، وينشطون في أول الكتاب، فتضيع الأوقات والجهود في أول الكتاب، فإذا وصلوا آخره سردوه سردًا، أما ابن حجر، فلا، فلقد شرح حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1] - وهو أول حديث في الصحيح-، وحديث «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلىٰ الرحمن**»[2] - وهو آخر حديث في الصحيح - بِنَفَسٍ واحد؛ مما يدل علىٰ أن شَرْحَه للأحاديث متوازن.

ثم إنّ شرح الحافظ ابن رجب للبخاري متقدِّم علىٰ شرح ابن حجر، واسمه كاسمه: «فتح الباري». وقد نفىٰ بعضهم - كهمام عبد الرحيم سعيد الذي حقق العلل لابن رجب - أن يكون ابن حجر اطّلع علىٰ شرح ابن رجب[3]، وهذا الكلام غير صحيح، فقد قيدتُ في نسختي من فتح الباري لابن حجر ثلاثة مواضع نقلها من

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ، (١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية، (١٩٠٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧)، والنسائي (٧٥)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، (٦٤٠٦)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٢٦٩٤)، والترمذي (٣٤٦٧)، وابن ماجه (٣٨٠٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: شرح علل الترمذي لابن رجب، بتحقيق همام عبد الرحيم سعيد، ١/ ٢٨٨.

شرح ابن رجب[1]، فهو مطلع عليه ومفيد منه.

وللحافظ ابن رجب شرح مفقود علىٰ جامع الترمذي، وله به عناية خاصة، ولو وجد لأغنىٰ عن كثير من الشروح الموجودة. ومما يدل علىٰ منزلة ابن رجب الرفيعة أنّ الحافظ العراقي – وله شرح لجامع الترمذي أيضًا – كتب إليه يسأله عن بعض المواطن في الترمذي، فأجابه الحافظ ابن رجب، وأفاده فيها[2].

وعلىٰ كل حال فابن رجب شرحه مميز؛ لأنه شرح خالٍ من الشوائب التي علقت ببعض الشروح التي تولاها بعض مَنْ تفنّن في جميع العلوم، ودخلت عليه بعض الشُّبه، وشرحه للترمذي مع الأسف لا يوجد منه شيء، وقيل: موجود منه مَلْزَمَة أو نحوها، ولكني لم أرها[3]، وبقي منه شرح العلل، وشرحُه للعلل يدل علىٰ أنه متمكن في هذا الباب.

وشرحُ العلل قد حُقِّقَ أكثرَ من مرة، وطُبِع في العراق في مجلد، ثم طبعه همام عبد الرحيم سعيد في مجلدين، وطبعه نور الدين عِتر

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ١٧٦، ١٧٨)، (١١/ ٣٤٠).

(٢) قال علي بن محمد بن علي الطرطوسي، تلميذ الحافظ ابن رجب: إنه سمع الحافظ يقول: «أرسل إلي الزين العراقي يستعين بي في شرح الترمذي». الضوء اللامع ٥/ ٣٢٨.

(٣) قال مشهور حسن في مقدمة القواعد (١/ ٥٨): «ويوجد – يعني من شرح الترمذي– عشرُ ورقات مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق، وهي من كتاب اللباس».

في مجلدين، وهو أفضل التحقيقات، وفيه إضافات علىٰ كلام ابن رجب من المحقق.

وللحافظ أيضًا كتاب شرح فيه الأربعين النووية بعد أن أكملها خمسين، وسماه جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، وهو شرح فيه طول، وإفاضة، واستيعاب لكلام السلف في الموضوعات التي وردت في هذه الأحاديث، وكل حديث منها يصلح أن يكون رسالة مثل رسالة: «ما ذئبان جائعان».

ومن مصنفات الحافظ شرحُه لأحاديثَ مفردة؛ مثل موضوع هذا الكتاب حديث: «ما ذئبان جائعان»، منها: «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة»، و«اختيار الأولىٰ في شرح حديث اختصام الملأ الأعلىٰ»، و«نور الاقتباس من مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس»[1]، وكلها كتب نافعة، وهي في حقيقتها: أدوية للقلوب.

ومن مصنفات الحافظ الرائعة القواعد في الفقه، والمتداول باسم: «تقرير القواعد وتحرير الفوائد»، وهي علىٰ مذهب الإمام أحمد، وهو كتاب عظيم ونفيس جدًّا، حتىٰ إن من ترجم له استكثر عليه أن يكون هذا الكتاب من مصنفاته، وزعم أن هذه

(١) له رحمه الله ثمان وثلاثون رسالة مفردة مطبوعة، جمعت في خمسة مجلدات، وطبعت بعناية: طلعت الحلواني، وذكر له مشهور حسن سبعةً وستين مصنفًا؛ ما بين كتاب ورسالة مطبوعة ومخطوطة، ينظر: مقدمة القواعد (١/ ٥٢).

القواعد وجدها ابن رجب منثورة في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فجمعها[1]، وهذا الكلام ليس بصحيح؛ فمنزلةُ ابن رجب يتأتىٰ منها مثل هذا وأعظم، والكتاب كبير وعظيم، وعلىٰ طالب العلم أن يُعنَىٰ به.

وله كتاب اسمه: «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف»، مرتب علىٰ أشهر السنة، بدأه بالمحرم وما له من وظائف، إلىٰ أن ختمه بوظائف شهر ذي الحجة، ووظائف الفصول، ووظيفة التوبة.

وللحافظ كتب كثيرة في التاريخ، كذيل الطبقات للقاضي ابن أبي يعلىٰ؛ في مجلدين كبيرين، وله أيضًا كتب وعظية مثل: «أهوال القبور»، و«التخويف من النار»، إلىٰ غير ذلك من مصنفاته المعروفة.

[رمي الحافظ ابن رجب بالتصوف:]

لقد رمىٰ الحافظَ ابنَ رجب بالتصوف بعضُ من ترجم له، فإن كان المراد بالتصوفِ الزهد، فهو زاهد، وهذه طريقة الحافظ أبي نعيم في الحلية؛ حيث وصف العشرة المبشرين بالجنة بالتصوف، ففي حليته يبدأ الترجمة لأبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان رضي الله عنهم إلىٰ

(١) ينظر: الجوهر المنضد (ص:٤٩)، وكشف الظنون لحاجي خليفة ٢/ ١٣٥٩.

آخره بكلام مسجوع، ثم يختمها بتعريف التصوف، يقصد منه أن التصوف حقيقة ما قام به أبو بكر، أو عمر، أو من بعدهم، والمراد به الزهد[١].

ثم إنَّ مَنْ رمىٰ ابن رجب بالتصوف يبني شبهته هذه علىٰ أنه ينقل عن كبار الصوفية في ثنايا كتبه، وهذا كلام صحيح، فالحافظ ينقل عن المتقدمين من الصحابة، والتابعين المعروفين بالعبادة وملازمة الطاعة، وينقل عمن بعدهم ممن رُمِيَ بشيء من التصوف كالجنيد[٢]، وأبي سليمان الداراني[٣]، وغيرهما.

ومجرد النقل لا يعني المتابعة، والكلام الحق ينقل عمن جاء به، وقد أكثر من النقل عنهما ابن تيمية، وابن القيم، ففي كلامهم نوع رقة، والعلماء ينشدون هذه الألفاظ والأساليب؛ لأنها تؤثر في القارئ، فنقلهم عنهم لا يعني أنهم يقتدون بهم في تصوفهم الذي فيه

(١) ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم ١/ ٢٩، ٣٨، ٥٥.

(٢) هو: الجنيد بن محمد أبو القاسم الخزاز، النهاوندي ثم البغدادي، شيخ الصوفية، توفي سنة سبع وتسعين ومائتين، أتقن العلم، ثم تعبد وتأله، ونطق بالحكمة، وقلَّتْ مروياتُه. ينظر: سير أعلام النبلاء؛ للذهبي ١٤/ ٦٦، وطبقات الصوفية؛ للسلمي ١٢٩.

(٣) هو: أبو سليمان، عبد الرحمن بن عطية، ويقال: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني، نسبة إلىٰ داريا، قرية بغوطة دمشق، توفي سنة خمس عشرة ومائتين. قال عنه الذهبي: «الإمام، الكبير، زاهد العصر». سير أعلام النبلاء؛ للذهبي ١٠/ ١٨٢، وطبقات الصوفية؛ للسلمي ٧٤.

نوع مخالفة؛ وعليه فمجرد النقل لا يؤثر، وإن اعتبره بعضهم مؤثرًا، وقال: لا بد من التصفية؛لأننا لا ننقل إلا الحق، وعن أهل الحق؛ ولذلك نجد الشيخ حامدًا الفقي في تعليقاته علىٰ مدارج السالكين ينتقد ابن القيم وبقوة، منكرًا عليه نقله عن هؤلاء[١].

وهذا النوع من التصفية معروف عند بعض أهل العلم، وأنه لا ينقل إلا ما هو حق محض ممن عرف بالسنة، ولا ينقل عمن فيه شوب بدعة، لكن البعض الآخر يرون أن الحق ينقل ويذكر عمن جاء به، وإن كان صاحبه متلبسًا بشيء من البدع.

(١) ينظر: المدارج؛ لابن القيم، تعليق الفقي (١/ ٩٦، ١٦٦) (٢/ ٤١).

(طبعات كتاب: شرح حديث «ما ذئبان جائعان»)

كتاب شرح حديث: «**ما ذئبان جائعان**» طبع مرارًا، فأول ما طبع بالهند قديمًا سنة ألف وثلاثمائة وعشرين في آخر كتاب: «مختصر قيام الليل» لمحمد بن نصر المروزي[1]، في ثمان ورقات، الصفحة فيها أكثر من ثلاثين سطرًا، وليس فيها فسحة لأن يعلق عليه في أثنائه؛ ومعروف أن الهنود يرصون الحروف، بخلاف طريقة المتأخرين الذين لا يخلو بعضهم من شوب ارتزاق في نفخ الكتب.

وهذه طريقة المتقدمين، يرصون الحروف؛ لقلة الأوراق عندهم وشحها، وللتوفير علىٰ طالب العلم في حمل الكتب؛ إذ لم يكن عندهم الترف الموجود الآن؛ فلو تولاه بعضهم بحيث يعلق علىٰ كل شيء- مثل ما يصنعون الآن- لجاء في مجلد كبير.

ثم طَبع الكتابَ محمد منير الدمشقي[2] في مطبعته الشهيرة

---

(١) هو: محمد بن نصر المروزي أبو عبد الله، ولد ببغداد، ونشأ بنيسابور، وسكن سمرقند، قال ابن حزم عنه: «أجمعهم للسنن، وأضبطهم لها، وأذكرهم لمعانيها، وأدراهم بصحتها، وبما أجمع الناس عليه مما اختلفوا فيه»، توفي سنة ٢٤٩هـ، له مصنفات، منها: «تعظيم قدر الصّلاة»، و«رفع اليدين»، ينظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ؛ للسبكي ٢/ ٢٤٦، وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٣.

(٢) هو: محمد منير بن عبده آغا النقلي الدمشقيّ الأزهري، صاحب دار الطباعة المنيرية، تفقه في الأزهر، وأصبح من علمائه، توفي سنة ١٣٦٧، له مؤلفات منها:=

المسماة: بالمنيرية بمصر، وهو دمشقي الأصل، لكنه مثل محمد رشيد رضا[1] انتقل من الشام إلىٰ مصر، وهذه الرسالة هي أول الرسائل في الجزء الثالث من مجموعة الرسائل المنيرية التي تشتمل علىٰ عشر رسائل.

وطبعه أيضًا محمد منير الدمشقي في ذيل «جامع بيان العلم وفضله» للحافظ ابن عبد البر؛ لأن الحديث ورد ذكره عند ابن عبد البر[2]، فطبع شرحه في أسفل الصفحات من مائة وست وسبعين إلىٰ نهاية الكتاب.

ثم طبع الكتاب مرارًا في طبعات بعضها محقق تحقيقًا جيدًا، وبعضها تحقيقه مجرد دعوىٰ، ومجموعة الحافظ ابن رجب موجود فيها الكتاب، وبين أيدينا طبعة محققة تولىٰ تحقيقها والتعليق عليها أبو القاسم عبد العظيم، وهو من الإخوة الهنود، وطَبَعَ الكتابَ لأول مرة في أعداد من مجلة الجامعة السلفية، ثم طُبع مجموعًا.

=«نموذج من الأعمال الخيرية في إدارة الطباعة المنيرية»، و«إرشاد الراغبين في الكشف عن آي القرآن المبين». ينظر: الأعلام، للزركلي ٧/ ٣١٠.

(١) هو: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلموني، البغدادي الأصل، ولد بقلمون بطرابلس الشام، وهو من الكتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، مؤسس مجلة المنار، توفي سنة ١٣٥٤هـ، له مصنفات، منها: «تفسير القرآن الكريم»، ولم يكمله، و«يسر الإسلام» و«أصول التشريع العام»، و«الخلافة»، و«محاورات المصلح والمقلد». ينظر: الأعلام؛ للزركلي ٦/ ١٢٦.

(٢) هو في طبعة أبي الأشبال (١/ ٦٣٩).

(التعليق على شرح حديث: «ما ذئبان جائعان» لابن رجب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين.

قال الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام بقية السلف الكرام، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد ابن الشيخ الإمام ابن رجب البغدادي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[الشرح]

«بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين»

[إفراد الصلاة على النبي ﷺ دون السلام]

الأصل أن يُقرن بين الصلاة والسلام علىٰ النبي ﷺ، وفي بعض نسخ الكتاب ذكرت الصلاة فقط، دون التسليم، وإفراد الصلاة

علىٰ النبي ﷺ دون السلام[١] موجود في كلام بعض أهل العلم، ومنهم الإمام مسلم[٢]؛ ولذا انتقده النووي في شرحه وقال: «ينكر علىٰ مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ كونه اقتصر علىٰ الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ دون التسليم، وقد أمرنا الله تعالىٰ بهما جميعًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]»[٣]، وأطلق النووي الكراهة في إفراد الصلاة دون السلام، أو السلام دون الصلاة، وذكر أن الأصل الجمع بينهما، لكن ابن حجر خص الكراهة بمن كان ديدنه ذلك؛ بحيث يصلي دائمًا ولا يسلم، أو يسلم دائمًا ولا يصلي، وأما من كان يجمع بينهما تارة، ويصلي تارة، ويسلم تارة، فلا تتناوله الكراهة عنده[٤].

ولا ريب أن الإفراد خلاف الأولىٰ، والنووي نفسه في ثلاثة من كتبه أفرد الصلاة دون السلام[٥]، والإمام الشافعي أفرد الصلاة

(١) أُثبت السلام في مجموع رسائل ابن رجب بتحقيق أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني (١/ ٦٣)، طبعة دار الفاروق الحديثة، وذكر المحقق في المقدمة (١/ ٤٥) أنه اعتمد في تحقيق الرسالة علىٰ سبع نسخ خطية.

(٢) ينظر: صحيح مسلم ١/ ٣.

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم ١/ ٤٤.

(٤) ينظر: فتح الباري ١١/ ١٦٧.

(٥) ينظر: التقريب والتيسير (ص: ٢٣)، وجزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات (ص: ١٥)، إرشاد طلاب الحقائق إلىٰ معرفة سنن خير الخلائق ﷺ ٢/ ٨١٧.

دون السلام في بعض مؤلفاته[1]، وهذا موجود في كلام أهل العلم، لاسيما إذا طال الكلام، فيُنسي طولُه التسليم؛ كأن يقول: «صلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه...»، بينما الأصل أن يقول: «صلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا...» - مباشرة- من أجل ألا ينسىٰ.

«قال الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام بقية السلف الكرام، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد ابن الشيخ الإمام ابن رجب البغدادي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ»

هكذا هو النص في النسخة الهندية التي جعلت أصلًا للمطبوع: «ابن الشيخ الإمام ابن رجب»، مع أن «رجب» لقب جده عبد الرحمن؛ لأنه ولد في رجب - كما ذكرنا -، فكان الواجب أن يقال: «أحمد ابن الشيخ الإمام رجب...»؛ لأنه جده، أو يقال: «أحمد، الشيخ الإمام ابن رجب»، علىٰ أنه تعريف بلقب الإمام الحافظ، أما المثبت في المطبوع، فلا شك أنه خطأ، ولعله من الناسخ، والله أعلم.

(١) ينظر: الرسالة (ص: ١٧، ١٠٤، ٢٩٩).

خـرَّج الإمـام أحمد، والنسائي، والترمذي، وابـن حبان في «صحيحه»

[الشرح]

[الكلام على ترتيب تخريج الحافظ للحديث]

قدم الإمام أحمد في التخريج؛ لأنه متقدم علىٰ هؤلاء كلهم، وهذه طريقة بعض المخرجين؛ يرتب بالوفيات الأقدم فالأقدم، فيقول: رواه مالك والشافعي وأحمد والبخاري.

وبعض المخرجين يقدم الستة، ولا يقدم علىٰ البخاري أحدًا، فيبدأ بالبخاري ثم مسلم ثم بقية الستة، ثم غيرهم من أصحاب المسانيد والسنن، وهذا ترتيب العلماء في علوم الحديث؛ فيبدؤون بالصحاح، ثم السنن قبل المسانيد، ثم يذكرون المسانيد؛ ولذا يقول الحافظ العراقي بعد أن ذكر السنن:

ودونهـــا في رتــبــة مــا جعلا

على المسانيد فيدعى الجفلى[(١)]

(١) ألفية العراقي، البيت (٨١)، (ص: ١٠٠)، وينظر: فتح المغيث ١/ ١٥٧، صعود المراقي إلىٰ ألفية العراقي ١/ ١٩٣.

فالبخاري ومسلم لا يتقدمهما أحد في الصحة؛ وتبعًا لهذا ينبغي ألا يتقدمهما أحد في الذكر، ثم بعد ذلك السنن، ثم المسانيد.

ولماذا قُدِّمَت السنن علىٰ المسانيد مع أن منزلة الإمام أحمد في السنة، وفي الحديث أعظم من منزلة أصحاب السنن؟

الجواب: أن أصحاب السنن يترجمون بأحكام شرعية، ثم يورِدون من الأحاديث أقوىٰ ما يجدون للاستدلال علىٰ الحكم الذي ترجموا به، بينما صاحب المسند يترجم باسم صحابي: كمسند أبي بكر، ومسند عمر، وهكذا، ويورد ما روىٰ هذا الصحابي أيًّا كان موضوع مروياته؛ دون أن يلتزم بترتيبها علىٰ الأحكام؛ فضلًا عن الاستدلال عليها، كذلك يجمع من أحاديث الصحابي ما وقع له، سواءٌ أكان صالحًا للاحتجاج أم لا؛ ولذلك سمي «الجفلىٰ»، والجفلىٰ - بفتح الجيم والفاء معًا- الدعوة العامة[1]، فسمي بذلك؛ لأنه يعم الأحاديث المروية وإن كانت غير صالحة للاحتجاج، ولا يخص؛ ولذلك جعلوا رتبة المسانيد دون رتبة السنن.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدم الإمام أحمد؛ باعتباره حنبليَّ المذهب، والإمام أحمد إمام أهل السنة، وكان يحفظ من السنة ما لا يحفظه غيره؛ فقد

(١) ينظر: تهذيب اللغة؛ للهروي (٩/ ٩٢)، وشرح التبصرة والتذكرة؛ للحافظ العراقي ١/ ١٧٠، وفتح المغيث؛ للسخاوي ١/ ١١٦.

كان يحفظ سبعمائة ألف حديث[(١)]، فجميع البرامج الموجودة الآن ما وصلت إلىٰ ما حفظه الإمام أحمد، وهو شخص واحد.

ولو قيل: لماذا قدَّم المؤلفُ النسائيَّ علىٰ الترمذيِّ، والترمذي قبل النسائي في الوقت، فالنسائي آخر أصحاب الكتب الستة، توفي عام ثلاثة وثلاثمائة[(٢)]، والترمذي توفي قبله، عام مائتين وتسعة وسبعين؟[(٣)]

فالجواب: أن تقديم سنن النسائي لكونها أنظف أسانيدَ من سنن الترمذي، فالترمذي خرَّج أحاديث لبعض من رمي بالكذب، كمحمد بن سعيد المصلوب[(٤)]، كما أن شرْطَ النسائي أقوىٰ من شرط الترمذي[(٥)].

(١) قال الإمام أحمد عن مسنده: «هذا الكتاب جمعته وانتقيته من أكثر من سبع مائة ألف وخمسين ألفًا». وقال عبد الله بن أحمد: «قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث. فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته، فأخذت عليه الأبواب». قال الذهبي: «فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله، وكانوا يعدون في ذلك المكرر، والأثر، وفتوىٰ التابعي، وما فسر، ونحو ذلك، وإلا فالمتون المرفوعة القوية لا تبلغ عشر معشار ذلك». ينظر: سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٧، ٣٢٩.

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٣٣.

(٣) السابق ١٣/ ٢٧٧.

(٤) قال عنه الذهبي: «كذاب، صلب في الزندقة». ديوان الضعفاء (ص: ٣٥٣).

(٥) قال السيوطي في تدريب الراوي: «قال الذهبي: انحطت رتبة جامع الترمذي عن سنن أبي داود والنسائي؛ لإخراجه حديث المصلوب والكلبي وأمثالهما». تدريب الراوي ١/ ١٨٧.

أما صحيح ابن حبان، فمنزلته دون الستة، وفيه من التساهل ما فيه، لكنه في الجملة يصفو منه صحيح كثير[1].

(١) ينظر: تدريب الراوي ١/ ١١٤.

(نص الحديث وتخريجه)

من حديث كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في [زريبة] غنم بأفسدَ لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»، قال الترمذي: حسن صحيح[(١)].

وروي من وجه آخر عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر[(٢)]، وابن عباس[(٣)]، وأبي هريرة[(٤)]، وأسامة بن زيد[(٥)]، وجابر[(٦)]، وأبي سعيد

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٨٤)، والنسائي في الكبرىٰ، كتاب الرقائق (١١٧٩٦)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال، (٥٧٨٧)، وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان (٣٢٢٨)، وليس عند أحدهم لفظ: «زريبة».

(٢) أخرجه البزار، (٦١٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٨٩) وقال: «تفرد به قطبة عن الثوري، واختلف فيه علىٰ الثوري من غير وجه». وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٠: «فيه قطبة بن العلاء، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات»، وقال الترمذي ٤/ ٥٨٨: «ويروىٰ في هذا الباب عن ابن عمر عن النبي ﷺ، ولا يصح إسناده».

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٧٧٨)، والأوسط (٨٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٩)، وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٠: «فيه عيسىٰ بن ميمون، وهو ضعيف، وقد وثق».

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٢٢)، بلفظ زريبة، قال في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٠: «إسناده جيد». وأخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٦٤٤٩) بدون لفظ زريبة.

(٥) أخرجه الطبراني في الصغير، (٩٤٤)، وضياء الدين المقدسي في مستخرجه، (١٣٢٣)، وقال: «إسناده صحيح».

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٧٨٧).

الخدري[1]، وعاصم بن عدي الأنصاري ﭫ[2]، وقد ذكرتها كلها والكلام عليها في كتاب «شرح الترمذي».

[الشرح]

[إعراب الحديث وبلاغة اختيار ألفاظه]

«**ما**» نافية تعمل عمل ليس عند أهل الحجاز، وتسمىٰ: ما الحجازية، وهي ملغاة عند بني تميم[3]، وهنا تعمل عمل ليس؛ لأن خبرها «**بأفسد**» اقترن بالباء كـ«ليس»، والخبر يُجَرُّ بالباء الزائدة غالبًا بعد ليس، «**ذئبان**» اسمها مرفوع بها، و«**جائعان**» وصف للذئبين مرفوع بالتبعية، «**أرسلا**» الجملة في محل رفع وصف ثانٍ لـ«ذئبان»، «**في [زريبة]**» جار ومجرور متعلق بالفعل «أرسل»، «**بأفسد**» خبر «ما» الحجازية.

والذئب: حيوان معروف عند الخاص والعام، والأصل فيه

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (٦٢٧٩)، وقال: «تفرد به خالد بن يزيد العمري»، وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٠: «فيه خالد بن يزيد العمري، وهو كذاب».

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٥٧٧١)، وسكت عنه الذهبي، والطبراني في الكبير (٤٥٩)، والأوسط (٨١٦٦)، وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٠: «إسناده حسن».

(٣) ينظر: شرح ابن عقيل علىٰ ألفية بن مالك ١/ ٣٠٢.

الهمز، وقد تسهل همزته، فيقال: «الذيب»، قيل للكسائي[1]: لم لا تهمز الذيب؟ قال: أخاف: أن يأكلني[2].

«**ذئبان جائعان**»، ذكر ذئبَينِ ولم يذكر ذئبًا واحدًا؛ لأن الواحد قد يَمَلُّ، وقد يتعب فيُبقِي شيئًا، أمّا إذا كانا اثنين فإن أحدَهما يشجع الآخرَ، فيقضيان علىٰ القطيع كاملاً، يأكلان منه الشيء اليسير، والباقي يقتلانه.

والوصف بـ«**جائعان**» للتأكيد والمبالغة في إظهار تمام الإفساد؛ لأنهما لو كانا شبعانَيْنِ لكان الفساد أقل، فيكون التوصيف أو التشبيه مطابقًا للمبالغة المرادة في هذا الحديث، فالحرص علىٰ المال والشرف يفسدان الدين إفسادًا تامًّا، أعظم من إفساد ذئبين جائعين أرسلا في غنم؛ مما يدل علىٰ خطورة الحرص علىٰ المال والشرف علىٰ الدين.

[الحكم على سند الحديث]

«**قال الترمذي: حسن صحيح**» والجمع بين وصفي الحُسْنِ والصحة وتارةً الغرابة، اصطلاحٌ للإمام الترمذي، وفيه إشكال من جهة أنه يحكم

---

(١) هو: علي بن حمزة الكسائي الإمام أبو الحسن الأسدي، مولاهم الكوفي المقرئ النحوي، توفي سنة ١٨١، وقيل: ١٨٩، أحد القراء السبعة، قال أبو بكر بن الأنباري: اجتمعت في الكسائي أمور: كان أعلم الناس بالنحو، وواحدهم في الغريب، وكان أوحد الناس في القرآن. ينظر: تاريخ العلماء النحويين؛ للتنوخي (ص: ١٩٠)، ومعرفة القراء الكبار؛ للذهبي (ص: ٧٢).

(٢) ينظر: معرفة القراء الكبار (ص: ٧٥).

علىٰ الحديث في آنٍ واحد: بأنه حسن، بمعنىٰ أنه لم يبلغ الغاية، وبأنه صحيح، يعني أنه بلغ الغاية، فكيف يكون حسنًا، وصحيحًا معًا؟

وقد تباين كلام العلماء في تفسير المراد بذلك، ومما قيل: إن الحديث إما أن يروىٰ من طريقين، أو طرق، أو طريق واحد؛ فإن كان مرويًّا من طريقين أو أكثر، فمعنىٰ قوله: «حسن صحيح»: أن أحدها حسن، والآخر صحيح، أما إن كان له طريق واحد، فالمعنىٰ: التردد من الإمام: هل بلغ الصحة، أو قصر دونها؟

ولأهل العلم في توجيه هذا الإشكال أقوال كثيرة، بلغت عند بعضهم ثلاثة عشر قولًا، وما ذكرناه أوضحها[1].

«وروي من وجه آخر عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأسامة بن زيد، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وعاصم بن عدي الأنصاري ﷺ».

وهذه تسمىٰ شواهد للحديث، ويوردها الترمذي وغيره من أجل التقوية.

وأما هذا الحديث، فصحيح بلا شك، فالحديث المخرج عند أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والدارمي[2]، من حديث كعب بن مالك هو الثابت، وما عدا ذلك فلا يخلو من مقال.

(١) ينظر: تدريب الراوي ١/ ١٧٥.
(٢) سنن الدارمي (٢٧٧٢).

وقد تكلم العلماء علىٰ هذه الشواهد في تخاريجهم للترمذي؛ شرحًا لقوله: «وفي الباب»؛ فهذه الشواهد التي يذكرها الترمذي ليعتضد بها الحديث تولاها الشراح، وللحافظ العراقي مصنف مستقل اسمه: «اللباب علىٰ قول الترمذي: وفي الباب»، وللحافظ ابن حجر أيضًا كتاب آخر قريب منه[1].

«وقد ذكرتها كلها والكلام عليها في كتاب «شرح الترمذي»»، يعني: ذكرت الكلام علىٰ أسانيدها ومتونها في كتاب شرح الترمذي.

وقلنا: إن شرح الترمذي وصفه المترجمون لابن رجب بأوصاف، يستفاد منها أنه أعظم الشروح، وإن كان في شرح ابن سيد الناس[2]، وتكملة الحافظ العراقي كلام طيب ونفيس ومستوعب في الجملة، ونحن لم نقف علىٰ حقيقة شرح ابن رجب الذي بالغ العلماء في إطرائه، وهو مظنة لذلك الإطراء.

(١) اسمه: «العجاب في تخريج ما يقول فيه الترمذي: وفي الباب»، ولم يكمله؛ قال السخاوي: «كتب مِنْ أوائله قدرَ ستة كراريس، لو كمُلَ، لجاء في مجلد ضخم». الجواهر والدرر ٢/ ٦٦٦.

(٢) هو: أبو الفتح، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، فتح الدين، مؤرخ عالم بالأدب من حُفَّاظ الحديث، (٧٣٤ هـ)، من تصانيفه: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، و«بشرىٰ اللبيب في ذكرىٰ الحبيب»، و«تحصيل الإصابة في تفضيل الصحابة». ينظر: تاريخ الإسلام ١٤/ ٩١٦، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٦١. واسم شرحه علىٰ سنن الترمذي: «النفح الشذي في شرح جامع الترمذي»، وهو مطبوع.

وفي لفظ حديث جابر ﵁: «ما ذئبان ضاريان يأتيان في غنم غاب رعاؤها بأفسد للناس من حب الشرف والمال لدين المؤمن»[1]، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «حب المال والشرف» بدل «الحرص».

[الشرح]

[تفاوت الناس في الحرص وخطورته على التقوى]

الضراوة تعني: القوة والشراسة، والذي يدفع إليها الجوع[2]، وهذا المعنىٰ موافقٌ لما في حديث الباب: «**ما ذئبان جائعان**».

«**في غنم غاب رعاؤها**» يعني: غاب رعاتها الذين يدافعون عنها.

وعليه فالحرص علىٰ المال والجاه يفسدان دين المؤمن، كإفساد الذئبين الجائعين الضاريين غنمًا غاب رعاؤها، وهذا لا يستلزم أنّ ضياعَ الدين لا يكون إلا باجتماع الحرصين، فقد يضيع باجتماعهما عند شخص، وقد يضيع دين شخص بحرصه علىٰ المال وإن كان لا جاه له، والناس في هذا متفاوتون، والحرص عليهما، أو علىٰ أحدهما قد يترتب عليه ضياع الدين.

(١) سبق تخريجه (ص: ٣٢)، ووقع عند البيهقي في الشعب ١٢/ ٤٩٠: «ما ذئبان جائعان ضاريان...».

(٢) ينظر: لسان العرب ١٤/ ٤٨٢.

«وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «حب المال والشرف» بدل «الحرص»[١].

ففي حديث جابر، وابن عباس: الحب بدل الحرص، ولا شك أن الحب يتناول درجات عديدة، من ضمنها الحرص، وقد يصل إلىٰ البخل، فمن الناس مَن وصل إلىٰ الجمع والشح وعدم الإنفاق من المال، ومنهم المحب الهائم بالكلية، فهم في هذا متفاوتون أيضًا، ولا شك أنه يكون حينئذٍ وبالاً علىٰ الشخص ونقصًا في دينه.

وقد وصل الحب ببعض الناس إلىٰ عبادة الدرهم والدينار[٢]، حتىٰ ملأ عليه فكره، وقلبه، وجوارحه، وقد يختم حياته به. ومن صور هذا الحب الذي يملأ القلب، أن شخصًا كان نائمـًا بجوار زوجته في منتصف الليل، ملتحفا بلحافه، فبينما هو كذلك، إذا به يجلس ويأخذ اللحاف، ويذرعه، فلما انتصف قطعه كأنه يبيعه؛ لأن هذا حبه وتفكيره. وهناك كثير من هذا النوع، والنساء يذكرن العجائب عن أزواجهن ممن شغفوا بالدنيا وأشربوا حبَّها.

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٣٢).

(٢) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، (٢٨٨٧)، وابن ماجه (٤١٣٥).

وحرص المسلم على المال يشغله - أيضا - عما خلق من أجله، وهو تحقيق العبودية لله - جل وعلا-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] هذا هو الهدف من خلق الجن والإنس، وهدف العبودية تحقيق التقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، فالعبادة بجميع أنواعها توصل في النهاية إلى التقوى التي هي وصية الله - جل وعلا- للأولين والآخرين(١). فالصلاة على وجهها، كما كان النبي ﷺ يصلي تؤدي إلى التقوى، وتنهى عن الفحشاء والمنكر(٢)، والصوم كذلك: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والحج كذلك: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]؛ فإذا تحققت التقوى فقد أدى الحج ثماره.

فالتقوى: هي الغاية، وهي وصية الله - جل وعلا- للأولين والآخرين من عباده، وهي خير لباس: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فإذا انشغل الإنسان عما خلق له وعن رأس ماله الذي هو الدين والعبادة والتقوى، فماذا بقي له؟!

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥].

فلقد خاب وخسر؛ لأن هذا الذي انشغل به عما هو أهم منه مما خلق من أجله، لن ينفعه في دينه ولا في دنياه، وبناء عليه، فالإنسان الذي يجعل الدنيا والمال مطية للآخرة: هو العاقل الساعي في نجاة نفسه ومصالحها، وفي المقابل فإن مَن جعل الدين مطية للدنيا، يتكسب من ورائه، فإنه - ولا شك - يشبه أهل الكتاب الذين يشترون بكتبهم ثمنًا قليلاً[(١)].

ثم إن الدنيا كلها قليلة الثمن، فهي لا تزن عند الله جناح بعوضة[(٢)]، بينما ركعتا الصبح - وهي لا تستغرق أكثر من دقيقتين- خيرٌ من الدنيا وما فيها[(٣)].

نعم، لقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]، ولكن بما يعينك علىٰ تحقيق الهدف؛ لأنك بدون

(١) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

(٢) إشارة إلىٰ حديث سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافرًا منها شربة ماء**»، أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا علىٰ الله عز وجل، (٢٣٢٠) وقال: «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، (٤١١٠)، والحاكم (٧٨٤٧)، وصححه، وضعفه الذهبي بزكريا بن منظور، وجاء من حديث أبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل ركعتي الفجر، (٧٢٥)، والترمذي (٤١٦)، والنسائي (١٧٥٩).

مال لا تستطيع أن تتعبد، فهي وسيلة وليست غاية، ومع الأسف؛ فإن بعض المسلمين علىٰ مر العصور جعلوها غاية، وهي في زمننا هذا أشد؛ بحيث تُصرَف جميع الجهود والطاقات من أجل الدنيا.

فهذا مثل عظيم جـدًّا، ضربه النبي ﷺ لفساد ديـن المسلم بالحرص علىٰ المال، والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم وقد غاب عنها رعاؤها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها.

ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين -والحالة هذه- إلا قليل، فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء علىٰ المال والشرف؛ إفساده لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساويًا، وإما أكثر، يشير إلىٰ أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه علىٰ المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل.

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص علىٰ المال والشرف في الدنيا.

[الشرح]

[فائدة أمثال السنة وشرح المثل النبوي في هذا الحديث]

«**فهذا مثل عظيم جدًّا**»، أي: أن هذا الحديث مثل من الأمثال

النبوية التي أُلِّفت فيها مؤلفات[1]، وهي مبثوثة في كتب السنة من الصحيحين والسنن وغيرها، وقد جُمِعت في مصنفات، وفائدتها مثل فائدة أمثال القرآن التي جاء فيها: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فعلىٰ طالب العلم أن يُعنَىٰ بأمثال القرآن والسنة؛ ليكون - إذا عقلها - من أهل العلم. والحصر في هذه الآية الكريمة يدل علىٰ أن الذي لا يعقل الأمثال ليس من أهل العلم، فلنحرص علىٰ معرفة أمثال القرآن، وأمثال الحديث.

والفائدة - أيضا - من أمثال السنة التي جاءت عن النبي ﷺ، كما في هذا الحديث، توضيحُ المعنىٰ للسامع، كما قيل: «بالمثال يتضح المقال»، فأحيانًا يؤتىٰ بكلام فيه نوع خفاء، فإذا جيء به في مثلٍ محسوس - مثل هذا الحديث - اتضح؛ ولذا لما ضرب النبي ﷺ مثلًا للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر مع غيرهم من الواقعين في المحرمات بقوم: «**استهموا**[2] **علىٰ سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا علىٰ مَن فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا**

(١) وذلك مثل: «الأمثال في الكتاب والسنة» للحكيم الترمذي، و«أمثال الحديث» لأبي الشيخ الأصبهاني، و«أمثال الحديث المروية عن النبي ﷺ» للرامهرمزي.

(٢) أي: اقترعوا؛ ليظهر لكل نصيبه؛ فلا يقدم بعضهم علىٰ بعض بالتشهي. ينظر: طرح التثريب؛ للعراقي (٢/ ٩٤٣).

ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا علىٰ أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا»[1]، أدرك كل واحد منزلة أهل الحسبة: أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذين يأخذون علىٰ يد السفيه، ويحولون بينه وبين معصيته التي قد تكون سببًا في الهلاك العام، فأي مثل أوضح مما ذكره النبي ﷺ في هؤلاء الذين استهموا علىٰ سفينة؟ وأي مثل لفساد الدين بالحرص علىٰ المال والشرف أوضح مما ضربه النبي ﷺ بالذئبين الجائعين الضاريين اللذَين أرسلا وتُركا ولم يُمنَعا من أن يفترسا من زريبة الغنم، ومعلوم أن الذئب لا يكتفي بما يشبعه، بل لا بد أن يفسد ويفترس، فهذا مثلٌ عظيم جدًّا كما قال المؤلف.

«ضربه النبي ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص علىٰ المال، والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم»

إن هذا التشبيه يعتبر من باب تشبيه صورة بصورة وهو ما يسمىٰ في البلاغة العربية بتشبيه التمثيل، بغض النظر عن الآثار المترتبة علىٰ ذلك، فالمشبه به فسادٌ، والمشبه فسادٌ كذلك، ولا يلزم من أن يكون التشبيه مطابقًا من كل وجه، وإلا فما نسبة الضرر الحاصل

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة أو لا؟، (٢٤٩٣)، والترمذي (٢١٧٣)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

بفساد كل الغنم في المراعي إلىٰ الضرر الحاصل بفساد الدين؟! لا شيء. كما أنه لا توجد نسبة بين من خسر دنياه كلها ببذل نفسه في سبيل الله، وبين من أضاع دينه؛ فالذي خسر الدنيا خسر مدة محددة طالت أو قصرت، لكن الذي خسر الآخرة، وخسر دينه؛ قد خسر كل شيء.

«**وقد غاب عنها رعاؤها ليلاً**»؛ لأنه لو وجد الرعاء لكفّوا هذه الذئاب عنها.

«**فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها**»، أي: أن الذئبين سيأكلان من الغنم حتىٰ يشبعا، ثم يفترسان البقية، ويتركانها ميتة.

«**ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين - والحالة هذه - إلا قليل**»، وقد لا ينجو شيء.

وهذا المحب للمال والشرف قد يسلم من دينه شيء يسير، ويبقىٰ له منه شيء، وقد لا يبقىٰ له شيء ألبتة، فيبيع دينه بعرض من الدنيا - نسأل الله العافية -، وهذا وصف لآخر الزمان الذي فيه «يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرَض من الدنيا»[1] نسأل الله العافية.

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب الحث علىٰ المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، (١١٨)، والترمذي (٢١٩٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء من حديث أبي موسىٰ، وأبي أمامة رضي الله عنهما.

«فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء علىٰ المال والشرف؛ إفساده لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساويًا، وإما أكثر، يشير إلىٰ أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه علىٰ المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل. فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص علىٰ المال والشرف في الدنيا».

وهل المراد بصيغة «أفعل التفضيل» هنا حقيقتها؟ أو أنها قد استعملت في غير بابها وهو المعنىٰ الثاني لها؟ كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وذلك لأن أفعل التفضيل تقتضي اشتراك طرفين في وصف؛ إلا أن أحدهما أفضل من الآخر، فهل يشارك أهل النار أهل الجنة في أي شيء؟ لا، فأفعل التفضيل- إذًا ليست علىٰ بابها، بل إن معناها هنا بيانُ حسنِ ثوابهم ومآلهم.

وفي هذا الحديث - أيضًا - هل هناك مشاركة بين إفساد ذئبين لغنم، وإفساد الحرص علىٰ المال والشرف للدين؟ الجواب: لا، فالمراد أصل الوصف الذي هو الإفساد، بغض النظر عن مقدار هذا الفساد، وذاك الإفساد، ولا نسبة لضرر ما يتعلق بأمور الدنيا كالغنم

في هذا الحديث، بضرر ما يتعلق بأمور الآخرة كالدين، فالدين رأس المال، والدنيا لا شيء بالنسبة للآخرة.

فالمثال النبوي لتقريب المعنىٰ والصورة، ولفهم الكلام، لا للمقارَنة، وإلا فلا مقارنة بين غنم الدنيا كله وبين دين المرء المسلم.

فأما الحرص علىٰ المال فهو علىٰ نوعين:

أحدهما: شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة، والمبالغة في طلبه، والجدِّ في تحصيله واكتسابه من وجوهه، مع الجهد والمشقة.

وقد ورد أن سبب الحديث كان وقوع بعض أفراد هذا النوع، كما أخرجه الطبراني من حديث عاصم بن عدي رضي الله عنه قال: اشتريت مائة سهم من سهام خيبر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما ذئبان ضاريان في غنم أضاعها ربها بأفسد من طلب المسلم المال والشرف لدينه»[1].

[الشرح]

[ذم محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة]

«**فأما الحرص علىٰ المال فهو علىٰ نوعين**»، بدأ المصنف في تفصيل القول في الحرص علىٰ المال، والشرف، وبيان أنواعهما، ووجه الذم فيهما، وكيفية إفسادهما للدين، وبدأ بالحرص علىٰ المال، فبين أنه نوعان:

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٣١٧)، ولفظه: «ما ذئبان عاديان ظلا في غنم أضاعها ربها بأفسد لها من طلب المسلم المال والشرف لدينه».

«أحدهما: شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة، والمبالغة في طلبه، والجدِّ في تحصيله واكتسابه من وجوهه، مع الجهد والمشقة» أي: أن هذا النوع من الحرص: هو الحرص علىٰ المال بجمعه من وجوهه المباحة.

فالمال أنواع، منه: الذهب والفضة وقِيَم الأشياء، ومنه: الضِّياع والعقار، ومنه: القصور الفارهة، والمراكب، إلىٰ غير ذلك، فالانشغال بأي نوع من أنواعه، والحرص عليه داخل في الذم الوارد في سياق الحديث.

وهنا يجب التنبيه علىٰ أن مجرد حصول المال من غير حب شديد له لا شيء فيه، فالأصل أن التعلق بما حبب في الدنيا أمر جِبلِّي، فالإنسان مجبول علىٰ أن يحب السعة والرخاء، وهناءة العيش، وحصول شيء يغنيه عن غيره من الناس، لكن الذم متجه إلىٰ الحب الشديد للمال الذي يشغله عما هو أهم منه.

وقد ورد الأمر بقبول المال إذا جاء من غير طلب ولا استشراف[1]، وكان عمر رضي الله عنه يلوم من يأباه ويرده، فإذا كان من

(١) إشارة إلىٰ حديث عمر، قال: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، فقال: «**خذه، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك**» أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئًا من غير طلب ولا استشراف نفس، (١٤٧٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف، (١٠٤٥)، والنسائي (٢٦٠٦).

غير طلب ولا استشراف[1] أخذه، ما لم يكن ثمنًا لدينه.

قد يقول قائل: هناك أموال ظاهرها أنها مما يعين علىٰ العبادة، فهل يدخل الحرص عليها في الوعيد الوارد في قوله - جل وعلا -: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]؛ لأن العلماء قد ذكروا أن حذف متعلق التكاثر يدل علىٰ إرادة عموم المتكاثَر فيه[2]؟

فيقال: نعم، إذا شغل عما هو أهم منه، حتىٰ إن الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» لحظ أن في أهل وقته من يتكاثر بجمع الكتب، فقال عنه: «وهل جامع كتب العلم إلا كجامع الفضة والذهب؟»[3]، وهذا إذا كثرت وزادت عن الحاجة، وشغلت عما هو أهم منها؛ فتدخل في حيِّز الذم، وهذا ملاحَظ في القديم وفي الحديث، وقد ذُكر عن بعض المتقدمين أنه كان له ست عشرة دارًا كلها مملوءة كتبًا، ويقصدون بالدور الغرف، وكان لبعضهم من

(١) الطلب: باللسان، والاستشراف: بالقلب. ينظر: مختصر الفتاوىٰ المصرية (ص:٤٦١). وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية والمنح المرعية ٣/ ٢٨٤: «واستشراف النفس؛ أن تقول: سيبعث لي فلان، أو لعله يبعث لي وإن لم يتعرّض، أو يعرِض بقلبك: عسىٰ أن يفعل. نص عليه». وقد ذهب أحمد - في رواية- إلىٰ وجوب الأخذ مع عدم الطلب والاستشراف؛ لظاهر الأمر. ينظر: الآداب الشرعية؛ لشمس الدين المقدسي ٣/ ٢٨٣.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي ٢٠/ ١٦٩.

(٣) اقتضاء العلم العمل (ص: ١٥).

كتاب الصحاح عشرون نسخة، ليست من النسخ التي تباع الآن بثمن بخس من الطبعات الرديئة المبذولة، بل مخطوطات؛ لأن الطباعة لم تكن قد ظهرت في وقتهم.

وهذا كله مما يشغل، وقد مر بنا وبغيرنا أمثلة من التعلُّق بالكتب والطبعات، ولا شك أنه يشغل ويلهي، وأحيانًا ينسىٰ الإنسان نفسه وهو يقلب الكتب المعروضة للبيع، وتضيع عليه الساعات، وهذا مذموم إلا فيما يحتاج إليه؛ لأنه قد يقول قائل: أنا أجمع الطبعات من أجل تصحيح الأخطاء التي قد تقع في بعضها، وهذا الكلام صحيح، فإذا جمعت من كتاب كل طبعاته، لتصحيح كلمة واحدة، فلا بأس؛ لأنه إذا كان بهذا القصد ولهذا الهدف ففيه عون علىٰ تحقيق العلم، لكن الكلام هنا علىٰ القدر الزائد علىٰ ذلك، الذي يَشغَل ويُشغِل الذمة، ويُلهي عما هو أهم.

وإذا نظرنا إلىٰ مكتبات شيوخنا وشيوخهم، لن نرىٰ عندهم إلا كتبًا قليلة، لكنها قرئت مرارًا، واكتفوا بها، ولا بأس في أن يجمع الإنسان له مكتبة وافية مستوعبة لجميع العلوم والفنون، ولو لم يقرأها، وإنما يرجع إليها عند الحاجة، والأمور متيسرة ومتوفرة، بخلاف ما كان في زمن مضىٰ إذا طلبوا كتابًا لم يجدوه إلا عند شخص واحد؛ فإما أن يستعار ويقرأ، أو يستعار وينسخ، وكل زمان له ما يناسبه.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ قد أدخل الحرص علىٰ المال وجمعه من وجوه مباحة في سياق الذم الوارد في الحديث؛ لأنه يشغل عما هو أهم منه، وإن كان مباحًا ويصرفَ في وجوه مباحة أيضًا.

ورأينا هذا النوع – مع الأسف – في عوام المسلمين بعد انفتاح الدنيا عليهم، وبعد الاتصالِ بالعالم الخارجي، والتعلُّقِ بالشاشات والبورصات، والأشياء التي تذهل السامع وتشغل الجامع.

ففي وقت ثورة الأسهم[1] اجتمع فئام من الناس في أحد البنوك، وصلوا صلاة الظهر في الصالة، فجهر الإمام، وقال المصلون: آمين! بل سُمع من يقول: آمين وهو ساجد، ووجد من يرفع أصبعه، كأنه يتشهد وهو ساجد، ووجد من قال: آمين، لما سلم الإمام. وهذا شيء لا يخطر علىٰ بال.

ولما انخفضت الأسهم وجد من اختل عقله، ومن أصيب بأمراض معضلة، وهذا ما يتناوله الحديث، إن لم يكن أعظم منه، وهذا علىٰ فرض أن تلك الأسهم كانت مباحة، ومع ذلك كانت تصد المنشغل بها عما هو أهم منه، بل وصل ببعضهم إلىٰ هذا الحد الجنوني.

تصور أن شخصًا وقد شابَ في الإسلام، يقول لجاره المنافس له في تجارته: إن إبليس أحب إلي منك!

(١) إشارة إلىٰ الانهيار الذي حصل في بورصة الأسهم السعودية عام ١٤٢٧ هـ.

وأن شخصًا لما قيل له: إن الصلاة علىٰ فلان - وهو ابن عم له - بعد صلاة العصر، طلب منهم أن يؤخروها إلىٰ المغرب من أجل انشغاله بدكانه! وهذا من عبادة الدرهم والدينار، نسأل الله العافية.

«وقد ورد أن سبب الحديث كان وقوع بعض أفراد هذا النوع، كما أخرجه الطبراني من حديث عاصم بن عدي رضي الله عنه قال: اشتريت مائة سهم من سهام خيبر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما ذئبان ضاريان في غنم أضاعها ربها بأفسد من طلب المسلم المال والشرف لدينه»[(١)].

رواه الطبراني في الأوسط، والكبير عن عاصم بن عدي، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: «إسناده حسن»[(٢)]. وواضح من سبب ورود الحديث أنه كان مباحًا؛ فشراء سهامِ خيبرَ لا شيء فيه؛ ولذا أورده المصنف هنا؛ ليدلل به علىٰ صحة دعواه: أن الحرص علىٰ طلب المال من وجوهه المباحة مذموم.

والنبي ﷺ - كما جاء في سنن أبي داود - اقتنىٰ مائة من الغنم، فكان ﷺ كلما نتجت بهمة من هذه الغنم ذبح مكانها واحدة من الكبار، ويقول: «لا نريد أن تزيد»[(٣)]؛ لأنه ﷺ ينظر إليها علىٰ أنها

(١) سبق تخريجه (ص: ٣٣)، ووقع في معجمي الطبراني ومستدرك الحاكم: «أنا وأخي»، وفي المستدرك (٣/ ٤٧٤): «من سهام حنين».

(٢) مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٠.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الطهارة، باب الاستنثار (١٤٢)، وأحمد (١٦٣٨٤)، وابن حبان (١٠٥٤)، والحاكم (٧٠٩٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث لقيط بن صبرة رضي الله عنه.

حاجة تبلِّغه إلىٰ ما يرضي الله – جل وعلا – لا أكثر[(١)].

وإذا اكتُسِب المال من حله، وأُنفِق في وجوه الخير، فنعم المال الصالح للعبد الصالح[(٢)]. فإذا زادت محبة المال، واشتد طلبه من وجوهه المباحة، دخل في الذم.

(١) ينظر: الإلمام بأحاديث الأحكام ٤/ ١٨٦.

(٢) إشارة إلىٰ حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بعث إلي رسول الله ﷺ فأتيته، فأمرني أن آخذ علي ثيابي وسلاحي ثم آتيه. قال: ففعلت، ثم أتيته وهو يتوضأ، فصعد في البصر، ثم طأطأ، ثم قال: «يا عمرو إني أريد أن أبعثك علىٰ جيش، فيغنمك الله، ويسلمك، وأرغب لك رغبة صالحة من المال» قال: فقلت يا رسول الله، إني لم أسلم رغبة في المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو نعما بالمال الصالح للرجل الصالح». أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠)، والحاكم (٢١٣٠)، وصححه علىٰ شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(أسباب ذم الحرص على طلب المال)

ولو لم يكن في الحرص علىٰ المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له، وقد كان يمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلا، والنعيم المقيم، فضيعه الحريص في طلب رزق مضمون، مقسوم لا يأتي منه إلا ما قُدِّرَ وقُسِّمَ، ثم لا ينتفع به، بل يتركه لغيره ويرتحل عنه، ويبقىٰ حسابه عليه، ونفعه لغيره، فيجمع لمن لا يحمده، ويَقدُم علىٰ من لا يعذره، لكفىٰ بذلك ذمًّا للحرص.

فالحريص يضيع زمانه الشريف، ويخاطر بنفسِه التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار لجمع مال ينفع به غيره، كما قيل:

ولا تحسبن الفقر مَنْ فَقَدَ الغنى

ولكن فقد الدين من أعظم الفقر

قيل لبعض الحكماء: إن فلانًا جمع مالاً، فقال: فهل جمع أيامًا ينفقه فيها؟ [قيل: لا،][1] قال: ما جمع شيئًا.

وفي بعض الآثار الإسرائيلية: الرزق مقسوم، والحريص محروم.

ابنَ آدم إذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا، فمتىٰ تطلب الآخرة؟!

(١) زيادة من طبعة أبي القاسم عبد العظيم.

إذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزًا

فما أنت في يوم القيامة صانع

[الشرح]

[السبب الأول: تضييع الأعمار في الدنيا على حساب الأخرى]

بدأ المصنف في تعليل دخول الحرص علىٰ طلب المال في الذم وإن كان من وجوه المباحة، عاضدًا كلامه بالنقول عن المتقدمين.

وأول ما ذكره المصنف أن في الحرص علىٰ جمع المال تضييعًا للوقت الجدير بأن يصرف في أمر الآخرة.

«ولو لم يكن في الحرص علىٰ المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمة له»، أي: كل القيم لا تساويه، فهو من النفاسة بحيث لا يقدَّر بقيمة.

«وقد كان يمكن صاحبه فيه اكتساب الدرجات العلا، والنعيم المقيم»، فالإنسان إذا ضيَّع من عمره الساعات في الحرص علىٰ المال وجمعه، فمتىٰ يجد وقتًا للأعمال الصالحة؟! فلو اقتطع من هذه الساعات ساعة يقرأ فيها ثلاثة أجزاء من القرآن أو أربعة، لكان بقية سعيه لدنياه لا يعدل شيئًا بالنسبة لقراءة القرآن، وقل مثل هذا في غير القرآن من وجوه الخير والطاعة، فإذا لم يجعل من عمره لآخرته، فحاله كما قال المصنف:

«**فضيَّعَهُ الحريصُ في طلبِ رزقٍ مضمون**»؛ لأنه يكتب رزقه وهو في بطن أمه إذا أرسل إليه الملك[1]، ولن تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها وأجلها[2]، وعليه فيكون من اشتد حبه وطلبه للمال قد ضيَّع عمره في طلب رزق مضمون مقسوم: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢] مع أن هذا الرزق:

«**لا يأتي منه إلا ما قدر وقسم**»، فهل يمكن لإنسان – مهما بلغت أسبابه وأعوانه وأدواته – أن يحصل من الرزق أكثر مما كتب له؟

(١) إشارة إلىٰ حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها**» أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (٣٢٠٨)، ومسلم كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٨)، والترمذي (٢١٣٧)، وابن ماجه (٧٦).

(٢) إشارة إلىٰ حديث جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفسا لن تموت حتىٰ تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم**». أخرجه ابن ماجه ، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، (٢١٤٤). وأخرجه ابن حبان (٣٢٣٩)، والحاكم (٢١٣٤)، وصححه علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

لا يمكن؛ وفي الحديث: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**»[(١)].

ثم إذا جمع هذا المكتوب وهذا المقسوم، وسعىٰ في الأسباب، وانشغل بجمع الأموال الطائلة، وتعب في جمعها، وجمع أكثر مما يحتاجه في هذه الدنيا، ورحل عنها، فالقدر الزائد لا ينتفع به، بل يتركه لغيره كما قال المصنف:

«**ثم لا ينتفع به، بل يتركه لغيره**»، من الورثة، فهذا المال الزائد عن حاجته مال غيره وليس ماله؛ ولذا جاء في الحديث: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»[(٢)].

ومن العِبَر أن الإنسان قد يتعب ويعيش العمر الطويل، يجمع الأموال، وتيسر له أسبابه، ويجتمع عنده من الأموال مئات الملايين أو أكثر من ذلك، ويكون ممن لم يكتب له ولد، ثم يؤول هذا المال إلىٰ ابن عم بعيد، بينه وبينه عداوات طيلة عمره، فتنتقل هذه الأموال إليه.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٨٧)، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد (٢٨٠٣)، والحاكم (٦٣٠٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، (٦٤٤٢)، والنسائي (٦٣١٢).

ولا يقتصر الأمر علىٰ أنه يضيع عمره في جمع الأموال، بل:

«**ويرتحل عنه، ويبقىٰ حسابه عليه، ونفعه لغيره، فيجمع لمن لا يحمده**»، فالمال قد يؤول إلىٰ ابنٍ عاقٍ، أو زوجة ناشز عصية، أو قريب هاجر.

بل قد يبتلىٰ الإنسان بالجمع والمنع، فيكرهه أقرب الناس إليه ويتمنون موته، ومع الأسف وجد من يصرح بذلك وهو من أبناء هذا المسكين الذي أضاع عمره في الجمع، فلم ينتفع به، بل صار محض بلاء عليه.

«**ويقدم علىٰ من لا يعذره**»، أي: في الحساب، فقد لا يقبل عذره في تضييعه لعمره. صحيح أن رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كل شيء فيها مطمع لكل مسلم، لكن مع ذلك علىٰ الإنسان أن يحتاط لنفسه، ويقدم لنفسه ما ينجو به من شدة الحساب.

فلما كانت كل هذه المفاسد تترتب علىٰ شدة حب المال، مع شدة الحرص علىٰ جمعه، ولو كان من وجوه مباحة قال المصنف:

«**وكفىٰ بذلك ذمًّا للحرص. فالحريص يضيّع زمانه الشريف**»، فعلًا، يضيع زمانه الشريف! وقد أدركنا من كبار السن من يتعبون بالليل والنهار جمعًا للمال، بينما جاره يعيش عيشة هنية، وهو أقل منه مالًا، وقد يكون ممن عاش علىٰ زكاة الأوّل وصدقته.

«ويخاطر بنفسِه التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار؛ لجمع مال ينفع به غيره، كما قيل:

ولا تحسبن الفقر مَنْ فَقَدَ الغنى

ولكنَّ فَقْدَ الدين من أعظم الفقر»

تحسبن: بفتح السين وكسرها. والدين: هو رأس المال، فإذا فقده الإنسان فما بقي له شيء.

وكذلك قيل:

وكـل كسر فـإن الدين جابره

وما لكسر قناة الدين جبران[(١)]

وجاء في بعض طبعات الكتاب قبل البيت السابق في كلام المؤلف:

«ومـن ينفق الأيـام في جمع ماله

مخافة فقر فالذي فعل الفقر[(٢)]»

ويوجد من أرباب الأموال ومن أثرياء العالم من يعيش عيشة الفقراء، لا يتلذذ بنوم، ولا بأكل، ولا بفراش، وتجد نفسه رديئة،

(١) هذا هو البيت الواحد والستون من قصيدة عنوان الحكم لأبي الفتح البستي.

(٢) هو البيت العاشر من قصيدة للمتنبي يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي، ومطلعها: أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر. ينظر: اللامع العزيزي، شرح ديوان المتنبي ٥٣٤.

وأخلاقه سيئة، يثور لأدنىٰ سبب؛ حفاظًا علىٰ ما جمعه من هذه الأموال، ويكون مجرَّد راصد لها.

«قيل لبعض الحكماء: إن فلانًا جمع مالاً فقال: فهل جمع أيامًا ينفقه فيها؟ [قيل: لا،] قال: ما جمع شيئًا»[1]؛ لأنه إذا لم يتمكن من إنفاق الأموال علىٰ نفسه التي هي أولىٰ ببرها من غيرها، فكأنه لم يجمع لها شيئًا.

وهذه من العبر: أن يجمع المال ثم لا ينتفع به؛ فكم ترىٰ من كبارِ سنٍّ في السبعين والثمانين يجتمعون في الليل إلىٰ الصباح ينظرون في الشاشات والبورصات، يتابعون أسعار العملات، وأسهم الشركات ارتفاعًا وانخفاضًا، وما هي النتيجة؟ إذا ارتفع السوق أخذ دواء، وإذا انخفض أخذ غيره! فهل هذه حياة؟!

ثم النتيجة أنه يجمع المليارات، ولم يستفدْ منها في شيء، وإنا لنعرف من هذا النوع من يملكون مئات الملايين، وهم محجوبون عن الأكل اللذيذ، فيأكل أكلًا لا يستساغ، والله المستعان.

هذه نتيجة إضاعة العمر الذي هو أغلىٰ ما يملك الإنسان في جمع الحطام، وهذا إفساد المال للدين، وهذا أمر ظاهر؛ ويكفيه أنه قد يؤذن المؤذن وهو في تجارته فيتأخر، وأحيانًا تفوته بعض الصلاة، وأحيانًا تفوته الصلاة بالكلية، هذه نتيجة حب المال.

(١) ذكر نحوه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٣٥٦، عن أحد الأعراب.

[متى يكون طلب المال غير مذموم؟]

يُفهَم مما سبق من كلام المؤلف: أن الإنسان له أن يجمع بقدر الحاجة، ولا يزيد علىٰ ذلك، فإن قيل: فماذا عن قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «**إنك أنْ تذرَ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرَهم عالة يتكففون الناس**»[1]؟

فالجواب: أن المقصود بهذا الحديث ما كان بدون الحرص الذي مر وصفه مما يشغل عما هو أهم منه، فإذا حصل جمع المال من طرقه المباحة، ومن غير حرص، مقدمًا الأولويات الأهم فالأهم، وتيسر له من الأموال ما كتب وقسم له بطريقة لا تشغله عن الأهم، علىٰ أن يبرأ من عهدته بإخراج ما أوجب الله عليه، ويزيد علىٰ ذلك مما ينفعه في آخرته؛ فنعم المال الصالح للعبد الصالح.

ولقد مات عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ الخليفة الراشد، ولم يترك شيئًا لورثته، فلما قيل له في ذلك قبل موته، قال: «إنَّما ولد عمر بَين أحد رجلَيْنِ إمَّا رجل صَالح فسيغنيه الله وإمَّا غير ذلك فَلَنْ أكون أول من أعانه بالمالِ علىٰ مَعْصِيّة الله»[2].

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، (١٢٩٥)، ومسلم كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، (١٦٢٨)، وأبو داود (٢٨٦٤)، والترمذي (٢١١٦)، والنسائي (٣٦٢٦)، وابن ماجه (٢٧٠٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) ينظر: سيرة عمر بن عبد العزيز؛ لعبد الله بن الحكم بن أعين (ص: ١٠١)، والبداية والنهاية ١٢/ ٧١٥.

والحديث بلا شك مقدم، فلا أحد يقارن بين كلام عمر بن عبد العزيز وما ثبت عن النبي ﷺ، لكن وجهة نظر عمر بن عبد العزيز هل هي مقبولة أم لا؟

إذا زادت ثقة الإنسان بالله، وقوي توكله علىٰ الله، فلا بأس، والعلماء يشترطون هذا الشرط لمن أراد أن يتصدق بجميع ماله[(١)]، كما فعل أبو بكر عندما تصدق بجميع ماله، وتصدق عمر بنصف ماله، كما في الخبر الصحيح[(٢)].

وقد عُمِّر سعد بن أبي وقاص بعد ذلك ورزق أولادًا؛ إلا أن الحديث كان في حال قد غلب علىٰ ظنه أنه يفارق الحياة، والنبي ﷺ جاء بكلام مطلَق عام: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**»[(٣)].

---

(١) ينظر: المبدع ٢/ ٤٢٧، وقال عن جواز الصدقة بجميع ماله بالشروط التي ذكرها: «حكاه عياض عن جمهور العلماء وأئمة الأمصار».

(٢) إشارة إلىٰ حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، وأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «**يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلىٰ شيء أبدًا. أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك (أي: من باب الرجل يخرج من ماله)، (١٦٧٨)، والترمذي كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق، (٣٦٧٥)، وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (١٥١٠)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) سبق تخريجه (ص: ٦٢).

والمقصود أن يترك لهم ما يكفيهم بحيث لا يحتاجون إلىٰ الناس.

فطلب المال مشروع علىٰ وجهين: الأول: طلبه علىٰ وجه تحصل به الكفاية والغنىٰ وعدم الزيادة علىٰ ذلك، وهذا الأفضل؛ لما ورد في سنن أبي داود من ذبح النبي ﷺ للشاة الزائدة علىٰ المائة[1].

الثاني: طلبه بلا حد مع عدم غلبة الحرص عليه، والانشغال عما هو أهم، وهذا جائز، ويشهد له فعل بعض أغنياء الصحابة، وكذلك إطلاق مشروعية طلب الرزق.

وكون الحديث يأتي سياقه ذمًّا لطلب المال، إنما هو في الحرص الذي يترتب عليه تضييع ما هو أهم من جمع المال ولو كان من حله.

«وفي بعض الآثار الإسرائيلية: الرزق مقسوم، والحريص محروم»[2]، يكثر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في مؤلفاته من إيراد الآثار الإسرائيلية التي جاءت عن بني إسرائيل، والنبي ﷺ يقول: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[3]، وهذا في الصحيح، وعند ابن أبي

(١) سبق تخريجه (ص: ٥٣).
(٢) ذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية ٣/ ٣٠٧، ونسبه إلىٰ الحكماء.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وجاء من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

شيبة: «**فإنه كانت فيهم أعاجيب**»[1]، فالحديث عن بني إسرائيل فيما لم يرد من شرعِنا بخلافه جائز.

«ابن آدم إذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا، فمتىٰ تطلب الآخرة؟»؛ لأن الدنيا ضَرَّة للآخرة، فإذا حرصت عليها وأفنيت وقتك وعمرك من أجلها، فلا شك أن الضرة تتأثر، فلا ينبغي أن يُنفَق هذا الوقت النفيس كله في الدنيا، فعلىٰ الإنسان أن يتوازَن؛ مستحضرًا الهدف الذي خلق من أجله، ومستحضرًا ما يحتاج إليه في تحقيق الهدف من الدنيا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. فالشخص الذي يجلس في بيته ويدع الأخذ بالأسباب، ويقول: أنتظر الرزق؛ فهذا مخطئ؛ لأن السماء -كما قال عمر-: لا تمطر ذهبًا ولا فضة[2].

[وجوب الأخذ بالأسباب والتوازن بين طلب الدنيا والآخرة:]

ينبغي ألا يفهم من كلام المصنف أنه يندب إلىٰ ترك الدنيا بالكلية، بل علىٰ المسلم أن يكون متوسطًا في أموره متوازنًا؛ بحيث لا يذل للناس، ويحتاج إليهم، ويكون عالة عليهم، فاليد العليا

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٨٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٤٨٦)، وفي الأدب (٢٠٦)، ومن طريقه عبد بن حميد في المنتخب (١١٥٦)، والفوائد لتمام (٢٢٩)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ٢/ ٦٢، وأخرجه البيهقي في الشعب ٥/ ١٨٢ من قول أبي الدرداء بنحوه مطولًا، وينظر: الاستذكار ٨/ ٦٠٧.

-وهي المعطية المنفقة- خير من اليد السفلىٰ -وهي السائلة-[(١)]، وإن كان بعض المتصوفة يرىٰ العكس؛ يرىٰ أن اليد العليا الآخذة والسفلىٰ المعطية؛ تبريرًا لكسلهم وخمولهم، وعيشهم علىٰ أرزاق الناس، فهم يأخذون من الناس ويقولون: اليد العليا الآخذة؛ لأنها نائبة عن الله في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [التغابن: ١٧]، فالفقير الآخذ نائب عن الله[(٢)].

والمعطي من الناس جعله الله سببًا لرفع الحاجة عن بعض الناس، فهو مجرد سبب، والنبي ﷺ يقول: «إنما أنا قاسم، والله يعطي»[(٣)]، والغني حينما يعطي الفقير فإنما يعطيه من مال الله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وبذل السبب مطلوب عقلًا وشرعًا، ونافع ومؤثِّر بإذن الله: «لو أنكم كنتم توكَّلون علىٰ الله حق توكله، لرزقتُم؛ كما يرزق الطير

(١) إشارة إلىٰ حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلىٰ، فاليد العليا: هي المنفقة، والسفلىٰ: هي السائلة**». أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنىٰ، (١٤٢٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلىٰ، وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلىٰ هي الآخذة، (١٠٣٣)، وأبو داود (١٦٤٨)، والنسائي (٢٥٣٣)، وجاء من حديث أبي هريرة، وحكيم بن حزام، وأبي أمامة رضي الله عنهم.

(٢) ينظر: طرح التثريب ٤/ ٧٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، (٧١)، ومسلم كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، (١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[1]، يعني: أنها تبذل السبب، فلا تجلس في أوكارها ثم يأتيها الرزق، فبذل السبب مطلوب.

وبعض طلبة العلم، إذا قلتَ له: متىٰ تحفظ الكتاب الفلاني، أو متىٰ تحضر الدرس؟ يعتذر لنفسه قائلًا: إذا جاء الشتاء وطال الليل بدأنا بالحفظ، وهذا موجود عند عموم الطلبة ممن يحتاجون إلىٰ إثارة الهمة في نفوسهم، قال الشاعر:

إذا كان يؤذيك حر المصيف

ويبس الخريف وبرد الشتا

ويلهيك حسن زمان الربيع

فأخذك للعلم قل لي: متى[2]

ولا شك أن هذا التسويف من العجز في الأخذ بالأسباب.

وكذلك الاعتماد علىٰ الأسباب شرك؛ لأن الأسباب لا تؤثر بذاتها، بل بجعل الله الأثر فيها؛ خلافًا لمن يقول: إنها مؤثرة بذاتها كالمعتزلة، وخلافًا لمن يقول: إنها لا أثر لها ألبتة، وأن وجودها مثل

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب التوكل علىٰ الله (٢٣٤٤)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، (٤١٦٤)، وأحمد (٢٠٥)، والحاكم (٧٨٩٤)، وصححه، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) هذان البيتان لأحمد بن فارس الرازي اللغوي، رواهما عنه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٤/ ٣٤٨.

عدمها؛ فسواءٌ بذلتَ سببًا أم لا، فلا فرق؛ كما يقوله الأشعرية[1].

«إذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزًا

فما أنت في يوم القيامة صانع»

فإذا كنت في الدنيا عاجزًا عن أن تفعل الطاعات وتؤدي الواجبات، وعاجزًا عن ترك المحرمات، فإذا وافيت يوم القيامة، ونوقشت عن الصلاة والصيام والزكاة وسائر الطاعات، فماذا تقول؟! سيكون عذرك العجز.

فهل هذا عذر؟! الله - جل وعلا- خلقك ورزقك وكلفك، وأعطاك من القدرة ما تستطيع به أن تؤدي الواجبات، وما لا تستطيعه عَذَرَك بتركه، وأعطاك من القدرة ما تستطيع به أن تجتنب المحرمات، ثم تفني عمرك فيما لا نفع فيه؟!

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ٨/ ١١١، وما بعدها. وإعلام الموقعين ٤/ ٦٥.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «اليقين ألا تُرضي الناسَ بسخطِ الله، ولا [تحسد][1] علىٰ رزق الله، ولا تلوم أحدًا علىٰ ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره، فإن الله بقسطه وعلمه جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وقال بعض السلف: إذا كان القدر حقًّا، فالحرص باطل، وإذا كان الغدر في الناس طباعًا، فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت لكل أحد راصدًا، فالطمأنينة إلىٰ الدنيا حمق.

[الشرح]

[السبب الثاني: الحرص علىٰ المال لا ينفع في زيادته]

نستشف من هذا الكلام سببًا آخر من أسباب ذم الحرص علىٰ جمع المال ولو كان من وجوهه المباحة، وهو أن هذا الحرص لا ينفع في زيادة المال؛ لأن الإنسان لن يأخذ إلا ما قسم الله له، فإذا كان الأمر علىٰ هذا النحو، فلِمَ الحرص إذن؟

(١) في مجموع رسائل ابن رجب: [تحمد]، والمثبت من تحقيق أبي القاسم عبد العظيم، موافقًا لتعليق الشارح.

«قال ابن مسعود رضي الله عنه: اليقين ألا ترضي الناس بسخط الله»[1]، أي: فاجعل همَّك رضا الله، فمن أرضىٰ الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، وبالمقابل: من أرضىٰ الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس؛ فعن عائشة: أن رسول الله ﷺ، قال: «**من التمس رضا الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، وكله الله إلىٰ الناس**»[2].

«وألا تحسد أحدًا علىٰ رزق الله»، فالحسد آفة وداء من أدواء القلوب، يأكل الحسنات[3]، ويضر الحاسد قبل غيره.

«ولا تلومَ أحدًا علىٰ ما لم يؤتك الله»، فإذا عرضت الأرزاق؛ كالوظيفة، أو توزيع المحسنين، أو العطاء من بيت المال، أو غير ذلك، ولم يكتب الله لك شيئًا فيها، فلا تَلُمْ أحدًا بسبب المنع؛ لأنه شيء لم يكتبه الله لك، فالله - جل وعلا- هو المعطي، وقد يدخل رجلان متقاربان في حاجتهما علىٰ أحد الأغنياء فيعطي هذا، ولا

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين (٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٥)، وأخرجه البيهقي(٢٠٤) والطبراني في الكبير مرفوعًا، قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٧١): «فيه خالد بن يزيد العمري، واتهم بالوضع، وله شواهد لا يفرح بها».

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، (٢٤١٤)، وابن حبان (٢٧٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب**». أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب الحسد، (٤٩٠٣)، وجاء من حديث أنس، قال البخاري في التاريخ الكبير ١/ ٢٧٢: «لا يصح».

يعطي ذاك، وقد يكون المعطَىٰ أيسرَ حالاً من المحروم، فالله - جل وعلا- هو المعطي.

«**فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص**»، فإن قال قائل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا نتعب؟ فيقال: إن الصحابة رضوان الله عليهم قالوا ذلك من قبل، فأجابهم رسول الله ﷺ بقوله: «**اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له**»[1]، فأنت مأمور ببذل السبب، والنتيجة بيد الله - جل وعلا -.

فالرزق مقدر ومقسوم ومكتوب؛ لا يزيد ولا ينقص، سواء حرصت أو لم تحرص، إذا بذلت السبب المناسب، فلا تعجز ولا تترك السبب قائلًا: «أنا متوكِّل»، ولا تحرص حرصًا يزيد علىٰ المطلوب لمثل ما طلبت، فإنه لن يأتيك إلا ما كتب لك.

«**ولا يرده كراهة كاره**»؛ فأحيانًا يكون بيد الكاره نوع تصرُّف وسلطة، ومع ذلك فالمكتوب لا بد أن يصل ولو كره من بيده أمر.

(١) إشارة إلىٰ حديث علي رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئا، فجعل ينكت به الأرض، فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة**» قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل علىٰ كتابنا، وندع العمل؟ قال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥- ٦] الآية. أخرجه البخاري كتاب التفسير، بَابُ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٧]، (٤٩٤٩)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، (٢٦٤٧)، والترمذي (٢١٣٦)، وابن ماجه (٧٨)، وجاء من حديث عمر بن الخطاب، وعمران بن حصين، وسراقة بن جعشم رضي الله عنهم.

«**فإن الله بقسطه**» أي: بعدله «**وعلمه جعل الرَّوح والفرح**» أي: الراحة والطمأنينة، راحة القلب وراحة البدن «**في اليقين والرضا**»، فإذا وجد اليقين بما عند الله - جل وعلا- والرضا بما كتب الله، حصلت الراحة والطمأنينة التامة. وما نشاهده اليوم في الناس عمومًا من تعب في القلوب، وإن وُجِدت راحة الأبدان، إنما هو من ضعف اليقين، فتجد الإنسان إذا حضر في مصيبة لغيره يكون من أثبت الناس، ومن أكثر الناس استحضارًا للنصوص، وإذا كانت المصيبة تخصه فلا شيء من ذلك، بل يطيش عقله؛ وذلك لضعف اليقين عنده.

والناس كانوا إلىٰ وقت قريب أبدانهم متعبة، يكدون في تحصيل المعيشة، ويتعبون علىٰ ذلك تعبًا شديدًا في أبدانهم، لكن إذا انتهت أعمالهم وأووا إلىٰ فرشهم نسوا الدنيا كلها، أما الآن، فعلىٰ العكس؛ الأبدان ارتاحت، والمعيشة توسعت، فلا يحتاجون إلىٰ تعب كبير، لكن القلوب غير مرتاحة.

وكان الإنسان يسافر إلىٰ الحج من الصين، ومن الهند، ومن السند، ومن الشرق، ومن الغرب لمدة سنة أو سنتين، ويأتون إلىٰ الحج في راحة وسعادة، مع أن الأبدان شقيت؛ لأنها في العراء علىٰ الإبل، أو علىٰ الأقدام في الشمس وفي البرد، لكن القلوب مرتاحة، بل تجد من يؤلف كتبًا وهو في السفر؛ وذلك لأن القلب مرتاح؛ لثقته بالله ويقينه به، أما الآن فالسفر إلىٰ الحج ساعة، أو أقل، أو أكثر، لا تصل

إلىٰ نصف يوم، والبدن مرتاح، ويصل الحاج إلىٰ المشاعر وثوبه لم يتأثر، لكن القلب مشحون؛ فلو تأخر فتح باب الطائرة خمس دقائق وجدت الناس يتدافعون علىٰ سلم الطائرة، فلماذا؟

لأنه وإن ارتاحت الأبدان فالقلوب شقيت؛ لما أثر عليها من أمور الدنيا ومن تعلق بغير الله.

وقد كان الركوب في السابق علىٰ الإبل، والمسافة التي تُقطع اليوم في ساعة كانوا يقطعونها في أيام، فهذا الترف الذي نعيشه ليس بخير محض، بل فيه خير لمن استغله واستفاد منه وصرفه فيما يرضي الله - جل وعلا -، وبقية الناس لديهم من التعاسة ما لا يوجد نظيره عند السابقين مع ضيق الدنيا عندهم.

«**وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»، يروىٰ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته**»[(١)].

---

(١) روي هذا الحديث بهذا اللفظ عن عدد من الصحابة؛ منهم:

١. عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٣٣٢)، والبيهقي في الشعب (٩٨٩١)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١).

٢. حذيفة رضي الله عنه، أخرجه البزار (٢٩١٤). قال في مجمع الزوائد ٤/ ٧١: «فيه قدامة بن زائدة بن قدامة، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات».

٣. أبو أمامة رضي الله عنه، أخرجه الطبراني في الكبير (٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٦. قال في مجمع الزوائد ٤/ ٧١: «فيه عفير بن معدان، وهو ضعيف».

بعض الناس - من حرصه علىٰ الدنيا - إذا ضاقت به المسالك المباحة، لجأ إلىٰ غيرها، وأسوأ منه الذي فتحت عليه الدنيا، وهو مع ذلك لا يقنع بما أباح الله له، فتجده يتوسع في المباحات حتىٰ يقوده ذلك إلىٰ مزاولة الشبهات، ثم يقوده ذلك إلىٰ ارتكاب المحرمات؛ طلبًا للرزق واستعجالاً له، ولا يدري المسكين أنه يجمع حطبًا يوقَد عليه به في نار جهنم، نسأل الله العافية.

«وقال بعض السلف: وإذا كان القدر حقًّا فالحرص باطل»[(١)]، ولا يعني كون القدر حقًّا، ترك الأخذ بالأسباب، بل إن هذا القدر مرتب علىٰ أسباب، فلا بد من وجود هذه الأسباب؛ لتترتب المسببات، ومقصود المؤلف: ذم الحرص، وليس مراده ذم بذل الأسباب.

«وإذا كان الغدر في الناس طباعًا»، يعني: مغروسًا في النفوس، مجبولًا عليه، **«فالثقة بكل أحد عجز»**؛ لأن الغدر موجود في كثير من الناس، فتكون الثقة بجميع الناس نوعًا من الغفلة والعجز.

«وإذا كان الموت لكل أحد راصدًا، فالطمأنينة إلىٰ الدنيا حمق»؛ لأنها لا بد أن تفارقه، ويفارقها؛ فالموت مكتوب علىٰ كل حي، ما عدا الله جل وعلا؛ فهو حي لا يموت.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٢٨) عن هشام بن إسماعيل.

كان عبدُ الواحد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحلف بالله: لَحِرْصُ المرءِ علىٰ الدنيا أخوفُ عليه عندي من أعدىٰ أعدائه.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: يا إخوتاه، لا تغبطوا حريصًا علىٰ ثروة وسعة في مكسبٍ ولا مالٍ، وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرديه غدًا في المعاد، ثم يبكي.

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحرص حرصان: حرص فاجع، وحرص نافع؛ فأما النافع، فحرص المرء علىٰ طاعة الله، وأما الفاجع، فحرص المرء علىٰ الدنيا؛ مشغول معذَّب لا يسرُّ ولا يلتذ بجمعه لشغله، ولا يفرغ من محبته الدنيا لآخرته، كذلك وغفلته عما يدوم ويبقىٰ.

ولبعضهم في المعنىٰ:

لا تغبطنَّ أخَا حرصٍ على سعة
وانظر إليه بعين الماقت القالي

إن الحريص لمشغول بشقوته
عن السرور بما يحوي من المال

وأنشد آخر في المعنىٰ:

يا جامعًا مانعًا والدهر يرمقه
مفكرًا أيُّ باب منه يغلقُه

جمعتَ مالاً ففكرْ هل جمعت له
يـا جـامـع المـال أيـامًـا تفرقُه
المـــالُ عـنـدك مخــزونٌ لـوارثـهِ
ما المـالُ مالَك إلا يـومَ تنفقه
إنَّ القناعةَ من يحُلُلْ بساحتِها
لم يـلـقَ في طلب ممـا يـؤرقُـه

[الشرح]

[السبب الثالث: الحريص على المال لا ينتفع به]

تحدث المصنف هنا من خلال هذه النُقُول عن سبب ثالث يزهد في الحرص علىٰ المال، وهو أن الحرص مشغلة للمرء عن كونه ينتفع بما جمع، فإنه إذا أنفق وقته في جمع المال، فأين ومتىٰ يجد وقتًا للاستمتاع بهذا المال؟ هذا فضلًا عن أنه يتركه لغيره، ويحاسَب عليه وحده.

«كان عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ يحلف بالله: لَحرصُ المرء علىٰ الدنيا أخوفُ عليه عندي من أعدىٰ أعدائه»[1]؛ وذلك لأن الحرص وصف ملازِم له في خلوته وفي حضرته، وفي كل وقت، وأما العدو فقد يوجَد وقد يغيب.

(١) أخرج هذه الأقوال عنه: ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٤٩).

وعبد الواحد بن زيد كما جاء في تاريخ الإسلام للذهبي هو: «عبد الواحد بن زيد، أبو عبيدة البصري العابد القدوة، شيخ الصوفية بالبصرة...

وهو ضعيف الحديث؛ قال البخاري: عبد الواحد بن زيد تركوه. وقال النسائي: متروك الحديث. وقال ابن حبان: كان ممن غلب عليه العبادة حتىٰ غفل عن الإتقان، فكثر المناكير في حديثه. قال أحمد بن أبي الحواري: قال لي أبو سليمان: أصاب عبد الواحد الفالج[1]، فسأل الله أن يطلقه في وقت الوضوء، فإذا أراد أن يتوضأ انطلق، وإذا رجع إلىٰ سريره فلج»[2]. وذكر له الذهبي مواعظ ومواقف، فمن أراد الاطلاع عليها فليراجعها.

ومثل هذا الكلام من الأئمة إنما هو في ضعفه في الرواية، والحفظ، ومثل هؤلاء يغلب عليهم الضعف؛ لانشغالهم عن حفظ الحديث بالعبادة ، فتأخذهم الغفلة التي يقول عنها العلماء: غفلة الصالحين؛ لأنه من العباد النساك[3].

(١) داء يرخي نصف البدن، فيصيب أحد شقي الجسم طولًا، وهو ما يسمىٰ بالمصطلح الحديث الشلل النصفي. ينظر: لسان العرب ٢/ ٣٤٦. والمعجم الوسيط ٢/ ٦٩٩.

(٢) بتصرف يسير من: تاريخ الإسلام ٩/ ٥٠٩ – ٥١٠.

(٣) ينظر : تاريخ ابن يونس المصري (١/ ١٧٨).

وقد ينبغ الإنسان في جانب، ويضعف في جوانب؛ فأبو حنيفة متكلَّم فيه مع أنه الإمام الأعظم في الفقه(١)، وكذلك عاصم بن أبي النَّجود إمام من أئمة القراء متكلم في حفظه(٢)، ولا يرتاب أحد ولا يتردد في تواتر قراءته، ومع ذلك غفل عن حفظ الحديث، وكذلك محمد بن إسحاق فهو إمام في المغازي، ومع ذلك مضعَّف في الرواية(٣).

«وكان رَحِمَهُ اللهُ يقول: يا إخوتاه، لا تغبطوا حريصًا علىٰ ثروة وسعة في مكسبٍ ولا مالٍ»؛ وذلك لأنه أضاع في مقابل ذلك ما هو أنفع له منه، وأنفس ما يملك، وهو عمره الذي لا قيمة له ، فإنه أضاعه في جمع المال ولو كثر هذا المال.

«وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليوم بما يرديه غدًا في المعاد، ثم يبكي»؛ لأن ما جمع سوف يحاسب عليه حسابًا شديدًا دقيقًا، وسيُسأل عن كل صغير وكبير، من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟(٤).

---

(١) ينظر علىٰ سبيل المثال: طبقات ابن سعد ٦/ ٣٤٨. والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٤٥٠. ولعل هذا لما نقمه عليه السلف من الأخذ بالرأي؛ ولذلك نراه موثقًا عند كثير من العلماء كما في تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٩٩٠.

(٢) ينظر: ميزان الاعتزال ٢/ ٣٥٧.

(٣) ينظر: لسان الميزان ٩/ ٤٠٢.

(٤) إشارة إلىٰ حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتىٰ يسأل عن خمس، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم**»، أخرجه الترمذي،=

وكان عبد الواحد بن زيد قائل هذا الكلام إذا قاله يبكي[1]. وفي بعض النسخ «ثم يتكبر»[2]، ويكون نعتًا للحريص، ومعناه: أنه إذا اجتمعت عنده الأموال، ونظر إلىٰ الناس بعين الازدراء كان من لازم ذلك أن يتكبر عليهم.

«ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **الحرص حرصان: حرص فاجع، وحرص نافع؛ فأما النافع، فحرص المرء علىٰ طاعة الله**» يعني: أن الحرص النافع: هو الحرص علىٰ ما ينفعه في آخرته.

«**وأما الفاجع، فحرص المرء علىٰ الدنيا**» والذي من لازمِه أن يضيع ما ينجيه، وهو «**مشغول معذَّب**» بما كسبه وبما فاته؛ بما كسب خشية أن ينقص، أو يسرق، أو يذهب بالكلية بموت أو فساد أو ما أشبه ذلك، فهو معذب بما جمع، ومعذب أيضًا بما فاته، متحسر عليه.

«**لا يسرُّ ولا يلتذ بجمعه لشغله**»، فهل لديه من الوقت ما يتلذذ فيه بما جمع؟! فهو حريص يلهث وراء الأموال، وليس عنده من الوقت ما يتلذذ فيه بما جمع.

=كتاب القيامة والرقائق والورع، باب القيامة، (٢٤١٦)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود، عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث من قبل حفظه»، وجاء من حديث أبي برزة، وأبي سعيد، ومعاذ رضي الله عنهم.

(١) ينظر: ذم الدنيا؛ لابن أبي الدنيا (١٤٩).

(٢) ينظر: تحقيق أبي القاسم عبد العظيم (ص: ٢٧).

«ولا يفرغ من محبته الدنيا لآخرته، كذلك وغفلته عما يدوم ويبقىٰ»، فهو مشغول بجمع المال عن أمر آخرته، كما شغل بجمعه عن أن يسرّ أو يلتذ به، وإن فرغ بعض الوقت لأمر آخرته، فإن قلبه يظل معلقًا بجمع ماله، فإذا دخل المسجد ظل قلبه معلَّقًا بتجارته، فإذا دخل في الصلاة طفق يحسب ما كسبه، وما فقده، فيدخل إلىٰ الصلاة ويخرج منها بلا شيء، وليس له من صلاته إلا ما عقل، وهذا حال كثير من الناس الذين شغلوا بدنياهم، فهو منتبه لدنياه، وغافل عن آخرته.

«ولبعضهم في المعنىٰ:

لا تغبطنَّ أخَا حرصٍ على سعة

.................................»

أي: سعة في مال وفيغيره من أمور الدنيا.

«.................................

وانظر إليه بعين الماقت القالي»

أي: أنه إذا كان هذا المال وهذه السعة قد صدته عما هو أهم من ذلك، فإنه حينئذٍ يمقت.

أما إذا كان قد كَسَبَ هذه الأموال من وجوه حلال، وأنفقها فيما ينفع به نفسه في دينه ودنياه وآخرته وينفع غيره، فالأمر غير ذلك.

«إن الحريص لمشغول بشقوته

عن السرور بما يحوي من المال»[١]

فالحريص ليس عنده وقت للالتذاذ بالذي أفنىٰ عمره في جمعه من الحطام.

«ولآخر في هذا المعنىٰ: يا جامعًا..» (جامعًا) منادىٰ، وهو مفرد حقه أن يبنىٰ علىٰ الضم، لكنه لما كان نكرة غير مقصودة نصب ونُوِّن، فقوله: (جامعًا) لا يقصد به شخصًا بعينه، بل هو نكرة غير مقصودة، ويمثل العلماء لهذا بقول الأعمىٰ: يا رجلاً خذ بيدي[٢].

«يا جامعًا مانعًا والدهر يرمقه

مفكرًا أي بـاب منه يغلقه[٣]

جمعت مالاً ففكر هل جمعت له

يـا جامع المـال أيـامًـا تفرقه»

كما جاء في كلام الحكيم السابق لَمَّا قيل له: إن فلانًا جمع أموالًا طائلة، فقال: فهل جمع أيامًا ينفقه فيها؟ قيل له: لا، قال: ما جمع شيئًا.

(١) هذه الأبيات لمحمود الوراق. ينظر: ديوان الزهد والحكمة (شعر محمود الوراق)، (ص: ٦٢).

(٢) ينظر:شرح الكافية الشافية ١/ ٢٢٣.

(٣) في القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا (ص: ٦٢):

.... مُقَدِّرًا أَيَّ نَابٍ فِيهِ يَعْلَقُهُ

«المـــال عندك مخــزون لوارثه

ما المـــال مالك إلا يــوم تنفقه»

يعني كما في الحديث: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**»[1]، فالذي ينفقه ويقدمه لآخرته، فهذا ماله، وما يتركه للوارث، فهذا مال غيره.

«إنَّ القناعةَ من يحلُلْ بساحتِها

لم يَلْقَ في ظِلِّها همًّا يؤرقُه[2]»

القناعة هي الكنز الذي لا ينفد ولا يفنىٰ، ولا شك أن القناعة عز؛ ولذا قيل: «عَزَّ من قنع، وذَلَّ من طمع»[3].

---

(١) سبق تخريجه (ص: ٥٨).

(٢) تنسب هذه الأبيات لأبي علي البصير، ولأبي عبد الرحمن العطوي، ولابن المعتز. ينظر: القناعة والتعفف، لابن أبي الدنيا (ص: ٦٢)، يتيمة الدهر ٢/ ٧٠، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ٢/ ٥٣٦.

(٣) ينظر: غذاء الألباب شرح منظومة الآداب؛ للسفاريني ٢/ ٤٣٠.

كتب بعض الحكماء إلىٰ أخ له كان حريصًا علىٰ الدنيا: أما بعد، فإنك أصبحت حريصًا علىٰ الدنيا تخدمها وهي تزجرك عن نفسها بالأعراض، والأمراض، والآفات، والعلل، كأنك لم تر حريصًا محرومًا، ولا زاهدًا مرزوقًا، ولا ميتًا عن كثير، ولا متبلغًا من الدنيا باليسير.

عاتب أعرابي أخاه علىٰ الحرص فقال له: يا أخي أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته، وتطلب أنت من قد كفيته، يا أخي ألم تر حريصًا محرومًا وزاهدًا مرزوقًا؟

وقال بعض الحكماء: أطول الناس همًّا الحسود، وأهنؤهم عيشًا القنوع، وأصبرهم علىٰ الأذىٰ الحريص، وأخفضهم عيشًا أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرِّط.

ولبعضهم في هذا المعنىٰ:

الحـــــرص داء قـــد أضـــ
ـــــرَّ بمن تـــرى إلا قليلاً
كـــم مـــن حـــريـــص قـد
صـــيرَّه الحـــرص ذلـــيـــلاً[1]

(١) هكذا في المطبوع مكسورة الوزن، والصواب كما في بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ١٥٦، والدر الفريد وبيت القصيد ٤/ ٣٩١:
الحـــرص داء قد أضـــرَّ بمـــن تـــــرىٰ إلا قليـــلاً

ولغيره:

كـــــم أنـــــــت لـــلـــحـــر
ــــــــص والأمـــــاني عبد
ليس يجـدي الحـرص والسعـ
ـــــي إذا لم يـــــكُ جـد
لــيــس لمـــا قـــدره الـــــ
ـــــلّه مـن الأمــر بـد[1]

ولأبي العتاهية يخاطب سَلْمًا الخاسر:

تعالىٰ اللهُ يا سلْم بنَ عمرو
أذل الحرص أعناق الرجال

ومن كلام المأمون: الحرص مفسدة للدين والمروءة، وأنشد شعرًا:

حـــرص الحـــريـــص جـنـونٌ
والـــصـــبر حـــصـــن حـصـينْ

كـم من عـزيـز قد رأيـــ ــــت الحـرص صيَّره ذليلاً

(١) هكذا في المطبوع مكسورة الوزن، والصواب كما في العقد الفريد ٣/ ١٥٩، بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ١٥٦:

كــم إلىٰ كــم أنت للحــر ص وللآمـــــال عبــــدُ
ليس يجدي الحرص والسَّعـ ـــي إذا لــم يك جـــــدُّ
ما لما قـد قـدّر اللَّـــــ ــــه مـن الأمــر مــردّ

إن قــــدر الله شـيـئًـا

لا بـــد مـــن أن يـــكـــونْ

وقال غيره:

حتى متى أنا في حل وترحالِ

وطـول سعي وإدبـار وإقبـالِ

ونـازح الـدار لا ينفك مغتربًا

عن الأحبة لا يـدرون ما حالِي

بمشرق الأرض طورًا ثم مغربها

لا يخطر الموت من حرص على بالِي

ولو قنعت أتاني الـرزق في دعة

إن القنُوع الغنى لا كثرةُ المالِ

وغيره:

أيهـا المـتـعـب جـهـدًا نفسَهُ

يطلب الدنيا حريصًا جاهدًا

لا لـك الـدنـيـا ولا أنـت لها

فاجعل الهـمَّـين همًّـا واحـدًا

[الشرح]

[الحريص علىٰ الدنيا عبد لها، والعاقل هو الزاهد فيها]

بعد ما سبق ذكره من كلام عن ذم الحرص علىٰ طلب المال، وتبين ما فيه من تضييع للأعمار بغير فائدة؛ فهو من ناحية لا يزيد في المال، ومن ناحية أخرىٰ لا ينتفع به صاحبه؛ لأنه لا يجد لنفسه وقتًا ينتفع فيه بما جمع، بل يترك ما جمع لغيره، ويحاسب عليه وحده، كل هذا إن دل علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ أن الحريص إنما هو خادم لحرصه، عبد له؛ لأن العبد نفعه لسيده، لا لنفسه، وهكذا الحرص لا ينتفع به صاحبه، بل يذله، ويقهره، وهذا المعنىٰ هو ما يستفاد مما يأتي من كلام المصنف.

«كتب بعض الحكماء إلىٰ أخ له كان حريصًا علىٰ الدنيا»[(١)]، لا شك أن الزهد في الدنيا مع أخذ ما تقوم به حياة المرء هو الحكمة، وهو العقل أيضًا؛ ولذلك قال بعضهم: لو أوصىٰ بعضهم إلىٰ أعقل الناس، أو إلىٰ عقلاء الناس؛ فإن الوصية تنصرف إلىٰ الزهاد[(٢)].

(١) أخرجه ابن بشران في الأمالي (٧٥٠) عن عمران بن موسىٰ، وذكره ابن أبي الدنيا في القناعة والتعفف (ص: ٦١).

(٢) نص عليه الإمام الشافعي. ينظر: البيان ٨/ ٢٢٨. ودقائق أولي النهىٰ؛ للبهوتي ٢/ ٤٢٥.

«**أما بعد، فإنك أصبحت حريصًا علىٰ الدنيا تخدمها**»، «أما» حرف شرط، و«بعد» قائم مقام الشرط، مبني علىٰ الضم؛ لأنه مقطوع عن الإضافة مع نية معنىٰ المضاف إليه، والفاء واقعة في جواب الشرط، وما بعدها جواب الشرط.

ولا شك أن الحريص يخدم المال ويخدم الدنيا، والقنوع تخدمه الدنيا، والمال.

«**وهي تزجرك عن نفسها بالأعراض، والأمراض، والآفات، والعلل**»، أي: أن الدنيا تزجرك - أيها الإنسان - عن نفسها، وأنت تتقرب إليها بكل ما تستطيع؛ فهي تارة تعطيك ما يرغبك فيها من الأرباح، والمكاسب، وما فيها من زهرة، وتارة تزجرك عنها بالأمراض، والأعراض، والآفات، والعلل، كما قال هذا الحكيم، وهذه كلها مما يزهِّد في الدنيا، ويرغِّب في الآخرة التي هي في حقيقتها خالية عن كل ذلك.

«**كأنك لم تر حريصًا محرومًا**»، حريصا يلهث ليل نهار، وفي النهاية: لا يحصِّل شيئًا.

«**وزاهدًا مرزوقًا**»، هناك أحد العلماء العباد الزهاد سُرِق من بيته خمسون ألفًا، وهذا الشخص أنا أعرفه منذ أكثر من خمسين سنة، حياته من البيت إلىٰ المسجد، فقال القائل: كيف استطاع هذا

السارق أن يسرق من بيت هذا الرجل الصالح الذي يمكث في بيته من صلاة العشاء إلىٰ أن يخرج لصلاة الصبح؟ وأنا قلت: أعجب من ذلك كيف اجتمع المال عند هذا الرجل الصالح وهو لا يقبل الصدقات، وليس له تسبب واضح معلوم يجمع فيه الأموال؟

فالرزق بيد الله - جل وعلا -، وكثرة الدخل، والرواتب لا تعني أن صاحبها أكثر مالًا، فكم من مرؤوس يقرض رئيسه، وهذا راتبه أكثر من هذا مرات، فالبركة بيد الله - جل وعلا- وهذا شيء مشاهد.

ومن أسباب البركة: الإخلاص لله جل وعلا، وإبراء الذمة بأداء العمل علىٰ الوجه المطلوب، وحسن التدبير.

«**ولا ميتًا عن كثير**» فكم من أموات ماتوا عن مئات الملايين! ثم ماذا؟!

«**ولا متبلغًا من الدنيا باليسير**»، إن من غرائب ما سمعت من القصص في مساوئ الحرص، وما فعله بأصحابه: أنَّ شخصا توفي قبل سنواتٍ أربع أو خمس، وكان يسكن بمفرده في بيت طين مهجور، وليس فيه أي أثاث؛ ينام علىٰ كرتون ثلاجة، ويأخذ الماء من المسجد، ولا يستخدم الكهرباء، بل يشعل قرطاسًا إلىٰ أن يصل إلىٰ مكان النوم وينام، وطول اليوم يكتفي بنور النهار، ويتصدق

عليه الناس، وهو معلم، درّس ما يقرب من أربعين سنة، فلما مات، تساءل أقاربه: أين أمواله التي جمعها خلال هذه المدة؛ إذ لم يكن يصرف شيئًا من دخله؟ فحفروا في المجلس الذي كان يجلس فيه، فوجدوا الرواتب من أول شهر توظف فيه إلىٰ أن مات؛ في علب الحليب، كل راتب مربوط بحبل ومكتوب عليه تاريخه، كما هي لم تنقص ريالًا. وكذلك وجدوا عنده حقائب مصفوفة بعضها فوق بعض، فيها مشالح؛ وقد جرت العادة في بلدهم أنه إذا أعرس ولد أو بنت من العائلة، فإنه يُعطِي العمَّ أو الخال مشلحًا، وكانت هذه المشالح التي وجدوها بعدد الأفراد الذين تزوجوا من أولاد إخوانه، وأولاد أخواته.

فهل هذه حياة؟! إنها من أغرب الوقائع التي بلغتني! نعوذ بالله من الحرمان.

«وعاتب أعرابي أخاه علىٰ الحرص، فقال له: يا أخي أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته»[(١)]، أي: أنت طالب لما تحتاجه من هذه الدنيا، و مطلوب يطلبك من لا تفوته، وهو: الموت، فإذا جاء أجلك فأنت مطلوب للآخرة، وإنما هي مدة قصيرة تقضيها في الدنيا وتنتهي، فهل تتصور أن تفوت؟ لا يمكن ولو ملكت الدنيا كلها،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٣، عن إبراهيم بن أدهم، والبيهقي في الشعب (١٢٧٠) عن الأصمعي، وابن بشران في أماليه (٧٥٠) عن عمران بن موسىٰ.

ولو كنت رئيسًا لأقوىٰ دولة، وأقوىٰ جيش، لن تستطيع أن تتأخر عن الموت لحظة.

«**وتطلب ما قد كفيته**»، فالرزق مضمون، ولكنه يحتاج إلىٰ بذل سبب.

«**يا أخي ألم تر حريصًا محرومًا وزاهدًا مرزوقًا؟**» وهذا مثل ما تقدم.

«**وقال بعض الحكماء: أطول الناس همًّا الحسود**»[1]، وهذا هو الذي لا يرتاح إلا أن تزول النعمة عن المحسود، ويبقىٰ فيه الهم والغم والحسد، وأخوه يزداد رفعة، ويزداد رزقًا، وهو لا يستطيع أن يصنع شيئًا، فهو في هم وغم دائمين، نسأل الله العافية.

«**وأهنؤهم عيشًا القنوع**»؛ لأنه قنع بما آتاه الله فارتاح.

«**وأصبرهم علىٰ الأذىٰ الحريص**»، فالحريص يصبر علىٰ الأذىٰ، وعلىٰ الإهانة من أجل أن يحصل له ما يطلب من حطام الدنيا.

«**وأخفضهم عيشًا أرفضهم للدنيا**»، يعني: العيشَ الهَنيَّ المتوسِّطَ الذي ليس فيه زيادة تضره، ولا نقص يحتاج إلىٰ إكمال.

---

(١) ينظر: أمالي ابن بشران (١٢٩٩).

«**وأعظمهم ندامة العالم المفرِّط**»، فالتبعةُ علىٰ العامِّيِّ أقلُّ من العالم؛ فإن الوقت الذي يجلس فيه العامي للأنس مع أهله، أو مع إخوانه، أو مع أصدقائه، لو أنفقه في ذكر الله – جل وعلا– أو قراءة ما ينفع، أو ما أشبه ذلك لكان أفضل؛ إلا أن التبعةَ عليه أقلُّ من التبعة علىٰ العالم ؛ لما يلزم من زكاة علمه، فإذا فرَّط في الساعة والساعتين ثم أفاق ندم علىٰ أنْ ضاع منه هذا الوقت بدون نفع ولا انتفاع.

وبقدر ما تعطي تؤجر، وبقدر ما تضيِّع تندم؛ فمن الشيوخ الذين أدركناهم من عَمِلَ ستين سنة دونَ أن يأخذ إجازةً ولو يومًا واحدًا، ودون أن يرتحل رحلةً أو نزهة، ولو ليوم واحد، وكل عمره عاشه في العلم والدعوة، وهناك بالمقابل من يضيع الأيام والشهور والأوقات، بالقيل والقال؛ إما مع الأهل والأولاد، أو في تنمية الأموال، أو مع الأصدقاء في الرحلات والنزهات والاستراحات.

يقول أحدُ الملازمين للشيخ ابن باز – رحمة الله عليه – يوم أن كان بالمدينة، يقول: سافر الشيخ مرة بالسيارة، ومعه اثنان يتناوبان القراءة عليه، فقال واحد منهم: يا شيخ، لو ارتحنا من القراءة وتفكرنا في مخلوقات الله من جبال، وأودية. فقال الشيخ: أنت تَفَكَّر ما دام صاحبك يقرأ عليّ، فإذا انتهىٰ قرأتَ أنت علي، وهو يتفكر.

«لا تعرضن لذكرنا مَعْ ذكرهم

ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد[(١)]

ولبعضهم في هذا المعنىٰ:

الحـــرص داء قــد أضـــ

ـــرَّ بمن تــرى إلا قليلاً

كـــم مـــن حـــريـــصٍ قـد

صَـــيرَّهُ الحـــرص ذلــيــلاً[(٢)]»

وفي نسخة: كم من عزيز.

فالحرص ذل، والقناعة عز؛ كما قيل: عز من قنع، وذل من طمع.

«ولغيره:

كـــم أنـــــت لـــلحـــر

ـــــص والأمـــــاني عبد

لـــيـــس يجـــــدي الحــــرص

والــســعــي إذا لم يـــكُ جـد»

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية بإسناده (٨/ ٢٦٦) عن مخلد بن الحسين.

(٢) تقدم التنبيه علىٰ تصويب البيت قريبًا.

لأن بعضهم يكون في نفسه حريصًا جـدًّا، لكنّ في جسده تكاسلًا، يريد كل شيء، ويمني نفسه بالأماني الكاذبة، وفي النهاية لا يفعل شيئًا، فعلىٰ الإنسان أن يكون جادًّا في حياته؛ في أمور دينه، وفي أمور دنياه.

«ليس لما قدره الـلّه من الأمر بد»[1]

لا بد أن يقع ما قدره الله، ولا بد أن يكون ذلك علىٰ مراد الله.

«ولأبي العتاهية[2] يخاطب سلْمًا الخاسر»

سلْم بن عمرو بن حمّاد من المعاصرين لأبي العتاهية، وهو من الملازمين لبشار بن برد[3]، وسُمِّيَ الخاسر؛ لأنه باع مصحفًا له،

(١) تقدم التنبيه علىٰ تصويب البيت قريبًا.

(٢) هو: إسماعيل بن القاسم، أبو إسحاق العنزي، المعروف بأبي العتاهية، لُقِّبَ به؛ لاضطراب كان فيه، وقيل: بل كان يحب المجون، فكني لعتوه: أبا العتاهية، إلا أنه زهد بعد ذلك. منشؤه الكوفة، ثم سكن بغداد، وهو شاعر سار شعره، وأكثرُ شعره حكمٌ وأمثالٌ. توفي عام ٢١١، أو ٢١٣هـ. ينظر: تاريخ بغداد؛ للخطيب البغدادي ٧/ ٢٢٦. وسير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٥.

(٣) هو: بشار بن برد، أبو معاذ البصري الضرير، شاعر العصر، ، بلغ شعره نحوا من ثلاثة عشر ألف بيت. وهو من موالي بني عقيل، ويلقب: بالمرعث؛ للبسه في الصغر رعاثًا، وهي الحلق، واحدها: رعثة، وولِد أعمىٰ. توفي عام ١٦٧هـ، وبلغ التسعين. ينظر: سير أعلام النبلاء ط الرسالة ٧/ ٢٤، وطبقات الشعراء لابن المعتز (ص: ٢١).

واشترىٰ بقيمته دفاتر شعر، وقيل طنبورًا[(١)]؛ فلذلك قال له:

«تعالى الله يا سلمُ بَـن عمرو

أذل الحرص أعناق الرجال»[(٢)]

«**سلم**» يجوز فيه البناء علىٰ الضم في محل نصب، أو البناء علىٰ الفتح في محل نصب، وهما قولان مشهوران يراجعان في كتب اللغة[(٣)].

«**ابن**» صفة منصوبة لا غير، والنداء في البيت السابق كهو في الحديث «**يا فاطمةُ بنتَ محمد**»[(٤)]، قال النووي بعد بيان جواز البناء علىٰ الضم والفتح: «والنصب أفصح، وأشهر، وأما بنت - أي: في الحديث -، وابن - أي: في بيت أبي الغتاهية - فمنصوب لا غير»[(٥)].

«**ومن كلام المأمون: الحرص مفسدة للدين والمروءة**»[(٦)]، والمأمون هو الخليفة المعروف، ومعنىٰ كلامه: أن الحرص علىٰ

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ١٩٣، وطبقات الشعراء لابن المعتز (ص: ٩٩).
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز (ص: ١٠٥).
(٣) ينظر: شرح ابن عقيل للألفية ٣/ ٢٦١.
(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب من انتسب إلىٰ آبائه في الإسلام والجاهلية، (٣٥٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٢٠٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) شرح النووي علىٰ مسلم ٣/ ٨٠.
(٦) ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣/ ٣١٦.

الدنيا يكون علىٰ حساب التفريط في أمور الآخرة. والحرص - أيضًا - يخل بالمروءة؛ لأنه لا بد أن يقع منه بسبب حرصه ما ينتقده به الناس.

«وأنشد شعرًا:

حــــرصُ الحــــريــــصِ جنــونْ
والــــصـــبرُ حــصـــنٌ حــصيــنْ
إن قَـــــــدَّرَ الله شــيــئًــا
لا بــــدَّ مــــن أن يــكـــونْ»

وفي نسخة جَعَلَ العَجُزَ: «فإنه سيكون».

قوله: «**حرص الحريص**»، يعني: القدرَ الزائد، وأما التفريط فغير مقبول؛ فالتفريط لا يقبل لا في أمور الدين ولا في أمور الدنيا، لكن الحرص المذموم هو القدر الزائد علىٰ ما يحتاج إليه في تحصيل مصالح الدين والدنيا.

«وقال غيره:

حتى متى أنا[1] في حل وترحال
وطــول سعي وإدبـــار وإقبال

(١) وفي بعض النسخ «أنت».

ونــازح الــدار لا ينفك مغتربًا

عن الأحبة لا يدرون ما حالِي»

فهو دائمًا مغترب، فإذا اغترب ونأىٰ عنهم، فإنهم لا يعلمون ما حاله لاسيما في أزمان مضت، يسافر الرجل ثم تنقطع أخباره، ويموت أهله وذووه الواحد تلو الآخر، وهو لا يدري، ولا توجد وسائل اتصال به، وكان بعضهم إذا سافر لطلب العلم تأتيه الرسائل، كل سنة رسالة أو رسالتان، فلا يفتحها؛ لأنه قد يكون فيها ما يكدِّره ويصرفه عما هو بصدده من طلب العلم، وليس بيده حيلة؛ لأنه لو أراد أن يرجع يحتاج إلىٰ ستة أشهر، أو أقل، أو أكثر بالوسائل السابقة؛ ولذا لا يفتح هذه الرسائل، وقد ذُكر ذلك في التراجِم. أما الآن، فلو كان في أقصىٰ الدنيا فإنك تستطيع أن تخاطبه وتشاهده، في الوقت نفسه.

«بمشرق الأرض طورًا ثم مغربها

لا يخطر الموت من حرص على بالِ»

إن الحريص واللاهث علىٰ الدنيا ينسىٰ الموت؛ ولذلك يقع فيما حرمه الله عليه، وقد يقع فيما يضره في بدنه، وفي ماله من شدة حرصه، كأن يزيد في الصفقة، فتعود عليه بالخسران.

ولو قنعت أتاني الـرزق في دعة

إن القنوع الغنى لا كثرة المال[(١)]

يعني: أن الغنىٰ ليس بكثرة المال، فالمال الزائد عن الحاجة لا ينفع ولا يفيد إن لم يرصد لنفع الغير؛ لأن بعض الناس يملك مئات الملايين، فيتعب نفسه حتىٰ يحصل علىٰ المليار، وهذا موجود في تجار اليوم، ويزيد تعبه حتىٰ يزيد علىٰ ذلك، وفي الحديث: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغىٰ ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله علىٰ من تاب**»[(٢)].

ولا فرق في حياة الرجل مع أسرته وهو مالك مائة مليون وبين كونه يملك مليارًا، لكنها أرقام فقط، إضافة إلىٰ أنه سيتعب حتىٰ يحصل علىٰ المليار، وقد يتطلب الأمر ارتكاب شيء من المحرمات التي تقضي علىٰ ما جمع، وبعضهم يتعب لجمع الأموال، ثم يعاقَب بصرفها علىٰ نفسه في علاج وغيره؛ عقوبة من الله - جل وعلا -، إما لأنه كان يقتحم المحرمات، وإما لأنه كان يبخل بالواجبات، وهذه نتيجة الحرص.

(١) رواها في تاريخ دمشق (٣٣/ ٣٣٤) عن الخليفة المأمون.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقىٰ من فتنة المال، (٦٤٣٦)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغىٰ ثالثا، (١٠٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وجاء من حديث أنس، وأبي سعيد، وعائشة، وابن عباس وغيرهم.

«وغيره:

أيهــا المـتـعـب جـهــدًا نفسَهُ
يطلب الدنيا حريصًا جاهدًا
لا لــك الـدنـيـا ولا أنـــت لها
فاجعل الهــمـين همًّــا واحـــدًا

فأنت لم تُخلَق للدنيا، وإنما خُلِقتَ لعبادة الله - جل وعلا -.

وقوله: «**فاجعل الهمَّين**» يعني: همَّ دنياك وهمَّ آخرتك، أي: فاجعل هذين الهمين همًّا واحدًا، واجعله لدينك وآخرتك فتُكفىٰ هَمَّ الدنيا، وهذان البيتان لمحمود الوراق[1].

(١) محمود بن الحسن الوراق؛ بغدادي توفي في خلافة المعتصم في حدود الثلاثين والمائتين. شاعر أكثر شعره في المواعظ والحكم. ينظر: سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٦١، وفوات الوفيات؛ لابن هارون ٤/ ٧٩.

أن يزيد علىٰ ما سبق ذكرُه في النوع الأول، حتىٰ يطلب المال من الوجوه المحرَّمة، ويمنع الحقوق الواجبة، فهذا من الشح المذموم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: «اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم».

قال طائفة من العلماء: الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه علىٰ أن يأخذ الأشياء من غير حلها، ويمنعها من حقوقها.

وحقيقته: شرَهُ النفس إلىٰ ما حرَّم الله ومَنَعَ منه، وألا يقنع الإنسان بما أحل الله له من مال أو فرج أو غيرهما.

فإن الله تعالىٰ أحل لنا الطيبات من المطاعم، والمشارب، والملابس، والمناكح، وحرَّم علينا تناول هذه الأشياء من غير وجوه حلها، وأباح لنا دماء الكفار والمحاربين وأموالهم، وحرَّم علينا ما عدا ذلك من الخبائث من المطاعم والمشارب

والملابس والمناكح، وحرَّم علينا أخذ الأموال وسفك الدماء بغير حلها[1].

فمن اقتصر علىٰ ما أبيح له، فهو مؤمن، ومن تعدىٰ ذلك إلىٰ ما مُنع منه، فهو الشح المذموم، وهو منافٍ للإيمان؛ ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشح يأمر بالقطيعة، والفجور، وبالبخل.

[الشرح]

[النوع الثاني من الحرص على المال]

لما فرغ المصنف من النوع الأول من أنواع الحرص علىٰ المال المذموم، وهو: شدة الحرص علىٰ طلبه، وشدة حبه من وجوهه المباحة، بدأ في بيان النوع الثاني من أنواع الحرص المذموم علىٰ المال، وهو: ما يزيد عن النوع الأول بطلبه من الوجوه المحرمة، وهو الشح، فقال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

«النوع الثاني من الحرص علىٰ المال: أن يزيد علىٰ ما سبق ذكره في النوع الأول حتىٰ يطلب المال من الوجوه المحرمة»، إن خشيةَ هذه الزيادة المحرمة هي التي حملت السلف علىٰ ترك أكثر المباح،

(١) في نسخة أبي القاسم عبد العظيم: «بغير حقها».

فكانوا يتركون تسعة أعشار الحلال خشية أن يقعوا في الحرام[(١)]؛ لأن الإنسان إذا استرسل مع المباحات، فطلبها بضراوة من الوجوه المباحة، ولم يجدها، اضطر إلىٰ أن يزاول ما فيه شبهة، ثم يتعدىٰ ذلك ويتطوَّر إلىٰ أن يطلبها من الوجوه المحرمة.

ونسمع كثيرًا من التأويلات لبعض الناس الذين توسعوا في المباحات؛ بحيث يبحثون عن الأقوال الشاذة في حكم بعض المسائل، وبعض صور المعاملات، ثم بعد ذلك يتجاوزونها إلىٰ أن يقعوا في المحرم الذي لا شبهة في تحريمه.

أما السلف، فحرصهم علىٰ دينهم جعلهم يتركون تسعة أعشار الحلال؛ خشية أن يقعوا في الحرام، فيقتصرون من دنياهم علىٰ البلغة؛ أي: علىٰ ما يبلغهم إلىٰ تحقيق الهدف الذي من أجله خلقوا، وهو تحقيق العبودية لله - جل وعلا-.

«فهذا من الشح المذموم»، سيأتي كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مفصلا عن الشح.

(١) ذكره الغزالي في الإحياء ٢/ ٩٥، والمناوي في التيسير ٢/ ٥٠٣ بلفظ: «الحرام»، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ٨/ ١٥٢، بسنده عن الشعبي قال: قال عمر: «تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا»، وقال غير واحد من أهل العلم: الشعبي لم يسمع من عمر. ينظر: جامع التحصيل (ص:٢٠٤).

«**قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾** [الحشر: ٩]»، الفلاح: كلمة جامعة للخير والفوز والظفر بالمصالح الدنيوية والأخروية.

«**وفي سنن أبي داود**[١] **عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «اتقوا الشح»**، أي: اجعلوا بينكم وبينه وقاية، **ولفظ أبي داود**: «إياكم والشح»[٢].

«**فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا**»، الشحيح كغيره من المسلمين يطلب منه أن يصل رحمه، وقد تتطلب الصلة بذل المال، فعلىٰ أقل الأحوال استئجار أو شراء دابة؛ ليصل بها إلىٰ من وجبت صلته أو بره؛ إلا أنه بسبب شحه لا يذهب إليه، بل لا يهاتفه مخافة التكلفة، كما هو مشاهَد في عصرنا الحاضر.

«**وأمرهم بالبخل فبخلوا**» بخلوا بما أوجب الله عليهم، وكم نرىٰ في الواقع مَن يبخل علىٰ نفسه، وعلىٰ زوجته، وعلىٰ أبنائه وبناته، ويجعلهم يتكففون الناس وهو غني، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة.

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب الشح، (١٦٩٨)، وأحمد (٦٤٨٧)، وابن حبان (٥١٧٦)، والحاكم (١٥١٦)، وصححه.
(٢) السابق.

وتأتي الأسئلة عن هذا: هل تأخذ الزوجة من الزكاة وزوجها غني، لكنه شحيح أو لا تأخذ؟ وهي مسألة معروفة عند أهل العلم[1]، ومع الأسف الشديد أن بعض هؤلاء غناه طائل وفاحش، ولكن مع ذلك تحتاج زوجته أو بناته أن يشتغلن في بيوت الناس، فعلىٰ هؤلاء أن يتقدموا إلىٰ القضاء، ويفرض علىٰ أولئك الذين منعوا ما أوجب الله عليهم، ما يجب عليهم.

«وأمرهم بالفجور ففجروا» إما بأيمان كاذبة، أو بمزاولة محرمات وفواحش؛ ليكتسبوا من ورائها، والله المستعان.

«وفي صحيح مسلم عن جابر ﵁ عن النبي ﷺ قال: «اتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[2].

ثم بدأ المصنف الكلام عن تعريف الشح، فقال:

«قال طائفة من العلماء: الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه علىٰ أن يأخذ الأشياء من غير حلها، ويمنعها حقوقها، وحقيقته شره[3] النفس» وفي نسخة: «أن تتشوف النفس»، **«إلىٰ ما حرم الله**

(١) ينظر: بدائع الصنائع؛ للكاساني ٤/ ٢٩، والتاج والإكليل لمختصر خليل؛ للمواق ٥/ ٥٥٠، ومغني المحتاج؛ للشربيني ٥/ ١٨٧، ٤/ ١٧٥، والمغني؛ لابن قدامة ٨/ ٢٠١، ونيل الأوطار؛ للشوكاني ٦/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٨).

(٣) الشره: أسوأ الحرص، وهو غلبة الحرص. لسان العرب ١٣/ ٥٠٦.

ومنع منه، وألا يقنع الإنسان بما أحله الله له من مال أو فرج، فإن الله تعالىٰ أحل لنا الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرَّم علينا تناول هذه الأشياء من غير وجوه حلها»، أي: شريطة أن يكون كسبها والحصول عليها من وجوه مباحة.

«**وأباح لنا دماء الكفار والمحاربين وأموالهم**»، ما لم يكونوا ذميين أو معاهَدين، فإن قتل المعاهد جاء فيه: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة**»، وكذلك من قتل ذميًّا[1]، وكذلك قتل المحارِبين، إذا ترتبت عليه مفسدة، وكان في غير القتال، فإنه لا يجوز.

فالكفار أصناف؛ فمنهم من لا يجوز قتله؛ كما جاءت بذلك النصوص، ومنهم من يجوز قتله لكن الأمر يحتاج إلىٰ رويَّة وتثبت ونظر في المصالح والمفاسِد، ولا يجوز ذلك إلا في قتال مع الإمام، أي: جهاد، وليس للأفراد أن يقتلوا من شاءوا ولو كانوا من المحارِبين.

«**وحرَّم علينا ما عدا ذلك من الخبائث من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرَّم علينا أخذ الأموال وسفك الدماء بغير حلها.**

(١) إشارة إلىٰ حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما**»، أخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، (٣١٦٦)، والنسائي (٤٧٥٠)، ولفظه: «**من قتل قتيلًا من أهل الذمة، لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا**»، وجاء من حديث أبي هريرة، وأبي بكرة.

فمن اقتصر علىٰ ما أبيح له، فهو مؤمن، ومن تعدىٰ ذلك إلىٰ ما مُنع منه، فهو الشح المذموم، وهو منافٍ للإيمان»، يعني: لكماله إذا لم يصل إلىٰ حد يخرجه من الملة.

«**ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشح يأمر بالقطيعة، والفجور، وبالبخل**».

والبخل: هو إمساك الإنسان ما في يده.

والشح: تناول ما ليس له؛ ظلمًا وعدوانًا من مال أو غيره، حتىٰ قيل: إنه رأس المعاصي كلها.

وبهذا فسَّر ابن مسعود وغيره من السلف الشح والبخل.

ومن هنا يُعلَم معنىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب مؤمن»، والحديث الآخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة»، وفُسِّر الصبر بالصبر عن المحارم، والسماحة بأداء الواجبات.

وقد يستعمل الشح بمعنىٰ البخل وبالعكس، لكن الأصل هو التفريق بينهما علىٰ ما ذكرناه.

ومتىٰ وصل الحرص علىٰ المال إلىٰ هذه الدرجة، نقص بذلك الدين والإيمان نقصًا بيِّنًا؛ فإن منع الواجبات وتناول المحرمات ينقص بهما الدين والإيمان بلا ريب، حتىٰ لا يبقىٰ منه إلا القليل جدًّا.

[الشرح]

[الفرق بين الشح والبخل، وأثرهما على الإيمان]

لما ذكر المصنف الشح وعرفه، شرع في تعريف البخل، وبيانِ الفرق بينه وبين الشح، فقال:

«والبخل هو إمساك الإنسان ما في يده، والشح تناول ما ليس له؛ ظلمًا وعدوانًا من مال وغيره، حتىٰ قيل: إنه رأس المعاصي كلها»، فما دام يحمل علىٰ القطيعة، ويحمل علىٰ الفجور، ويحمل علىٰ القتل، وقد يحمل علىٰ ما هو أعظم من ذلك، فهو رأس من رؤوس المعاصي.

«وبهذا فسر ابن مسعود وغيره من السلف الشح والبخل»(١)، فهناك فرق بينهما علىٰ ما ذكره المصنف؛ لأن بعض الألفاظ قد يُظَنُّ فيها الترادفُ، وهي في حقيقتها بينها فروق، قد يدركها البعض، وقد لا تُدرَك، وموضوعها كتب الفروق اللغوية، ككتاب أبي هلال العسكري(٢)، وهو من أنفع ما صُنِّف في هذا الباب.

«ومن هنا يعلم معنىٰ حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب مؤمن»(٣)، يعني: الإيمان الكامل، وإلا فقد يبخل الإنسان، وقد يشح، وقد يتعدىٰ ويأخذ

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٣/ ٢٨٥ وما بعدها.

(٢) هو: الحسن بن عبد الله بن سهل، أبو هلال العسكري، من عسكر مكرم، عاش إلىٰ ما بعد سنة أربعمائة، كان أديبًا لغويًا ذا تصانيف في غاية الجودة؛ كالفروق، والأوائل، والصناعتين، ومعاني الأدب، وشرح الحماسة، وغيرها. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٩/ ٣٣٨، وإنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة؛ للقفطي ٤/ ١٨٩.

(٣) أخرجه النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله علىٰ قدمه، (٣١١٠)، وأحمد (٧٤٨٠)، وابن حبان (٣٢٥١)، والحاكم (٢٣٩٤) وصححه، واللفظ الذي ذكره المصنف عند الطبراني في الأوسط (٥٨٧٨).

المال من غير حله، وقد يرتكب المحرمات في سبيل الحصول علىٰ المال، وقد يتنازل عن الواجبات - كما مر - في سبيل الحصول علىٰ المال؛ إلا أن أصل الإيمان يبقىٰ معه.

وإذا شح بجاهه أو بخل به، أو بمساعدة غيره ببدنه لغيره، فلا شك أنه يدخل في ذلك، فالشح والبخل يكونان في المال، وفي غير المال.

ومما هو أشد من البخل، منعُ من لا يملك الحقَّ من يستحقه؛ فمع الأسف أنه يوجَد بعض الخزنة ممن يولَّون علىٰ أموال، وبيوت أموال، وتوزيع صدقات، أو إعانات، أو كتب مثلاً في المستودعات، فيبخلون بذلك علىٰ مستحقيه، وليس هذا مالَهم، بل مالٌ وُلُّوا عليه، فهذا يتعدىٰ البخل.

«والحديث الآخر عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة»[1]**، وفُسِّر الصبر بالصبر عن المحارم، والسماحة بأداء الواجبات»**[2]، والأولىٰ أن يقصد بالصبر هنا الصبر بأنواعه؛ الصبر علىٰ الواجبات، والصبر عن المحرمات، والصبر علىٰ الأقدار.

(١) هذا اللفظ أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٣٤٤) عن الحسن مرسلًا، وأخرجه أحمد في مسنده (١٩٤٣٥) عن عمرو بن عبسة بلفظ قال: قلت: ما الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة»، قال: قلت: أي الإسلام أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»، قال في مجمع الزوائد ١/ ٥٤: «في إسناده شهر بن حوشب، وقد وثق علىٰ ضعف فيه».

(٢) وهو تفسير الحسن البصري كما رواه عنه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٥٥).

«**وقد يستعمل الشح بمعنىٰ البخل وبالعكس**»، كما قالت امرأة أبي سفيان، كما جاء في الصحيحين مِنْ: أنها جاءت إلىٰ النبي ﷺ فقالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح[1]، أي: بخيل بما أوجب الله عليه من النفقة.

وبعضهم يقول: الشح هو البخل؛ إلا أنه مع حرص[2]، ومن المشاهد أن بعض الناس يكون بخيلًا، لكنه ليس بحريص؛ بحيث ما يقع في يده لا يخرج، لكنه لا يجتهد في الأسباب لطلب الرزق، بل يطلبه بطريقة ليس فيها نوع حرص، أما بعض الناس- نسأل الله العافية -، فيحرص ويجمع ثم يمنع، وهذا هو الشحيح.

«**ولكن الأصل هو التفريق بينهما علىٰ ما ذكرنا**»، بعض العلماء أثبت وجود الترادف في الألفاظ من كل وجه، وأنه يمكن أن يوجد لفظان مختلفان لمعنىٰ واحد من كل وجه. وبعضهم نفىٰ ذلك نفيًا مطلقًا، وقال: لا بد من الفروق، وهذا رأي شيخ الإسلام وغيره[3]،

(١) أخرجه البخاري، كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف، (٥٣٦٤)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند، (١٧١٤)، وأبو داود (٣٥٣٢)، والنسائي (٥٤٢٠)، وابن ماجه (٢٢٩٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر ٣/ ٢٨٥.

(٣) قال في مجموع الفتاوىٰ ١٣/ ٣٤١: «الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن، فإما نادر وإما معدوم، وقلَّ أن يعبَّر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن». وينظر: الفروق لأبي هلال العسكري (ص: ١٧٦).

فلا بد عندهم من أن توجَد فروق ولو طفيفة، ومن نظر في كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال وجَد الفرق بين النوع، والصِّنف، والضرب، والقسم. والفرق بين قَعَدَ، وجَلَسَ، وغيرها من الألفاظ الذي يظن فيها الترادف بينما هي مختلفة.

«ومتىٰ وصل الحرص علىٰ المال إلىٰ هذه الدرجة، نقص بذلك الدين والإيمان نقصًا بيِّنًا، فإن منع الواجبات وتناول المحرمات، ينقص بهما الدين والإيمان بلا ريب»، يعني: أن الدين، والإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وكل من منع الواجبات، وتناول المحرمات يأثم، فينقص الدين به، وكل هذا مناقض للتقوىٰ التي هي فعل الواجبات وترك المحرمات.

«حتىٰ لا يبقىٰ منه إلا القليل جدًّا»، أي: يتدرج في هذا النقص، والسيئة تجر إلىٰ أختها، حتىٰ يخرج من الدين وهو لا يشعر، وكم من آية ذُيِّلَت بقوله - جل وعلا-: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، في أول الأمر معاصٍ وعدوان، ثم بعد ذلك يتطور الأمر إلىٰ ما هو أعظم من ذلك حتىٰ يصل إلىٰ الخروج من الدين.

وقرأنا عن بعض المبتدعة كلامًا لا يحتمله عقل، وهم أهل ذكاء، بل ذكاء مفرِط، فكيف يصل بهم الأمر إلىٰ أن يقول أحدهم مثل هذا الكلام؟

المسألة مسألة استدراج؛ يستدرج بالكلام، فيتكلم بالكلمة مما لا يرضي الله - جل وعلا-، ثم يعاقب بما هو أشد منها، حتىٰ سمعنا من بعض المبتدعة الكلام الذي لا يطاق سماعه، فهل يُتصوَّر عاقل يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أن يقول في يوم من الأيام: سبحان ربي الأسفل؟![1].

فليس هذا أول كلامه، بل إنه عوقب بهذا القول، فإنه لمَّا قال كلمة من سخط الله، عوقب بأشد منها، ثم عوقب بأشد إلىٰ أن وصل به الأمر إلىٰ أن قال مثل ذلك.

وقال الآخر:

بذكر الله تزداد الذنوب

وتنطمس البصائر والقلوب[2]

والله - جل وعلا- يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فكل هذه عقوبات.

---

(١) نقل عن بشر المريسي. ينظر: بيان تلبيس الجهمية؛ لابن تيمية ٥/ ٩٩، واجتماع الجيوش الإسلامية؛ لابن القيم ٢/ ٢٦٢.

(٢) ذكره الشعراني في الأنوار القدسية ١/ ٥٢، وهو لابن عربي الصوفي الحلولي. ينظر ديوانه ترجمان الأشواق (ص:٤).

وأما حرص المرء علىٰ الشرف، فهذا أشد هلاكًا من الحرص علىٰ المال؛ فإن طلب شرف الدنيا، والرفعةِ فيها، والرئاسة علىٰ الناس، والعلوِّ في الأرض، أضرُّ علىٰ العبد من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب؛ فإن المال يُبذَل في طلب الرئاسة والشرف.

[الشرح]

[الحرص على الشرف أشد من الحرص علىٰ المال]

بهذا بدأ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الصنف الثاني من المهلكات والمفسدات لدين المرء الواردة في الحديث، وهو حب الشرف، وذلك أعظم؛ لأن حب المال أمره محسوس، والفائدة منه ظاهرة، ومتعلِّقة بالجوارح في الغالب، أما حب الشرف فعلاقته بالقلب، وإفساده له أظهر.

«**وأما حرص المرء علىٰ الشرف، فهذا أشد هلاكًا من الحرص علىٰ المال**»، أي: أن المذموم هو الحرص علىٰ الشرف، والحب الشديد له، أما حصول الشرف للمسلم من غير حب له؛ بحيث لا يشغله عما خلق من أجله، فلا شيء فيه.

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف الخَلْق؛ إلا أنه لم يشغله ذلك ولا أحبه، ولا بذل فيه وقته، وإنما وُجِدَتْ فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأسبابُ المُؤَهِّلة للشرف،

فحصل له ذلك الشرف العظيم من غير لهث وراءه، ومن غير بذل أسباب تشغله به عن غيره؛ فضلاً عن أن يبذل شيئًا من دينه من أجله.

إذا علم هذا، فلْيُعْلَمْ أن الحرص علىٰ الشرف أشد إهلاكًا من الحرص علىٰ المال، وخذ مثالًا علىٰ هذا: وذلك أن أهل العلم أجازوا أخذ المال علىٰ تعليم القرآن، وعلىٰ تعليم العلم[1]، لكنه لا يجوز تعليم القرآن أو تعليم العلم؛ ليقال: عالم؛ فهذا أحد الثلاثة الذين هم أول من تسعَّر بهم النار[2]، نسأل الله العافية، وهذا هو حب الشرف.

---

(١) ذهب جمهور الفقهاء من المالكية، والشافعية، والحنابلة في رواية عنهم، والظاهرية إلىٰ جواز أخذ الأجرة علىٰ تعليم القرآن، والعلم. وذهب الحنفية والحنابلة في رواية أخرىٰ عنهم إلىٰ أنه لا يجوز. ينظر: المبسوط ١٦/ ٣٧، والمدونة ٣/ ٤٣٠، والأم ٢/ ١٤٠، والمغني ٣/ ٢٢٤، والمحلىٰ ٧/ ١٨.

(٢) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار**» أخرجه مسلم،كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٢)، والنسائي (٣١٣٧).

ففي كثير من صور حب المال ما هو جائز، لكن حب الشرف هو العمل القلبي الذي يزاحم الإخلاص، فأمرُه أعظم، وهو أشد إهلاكًا من الحرص علىٰ المال، قال المصنف معللًا ذلك:

«فإن طلب شرف الدنيا، والرفعة فيها، والرئاسة علىٰ الناس، والعلو في الأرض أضرُّ علىٰ العبد من طلب المال، وضررُه أعظم؛ فإن المال يبذل في طلب الرئاسة والشرف»، فقد يوجَد مِنَ الناس مَنِ المالُ عنده أولىٰ وأهم وأعظم من كل شيء، فيذل نفسه من أجل المال، ومن الناس من يبذل الأموال الطائلة من أجل أن يُمدَح ويُثنَىٰ عليه، فهذا لونٌ وهذا لونٌ، ومن أهل الدنيا من فُتِن بهذا، ومنهم من فُتِن بهذا.

وكما تُطلَب الرئاسةُ بالمال، يطلب المال بالرئاسة، فبعض الناس يبذل ما يملك ليرأس، فيحصل علىٰ المال؛ لأنه إذا تولىٰ وصارت بيده أموال الخزائن، صار أخذه منها أسهل، والولاية - في الجملة - فيها تيسير لحصول المال؛ ولذلك لما دخل عبد الله بن عمر علىٰ ابن عامر رضي الله عنهم(١) يعوده وهو مريض، قال ابن عامر: ألا تدعو الله لي يا ابن عمر؟ فقال ابن عمر: إني سمعت رسول الله ﷺ

(١) ابن عامر: عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، معدود في الصحابة، ولاه عثمان ومعاوية رضي الله عنهما البصرة، توفي قبل ابن الزبير بيسير، ينظر: الاستيعاب ٣/ ٩٣١.

يقول: «لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول» وكنتَ علىٰ البصرة[1]؛ أي: كنتَ أميرًا علىٰ البصرة، وهذه مظنة عدم سلامتك من الحصول علىٰ المال بغير حق؛ لأن بيت المال بين يديه ولا حسيب ولا رقيب له من الناس، فبَيْن الرئاسة والحصول علىٰ المال تلازم في الغالب، لكن قد ينفك هذا، فتجد مَن المدحُ لا يساوي عنده شيئًا، لكن يهمه المال، وتجد العكس وهو مَنْ يبذل المال من أجل كلمة تقال في مدحه، والله المستعان.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، (٢٢٤)، والترمذي (١)، وابن ماجه (٢٧٢)، وجاء من حديث أبي هريرة، وأنس بن مالك، وأبي بكرة، وأسامة بن عمير ﵃.

والحرص علىٰ الشرف علىٰ قسمين:

أحدهما: طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطِرٌ جدًّا، وهو في الغالِب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزَّها، قال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ الآية [القصص:٨٣].

وقلَّ مَنْ يحرص علىٰ رياسة الدنيا بطلب الولايات، فيوفَّق، بل يوكَل إلىٰ نفسه؛ كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلْت إليها، وإن أعطيتَها من غير مسألة، أعنتَ عليها».

قال بعض السلف: ما حرص أحد علىٰ ولاية فعدل فيها.

وكان يزيد بن عبد الله بن موهب من قضاة العدل والصالحين، وكان يقول: «مَن أحبَّ المال والشرف، وخاف الدوائر، لم يعدل فيها».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إنكم ستحرصون علىٰ الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنِعم المرضعة وبئست الفاطمة».

وفيه - أيضًا - عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أن رجلين قالا للنبي ﷺ: يا رسول الله، أمِّرنا. قال: «إنا لا نولي أمرنا هذا من سأله، ولا من حرص عليه».

واعلم أن الحرص علىٰ الشرف يستلزم شرًّا عظيمًا قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالخطر العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبُّر وغير ذلك من المفاسد.

[الشرح]

[الحرص علىٰ الشرف بالولاية والسلطان والمال]

«**والحرص علىٰ الشرف علىٰ قسمين**»، كما أن للحرص علىٰ المال أقسامًا، فللحرص علىٰ الشرف أقسام أيضًا، وهو ما ذكره المصنف بقوله:

«**أحدهما: طلب الشرف في الولاية والسلطان والمال، وهذا خطِر جدًّا**»

«**أحدهما**» برفع الدال بالاستئناف علىٰ أنه مبتدأ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ﴾ [النحل: ٧٦]، ويجوز البدل، فيقال: أحدِهما بالكسر، لكن أسلوب القرآن أولىٰ.

«**وهذا خطر**»، بفتح الطاء، أو كسرها، وهو الغالب علىٰ وزن: فَعِل، وهي صيغة مبالغة[1].

---

(١) ينظر: لسان العرب ٤/ ٢٥٢، والكناش في فني النحو والصرف ١/ ٣٣٠.

«وهو في الغالِب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها، قال الله تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ الآية [القصص:٨٣].

وقلَّ من يحرص علىٰ رياسة الدنيا بطلب الولايات، فيوفَّق، بل يوكَل إلىٰ نفسه، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتَها عن مسألة وُكِلْت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة، أعنتَ عليها»[(١)]، وهذا مجرَّد سؤال؛ يأتي أحدهم لولي الأمر مستشرفا، ويطلب منه الإمارة ويقول له: ولني علىٰ الجهة الفلانية. فما بالك بمن يقدِّم القرابين من دينه وعلمه ليولَّىٰ؟! ونسمع ببعض القرابين التي يقدمها بعض خطاب الدنيا وعشاقها، فيتنازلون ويتساهلون في الفتاوىٰ؛ ليرضوا فلانًا وعلانًا من أجل أن يعطوا شيئًا من الولاية أو الإمارة، والله المستعان.

«قال بعض السلف: ما حرص أحد علىٰ ولاية فعدل فيها»، أي: أنه لا يُوَفَّق لإبراء ذمته منها، أما الذي يُطلَب للولاية ويقبلها؛ لأنها تعينت عليه، ويرىٰ أن نفعه فيها ظاهر، وهو أولىٰ من غيره فيها من غير تزكية لنفسه، فهذا يعان عليها.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها، (٧١٤٦)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينا فرأىٰ غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير، (١٦٥٢)، والترمذي (١٥٢٩)، والنسائي (٥٣٨٤).

«وكان يزيد بن عبد الله بن مَوْهَب[1] **من قضاة العدل والصالحين، وكان يقول: من أحب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها»**[2]؛ لأن من خاف الدوائر من أن تدور عليه، فيعزل عن منصبه، لم يعدل في ولايته، فيصير تابعًا لهوىٰ من بيده عزله، شحيحًا بهذه الولاية.

«وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «إنكم ستحرصون علىٰ الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة»[3]، فالمسؤولية ليست سهلةً، ولكلٍّ نصيبٌ منها: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته»[4]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]؛ مسؤول عن نفسك أولاً، ومسؤول عمن تحت يدك من زوجة وأولاد، ومسؤول عمن ولاك الله عليهم، كبرت هذه المسؤولية أو صغرت، فعلىٰ الإنسان

(١) يزيد بن عبد الله بن موهب، قاضي أهل الشام. قلد قضاء الشام كارهـًا، وكان صلبـًا في الحكم، لا يأتي الولاة، ولا يرفع بهم رأسـًا. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري ٨/ ٣٤٥، مختصر تاريخ دمشق ٢٧/ ٣٧١.

(٢) أخبار القضاة؛ لوكيع ١/ ٨٠.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص علىٰ الإمارة، (٧١٤٨)، والنسائي (٤٢١١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب العبد راع في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه، (٢٤٠٩)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، (١٨٢٩)، وأبو داود (٢٩٢٨)، والترمذي (١٧٠٥)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

أن يتخفف منها بقدر المستطاع؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «فنعم المرضعة»، فما دام الإنسان يكسب، ويجني، ويُمدَح، ويُثنَىٰ عليه، فهو سعيد، لكن «وبئست الفاطمة»، فالنتيجة الندامة عند الحساب.

«وفيه أيضًا عن أبي موسىٰ الأشعري: أن رجلين قالا للنبي ﷺ: يا رسول الله، أمِّرنا. قال: «إنا لا نولي أمرنا هذا من سأله، ولا من حرَص عليه»[1]، هذان الرجلان من رهط أبي موسىٰ من الأشعريين جاءا معه، ودخلوا علىٰ النبي ﷺ مع أبي موسىٰ، وأبو موسىٰ لا يدري ماذا يريدان، ولا عرف أنهما سيسألان الولاية.

«واعلم أن الحرص علىٰ الشرف يستلزم شرًّا عظيمًا» وفي نسخة «ضررًا عظيمًا» وهذا الشر قبل وقوع الشرف وبعده، وهو قوله:

«قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالخطر العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر، وغير ذلك من المفاسد»، يعني: في بذل الأسباب للحصول علىٰ الولاية، ثم بعد الحصول عليها بما يقع منه من ظلم وغيره، فهي خطر عظيم، كما ذكر المؤلف وغيره من أهل العلم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص علىٰ الإمارة، (٧١٤٩)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، (١٧٣٣).

فإن قيل: إذا كانت الولاية علىٰ هذا الخطر، فلِمَ طلبَها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٥]؟

فالجواب: أنَّ مَن وُجِدَ في زمنٍ لا يوجد فيه من يصلح لهذه الولاية إلا هو، مع غلبة ظنه أنه يعدل فيها، ولا يتعرض للفتن، فيتعيَّن عليه طلبها.

وقد صنف أبو بكر الآجري - وكان من العلماء الربَّانيِّين في أوائل المائة الرابعة - مصنَّفًا في أخلاق العلماء وآدابهم، وهو من أجلِّ ما صُنِّف في ذلك، ومن تأمَّله علم منه طريقة السلف من العلماء، والطرائق التي حدثت بعدهم المخالفة لطريقتهم، فوصف فيه عالم السوء بأوصاف طويلة.

منها: أنه قال: قد فتنه حب الثناء والشرف والمنزلة عند أهل الدنيا، يتجمَّل بالعلم، كما يتجمل بالحلة الحسناء للدنيا، ولا يجمِّل علمَه بالعمل به.

وذكر كلامًا طويلاً إلىٰ أن قال: فهذه الأخلاق وما يشبهها تغلب علىٰ قلب من لم ينتفع بالعلم، فبينا هو مقارِب لهذه الأخلاق؛ إذ رغبت نفسه في حب الشرف والمنزلة، فأَحبَّ مجالسةَ الملوك وأبناءِ الدنيا، فأحب أن يشاركهم فيما هم فيه من منظر بهي، ومركب هني، وخادم سري، ولباس ليِّن، وفراش ناعم، وطعام شهي، وأحب أن يعتنىٰ به، وأن يُسمَع قولُه، ويطاع أمرُه، فلم يقدر عليه إلا من جهة القضاء فطلبه، فلم يمكنه إلا ببذل دينه، فتذلل للملوك وأتباعهم، فخدمهم بنفسه، وأكرمهم بماله، وسكت عن قبيح ما ظهر من منازل أبوابهم، وفي منازلهم، وفعلهم[1]، ثم زين لهم كثيرًا من قبيح فعلهم

(١) في كتاب الآجري ص:١٢٢: «وسكت عن قبيح ما يظهر من مناكيرهم علىٰ أبوابهم، وفي منازلهم، وقولهم وفعلهم». وكذا هي نسخة من «ما ذئبان جائعان»، كما أفاده الحلواني في مجموعه.

بتأويله الخطأ؛ ليحسن موقعه عندهم، فلما فعل هذه مدة طويلة، واستحكم فيه الفسادُ، ولَّوه القضاء، فذُبح بغير سكين، فصارت لهم عليه منَّة عظيمة، ووجب عليه شكرهم فألزم نفسه؛ لئلا يغضبهم عليه، فيعزلوه عن القضاء، ولم يلتفت إلىٰ غضب مولاه، فاقتطع أموال اليتامىٰ والأرامل، والفقراء والمساكين، وأموال الوقف الموقوفة علىٰ المجاهدين، وأهل الشرف بالحرمين، وأموالاً يعود نفعها علىٰ جميع المسلمين، فأرضىٰ بها الكاتب، والحاجب، والخادم، فأكل الحرام وأطعم الحرام، وكثر الداعي عليه، فالويل لِمَن أورثه علمه هذه الأخلاق.

هذا العلم الذي استعاذ منه النبي ﷺ، وأمر أن يستعاذ منه، وهذا العالم الذي قال فيه ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه».

وكان ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع».

وكان ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، وأعوذ بك من علم لا ينفع».

هذا كله كلام الإمام أبي بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان في أواخر الثلاثمائة ولم يزل الفساد متزايدًا علىٰ ما ذكرناه أضعافًا مضاعفة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

[الشرح]

[إضرار حب الشرف بالولاية على أهل العلم]

لما فرغ المصنف من التعريف بخطورة الحرص علىٰ الشرف علىٰ دين المرء، بدأ الحديث عن أصنافه، وتأثيره، وجعل صدر كلامه عن أثر الحرص علىٰ شرف الولاية علىٰ العلماء فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد صنف أبو بكر الآجري[(١)] **وكان من العلماء الربانيين في أوائل المائة الرابعة»** في أواخر الثالثة وأوائل الرابعة.

«مصنفًا في أخلاق العلماء وآدابهم» وهو مطبوع ومتداول، وفيه فوائد عظيمة، فيجدر بطالب العلم أن يرجع إليه، وأن يقرأه أكثر من مرة، وفيه أمثلة لأنواع الناس، وأقسام من يتصدون لطلب العلم، ولأنـواع وأصناف العلماء، وحاجة الأمة الماسة إلىٰ أهل العلم الربانيين.

«وهو من أَجَلِّ ما صنف في ذلك» والمصنفات في هذا الباب كثيرة، وهذا من أجلها، وكذلك من أنفعها وأنفسها ما كتبه ابن عبد

---

(١) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري، نسبة إلىٰ آجر من قرىٰ بغداد، حدث ببغداد قبل سنة ٣٣٠، ثم أقام بمكة، وبها توفي في المحرم سنة ٣٦٠، كان خَيِّرًا عابدا صاحب سنة واتباع، من مصنفاته: الشريعة في السنة، والرؤية، وأخلاق العلماء، و«الأربعين»، وغيرها. ينظر: سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٣٣، وطبقات الشافعية الكبرىٰ؛ لتاج الدين السبكي ٣/ ١٤٩.

البر في «جامع بيان العلم وفضله»، وأيضًا الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع».

«ومن تأمله عَلِم منه طريقة السلف من العلماء، والطرائق التي حدثت بعدهم المخالفة لطريقتهم، فوصف فيه عالم السوء بأوصاف طويلة»، فهو يبين مخالفة طريقة بعض من تزين بالعلم في عصره عن طريقة السلف، ونحن نرىٰ الآن مخالفة البعض لِمَا عهدناه من سلفنا من علمائنا، وشيوخنا.

وهناك تغير في القلوب عند بعض طلاب العلم، ظهر بعد استحداث الدراسات النظامية، والشهادات العالية، وهذا أمر ظاهر؛ فلقد أدركنا شيوخًا من العلماء الراسخين لا يرضىٰ أن يقال له: الشيخ فلان، ثم صارت كلمة الشيخ، وفضيلة الشيخ، وفضيلة الدكتور عند طلاب الدراسات النظامية أمر لازم، إذا لم تقل لبعضهم يغضب.

ولقد وصل الحد ببعض صغار السن، وحدثاء التخرج في الجامعة، أنه طُلِب منه إلقاء درس أو محاضرة فجاء من يقدم له، وهو جالس بجواره، وكان مع هذا الشاب ورقة فيها سيرته الذاتية، ومن تحت الطاولة قدمها لهذا المقدِّم، وذلك من أجل أن يقرأها علىٰ الناس! وليت الأمر انتهىٰ عند ذلك، بل إنه لما انتهىٰ المقدِّم من كلامه، قال له: «هداك الله، قطعت عنق صاحبك، أنا لا أرضىٰ

بمثل هذا!» - نسأل الله العافية - فأيُّ فساد في القلب أعظم من هذا؟!

فهذا استدراج؛ يتساهل فيه الإنسان في أول الأمر، فيسمع المدح والثناء، ثم بعد ذلك إذا لم يُمدَحْ ضاق صدره، وقد كنَّا لا نسمع المدح والثناء من شيوخنا، ولا فيهم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في الفوائد: «فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص، فأقبل علىٰ الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل علىٰ المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح، سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟

قلت: أما ذبح الطمع، فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه، إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئا سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح، فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده»[(١)].

(١) الفوائد (ص: ١٤٩). وما ذكره ابن القيم آخر كلامه إشارة إلىٰ حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] قال: قام رجل فقال: يا رسول الله إن=

فالقلوب تغيرت الآن، ولو قيل لشخص: إن الملك أو الأمير الفلاني ذكرك البارحة وأثنىٰ عليك، فمن المحتمل ألا ينام تلك الليلة، لكن هل يحسب حسابًا لقوله -جل وعلا- في الحديث القدسي: «إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي»[(١)]؟! والله المستعان.

قال المصنف عن كتاب الإمام الآجري:

«فوصف فيه عالم السوء بأوصاف طويلة، منها: أنه قال: قد فتنه حب الثناء والشرف والمنزلة عند أهل الدنيا، يتجمَّل بالعلم، كما يتجمل بالحلة الحسناء للدنيا، ولا يجمِّل علمَه بالعمل به.

وذكر كلامًا طويلاً إلىٰ أن قال: فهذه الأخلاق وما يشبهها تغلب علىٰ قلب من لم ينتفع بالعلم»[(٢)] وفي نسخة: يتضمخ، أي: يتصف، ويغرق، ويستغرق في العلم[(٣)]،وهذا يكون إذا هبَّت نفسه في حب الشرف والمنزلة؛ ولذلك قال:

=حمدي زين وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: «ذاك الله عز وجل». أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الحجرات (٣٢٦٧) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وجاء من حديث الأقرع بن حابس رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث علىٰ ذكر الله تعالىٰ، (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣)، وابن ماجه (٣٨٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: أخلاق العلماء؛ للآجري ١/ ١٢١ وما بعدها.

(٣) الضمخ: لطخ الجسد بالطيب حتىٰ كأنما هو يقطر. لسان العرب ٣/ ٣٦.

«فبينا هو مقارِب لهذه الأخلاق إذ رغبت نفسه في حب الشرف والمنزلة، فأحبَّ مجالسةَ الملوك وأبناءِ الدنيا، فأحب أن يشاركهم فيما هم فيه من منظر بهي، ومركب هني، وخادم سري، ولباس ليِّن، وفراش ناعم، وطعام شهي»، فالذي ينظر إلىٰ من فوقه يزدري نعمة الله عليه، وسوف يسعىٰ في بذل الأسباب التي توصله إلىٰ ذلك؛ سواء كانت من وجوه مباحة، أو محرمة، لكن من العصمة ألا تنظر إلىٰ هذه الأمور ولا تراها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

فكونك لا تعرفها ولم ترها عصمة لك بلا شك، لكن إذا رأيتها واشرأبت نفسك إليها، وطمعت في مثلها؛ فلا بد أن تبذل الأسباب، ومن الأسباب أن تتنازل عن شيء من دينك، وتهين نفسك.

ويستمر الإمام الآجري في وصف عالم السوء بقوله:

«وأحب أن يعتنىٰ به» وهذا ليس دأب من كان هدفه أجر ربه، فعلىٰ المسلم علىٰ وجه العموم، وطالب العلم والعالم علىٰ وجه الخصوص ألا يلتفت للعناية والاحتفاء به أو عدمها؛ لأنه إنما يبغي الثواب من الله، لا العناية من الناس.

«وأن يُسمَع قوله، ويطاع أمره، فلم يقدر عليه إلا من جهة القضاء، فطلبه»، في السابق لم تكن هناك ولاية فيها سلطة علىٰ الناس إلا

الإمارة، وهي في الغالب أقل شأنًا من القضاء؛ لأن الإمارة تُصرَف إلىٰ من عنده علم، ومن لا علم عنده، لكن القضاء لا يصرف إلا لعالم، فتكون له الولاية من جهتين، ولا شك أن هذا أشد، فهذا الطالب للدنيا لا يجدها إلا من خلال طلبه للقضاء، الذي يبيع دينه ليحصل عليه؛ كما قال:

«**فلم يمكنه إلا ببذل دينه، فتذلل للملوك وأتباعهم، فخدمهم بنفسه، وأكرمهم بماله**»، أي: يجاملهم، ولا شك أن أهل العلم الراسخين لا يتأثرون بمثل هذا، يسأل صاحب ولاية شخصًا من أهل العلم، فيرد عليه بما يدين لله به، ولا يتأثر بمنحه ولاية أو منعه عنها، ويسأل آخر ممن اشرأبت نفسه إلىٰ ولاية أو وظيفة، فيلتمس له الأعذار والرخص، فهذا موجود، وهذا موجود. وليس هذا فقط، بل:

«**وسكت عن قبيح ما ظهر من منازل أبوابهم، وفي منازلهم وفعلهم، ثم زين لهم كثيرًا من قبيح فعلهم بتأويله الخطأ؛ ليحسن موقعه عندهم**»، يتأول لهم الأخطاء، ويبحث عن شواذ الفتاوىٰ من أجل أن يبرر لهم ما يفعلونه.

«**فلما فعل هذا مدة طويلة واستحكم فيه الفساد**»؛ لأن القلب في بداية الأمر يمكن علاجه، لكن إذا استشرىٰ المرض فيه استعصىٰ العلاج، فإذا استحكم فيه الفساد:

«وَلَّــوْهُ الـقـضـاءَ، فـذُبـح بغير سكين»؛ إشــارة إلـىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من جُعِل قاضيًا بين الناس، فقد ذُبِحَ بغير سكين**»[1]، قال الخطابي: «معناه: التحذير من طلب القضاء والحرص عليه؛ يقول: من تصدىٰ للقضاء فقد تعرض للذبح، فليحذره ولْيَتَوَقَّه»[2].

فمهمة القضاء خطيرة، وصاحبها علىٰ خطر عظيم، وقد جاء في الحديث: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة، رجل قضىٰ بغير الحق، فعلم ذاك فذاك في النار، وقاض لا يعلم، فأهلك حقوق الناس، فهو في النار، وقاض قضىٰ بالحق، فذلك في الجنة**»[3]، فلا شك أن القاضي علىٰ خطر، والناجي هو من عرف الحق وحكم به.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في طلب القضاء، (٣٥٧٢)، والترمذي، كتب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي، (١٣٢٥)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب ذكر القضاة، (٢٣٠٨)، وأحمد (٧١٤٥)، والحاكم (٧٠١٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) معالم السنن؛ للخطابي ٤/ ١٥٩.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ، (٣٥٧٣)، والترمذي، كتب الأحكام، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي، (١٣٢٢)، وابن ماجه، كتاب الأحكام، باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق، (٢٣١٥)، والحاكم (٧٠١٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث بريدة رضي الله عنه.

وأما الخطأ، فهو مرفوع، والنبي ﷺ يقول: «**إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك**»[1]. فإذا استفرغ القاضي الوسعَ في استعمال الوسائل الشرعية، وخرجت النتائج غير مطابقة للواقع، فهو معذور، كما قال النبي ﷺ: «**فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو فليتركها**»[2]. وعن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر**»[3].

ولا شك أن في القضاة علىٰ مر التاريخ من هم أهل عدل، وإنصاف، وتحرٍّ للحق، وصدع به، والخير في الأمة موجود إلىٰ قيام الساعة، لكن علماء الدنيا وطلابها موجودون كذلك، وبدؤوا يزيدون ويكثرون بعد القرون المفضلة.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، (٢٤٥٨)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، (١٧١٣)، وأبو داود (٣٥٨٣)، والنسائي (٥٤٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٧)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) شطر من الحديث السابق.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، (٧٣٥٢)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، (١٧١٦)، وأبو داود (٣٥٧٤)، وابن ماجه (٢٣١٤)، وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذا ولىٰ أولو الأمر هذا المستشرف للولاية القضاء:

«فصارت لهم عليه منة عظيمة، ووجب عليه شكرهم، فألزم نفسه» بالتذلل، والخضوع، والخنوع؛ **«لئلا يغضبهم عليه، فيعزلوه عن القضاء»**، لم يكن في السابق من الولايات المؤثرة إلا القضاء، أما الآن، فالولايات أكثر، وبعضها أعظم خطرًا من القضاء، فيها عدل، وفيها ظلم، وفيها حب رئاسة وتسلط، وتطلب ببيع الدين، وكما قال:

«ولم يلتفت إلىٰ غضب مولاه، فاقتطع أموال اليتامىٰ والأرامل، والفقراء والمساكين، وأموال الوقف الموقوفة علىٰ المجاهدين، وأهل الشرف بالحرمين، وأموالاً يعود نفعها علىٰ جميع المسلمين»، بعض الناس يتسامح في أموال بيت المال مع أن حرمتها ثابتة، وإن كان أهل العلم يختلفون في القطع بالسرقة من بيت المال(١)، لكن

---

(١) اختلف الفقهاء في حكم القطع بالسرقة من بيت المال، وسبب الاختلاف وجود شبهة الاستحقاق، أو الملك للمال؛ وذلك لأن مال بيت المال لجميع المسلمين، والسارق منهم، فمن اعتبرها أسقط حد القطع، ومن لم يعتبرها لم يسقطه، وقد اختلف الفقهاء بناء علىٰ هذا علىٰ مذهبين:

المذهب الأول: القطع بالسرقة من بيت المال وهو قول الإمام مالك والظاهرية.

المذهب الثاني: عدم القطع، ولكنه يعزر حسب ما يراىٰ الإمام، وهو مذهب جمهور الفقهاء من الحنفية، والشافعية، والحنابلة، وهذا ورد عن عمر وعلي رضي الله عنهما.

وذهب الشافعية إلىٰ أن سقوط القطع إنما يكون في الحالة التي يكون فيها المال عامًا لم يقسم لأحد، أما إذا كان المال المسروق قد قسم وفرز لطائفة من المسلمين ليس منهم السارق، فإنه يقطع؛ حيث لا شبهة.

ينظر: المدونة ٤/ ٥٤٩، والمبسوط ٩/ ١٨٨، وتحفة المحتاج ٩/ ١٣١، والمغني ٩/ ١٣٥، والمحلىٰ ١٢/ ٣١١.

يبقىٰ أنها محرمة ومصانة؛ لأنها لعموم المسلمين، والتحلل منها صعب، وبعض من يقترض من بيت المال يقول: «هذا نصيبي من بيت المال، فلن أسدده»، وهذا لا شك في تحريمه، وأنه يلزمه أن يسدد ما التزم به.

النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما تولىٰ ولاية قط، وكان لا يأكل من ثمار كثير من المزارع؛ خشية أن يكون في هذه الخُضَرِ والفواكه شيء من مزارع موقوفة علىٰ مساكين وأرامل وأيتام، ويحصل فيها ظلم لهم[(١)].

وهذا ورع شديد بالنسبة للنووي، وحملٌ لنفسه علىٰ شدة، ولا يُطلب هذا من كل أحد، لكن هذا مثال، فأقل الأحوال أن يردع مثلُ هذا بعضَ الاسترسال الحاصل من بعض الناس؛ لأن مثل هذه الأخبار يعالَج بها التوسع الموجود عند بعض الناس، ولكل مقام مقال.

فإذا وجدت شخصًا مشددًا علىٰ نفسه فذكره بنصوص الوعد وسعة رحمة الله، وبالعكس إذا وجدت مفرِّطًا فذكره بنصوص الوعيد وأليم عذاب الله.

---

(١) كان الإمام النووي لا يأكل فاكهة دمشق، فسأله تلميذه علاء الدين بن العطار عن ذلك، فقال: «دمشق كثيرة الأوقاف وأملاك من هو تحت الحَجْر شرعـًا، والتصرف لهم لا يجوز إلا علىٰ وجه الغبطة والمصلحة، والمعاملة فيها علىٰ وجه المساقاة، وفيها اختلاف بين العلماء، ومن جوزها؛ قال: بشرط المصلحة والغبطة لليتيم والمحجور عليه، والناس لا يفعلونها إلا علىٰ جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك، فكيف تطيب نفسي بأكل ذلك» تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين (ص: ٦٨)، وينظر: طبقات الشافعيين؛ لابن كثير (ص: ٩١٢).

فعلىٰ سبيل المثال لو وجدت مبيِّتًا للقتل فذكره بالقول المأثور عن ابن عباس: أنْ ليس له توبةٌ(١)؛ لأنه مبيِّتٌ للقتل، فيُردَع بمثل هذا مع أن له توبة.

«فأرضىٰ بها الكاتب والحاجب والخادم»، أي: أرضىٰ هؤلاء بهذه الأموال التي اقتطعها من أموال اليتامىٰ والمساكين ومن عُطف عليهم؛ لأنهم هم الذين يوصلونه إلىٰ صاحب القرار.

«فأكل الحرام، وأطعم الحرام، وكثر الداعي عليه»، يعني: كثر عليه دعاء المظلومين الذين أخذ أموالهم بغير حق.

«فالويل لمن أورثه علمه هذه الأخلاق.

وهذا العلم هو الذي استعاذ منه النبي ﷺ وأمر أن يستعاذ منه، وهذا العالِم الذي قال فيه النبي ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»(٢)، وهذا الحديث ضعفه الحافظ العراقي(٣)، وقد ورد في الباب أحاديث كثيرة، ولو لم يكن في الباب إلا ذكر الثلاثة الذين هم أول من تسعَّر بهم النار(٤)، لكفىٰ - نسأل الله العافية -.

(١) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٤٣٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٥٠٧)، والشهاب القضاعي (١١٢٢)، والبيهقي في الشعب (١٦٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال في مجمع الزوائد ١/ ١٨٥: «وفيه عثمان البري، قال الفلاس: صدوق لكنه كثير الغلط، صاحب بدعة، ضعفه أحمد، والنسائي، والدار قطني».

(٣) ينظر: تخريج أحاديث الإحياء؛ للعراقي (ص: ٨).

(٤) سبق تخريجه (ص: ١١٣).

«**وكان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يُسمَع**»، وهذا الحديث عند مسلم وغيره[1].

«**وكان ﷺ يقول: «اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، وأعوذ بك من علم لا ينفع**»، أخرجه النسائي وغيره[2].

«**هذا كله كلام الإمام أبي بكر الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان في أواخر الثلاثمائة**»، وقال هناك: «في أوائل المائة الرابعة»؛ وذلك لأن من وجد في آخر الثالثة فهو يمتد عمره إلىٰ أن يبلغ أو يصل إلىٰ أول الرابعة.

«**ولم يزل الفساد متزايدًا علىٰ ما ذكرناه أضعافًا مضاعفة ولا حول ولا قوة إلا بالله**»، ولي الله الدهلوي[3] له كتاب في أصول التفسير،

(١) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أرقم، ولفظ مسلم «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»، وجاء من حديث أبي هريرة، وأنس، وجابر ﷺ.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٧٨١٨)، وابن حبان (٨٢)، والطبراني في الأوسط (٩٠٥٠)، من حديث جابر رضي الله عنه، قال في مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٢: «إسناده حسن».

(٣) هو: أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي، أبو عبد العزيز، الملقب: شاه وَليُّ الله، فقيه حنفي من المحدّثين. من أهل دهلي بالهند، له مصنفات، منها: «الفوز الكبير في أصول التفسير» ألفه بالفارسية، ترجم بعد وفاته إلىٰ العربية والأرديّة، و«فتح الخبير بما لابد من حفظه في علم التفسير»، و«الإرشاد إلىٰ مهمات علم الإسناد»، توفي عام ١١٧٦هـ. ينظر: الأعلام للزركلي ١/ ١٤٩.

اسمه: «الفوز الكبير»، تعرَّض فيه لبعض الأوصاف الواردة في المنافقين، وقال في نماذج المنافقين في هذا العصر: «وإن كنت تحب أن تشاهد نموذجًا لهؤلاء المنافقين، فاشهد في مجالس الأمراء، أصحابهم وندماءهم الذين يؤثرون رضا أمرائهم علىٰ رضا الله - تعالىٰ -، ولا فرق إطلاقًا بين المنافقين الذين سمعوا أحاديث الرسول ﷺ مباشرة ثم نافقوا، وبين هؤلاء المنافقين الآن الذين يطلعون علىٰ أحكام الشريعة الإسلامية بالوسائط اليقينية القاطعة، ثم يخالفونها وينحرفون عنها»[1].

(١) الفوز الكبير؛ لولي الله الدهلوي (ص: ٦١).

ومن دقيق آفات حب الشرف؛ طلب الولايات والحرصُ عليها، وهو باب غامض لا يعرفه إلا العلماء بالله العارفون به المحبون له، الذين يعادون له من جهال خلقه المزاحمين لربوبيته وإلهيته، مع حقارتهم وسقوط منزلتهم عند الله وعند خواص عباده، العارفين به؛ كما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيهم: «إنهم وإن طَقْطَقَتْ بهم البغال، وهَمْلَجَت بهم البراذين؛ فإن ذل المعصية في رقابهم، أبىٰ الله إلا أن يُذِلَّ من عصاه».

واعلم أن حب الشرف بالحرص علىٰ نفوذ الأمر والنهي، وتدبيرِ أمر الناس، إذا قصد بذلك مجردَ علوِّ المنزلة علىٰ الخلق، والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس إليه، وافتقارَهم إليه، وذُلَّهم له في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسُه مزاحمةٌ لربوبية الله تعالىٰ وإلهيته.

وربما تسبب بعض هؤلاء إلىٰ إيقاع الناس في أمر يحتاجون فيه إليه؛ ليضطرهم بذلك إلىٰ رفع حاجاتهم إليه، وظهور افتقارهم واحتياجهم إليه، ويتعاظم بذلك ويتكبر به، وهذا لا يصلح إلا لله تعالىٰ وحده لا شريك له؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وفي بعض الآثـار: أن الله تعالىٰ يبتلي عبده بالبلاء؛ ليسمع تضرعه.

وفي بعض الآثار أيضًا: أن العبد إذا دعا الله وهو يحبه، قال الله: «يا جبريل، لا تعجل بقضاء حاجته، فإني أحب أن أسمع تضرعه».

فهذه الأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم، وأدهىٰ من الشرك، والشرك أعظم الظلم عند الله، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما عذبته».

كان بعض المتقدمين قاضيًا، فرأىٰ في منامه كأن قائلاً يقول: «أنت قاضٍ، والله قاضٍ»، فاستيقظ منزعجًا وخرج عن القضاء وتركه.

وكان طائفة من القضاة الورعين يمنعون الناس أن يدعوهم بـ«قاضي القضاة»، فإن هذا الاسم يشبه ملك الملوك الـذي ذمَّ النبيُّ ﷺ التسميةَ به وقال: «لا مالك إلا الله».

و«حاكم الحكام» مثله أو أشد منه.

[الشرح]

[الحرص على الولاية للعلو على الخلق]

«ومن دقيق آفات حب الشرف طلب الولايات والحرص عليها وهو بابٌ غامض»، أي: دقيق، خفي.

يُكْمِلُ المصنفُ هنا ما بدأه من بيان تأثير حب الشرف علىٰ دين المرء، فبعد أن بدأ بأثره علىٰ العلماء، ثنىٰ ببيان باب خفي يلج منه حب الشرف إلىٰ قلب العبد، فيُوقعه في معصية من أعظم المعاصي، وهي حب العلو علىٰ الخلق، وحب ظهور افتقارهم إليه، فكأنه بهذا ينازع الله في ربوبيته.

«لا يعرفه إلا العلماء بالله، العارفون به، المحبون له»، أي: العلماء الربانيون، وإلا فقد وقع في هذا بعض من ينتسب إلىٰ العلم.

«الذين يعادَون له من جهال خَلقه» المعاداة مفاعلة إذا حصلت من طرف حصلت من الطرف الآخر، أي: عاداهم جهال خلقه؛ بسبب تمسكهم بدينهم، كما يعاديهم هـؤلاء العلماء؛ بسبب جهلهم، وقد شرح المصنف هذا الجهل فقال:

«المزاحمين لربوبيته وإلهيته، مع حقارتهم وسقوط منزلتهم عند الله، وعند خواص عباده العارفين به»، الناس يمشون وراء أصحاب الجاه، والمال والشرف، ويقدِّرونهم ويقضون حوائجهم،

ويوسعون لهم المجالس، ويُضْفُوْنَ عليهم الألقاب؛ مع أن بعضهم لا يجيء منه شيء، يكون ثريًّا ولا ينفع بماله، يكون صاحب جاه ولا ينفع بجاهه، لكنَّ نفوس أهل الدنيا جُبِلَت علىٰ هذا، وإلا فحقيقتهم معروفة عند من يعرف دقائق الأمور.

«**كما قال الحسن** رَحِمَهُ اللهُ[1] **فيهم: إنهم وإن طقطقت بهم البغال**»، الطقطقة: صوت الحوافر[2].

«**وهملجت**[3] **بهم البراذين**[4]**، فإن ذل المعصية في رقابهم، أبىٰ الله إلا أن يذل من عصاه**»، فمهما ظهروا أمام الناس بمالهم وجاههم، فإن ذل المعصية في رقابهم، أي: لا يفارقهم، وهذه سنة الله أن يذل من عصاه، مع أنهم فيما يظهر لغوغاء الناس في سعادة، والأمثلة علىٰ كونهم في شقاء كثيرة لا يعلمها إلا الله، سواء أكانوا من أرباب الأموال، أم أصحاب الجاه، فإذا لم يستعمل المال في طاعة الله وفيما يرضيه، ولا يستعمل الجاه في نفع الناس وخدمة المسلمين؛ فإنه يكون وبالاً علىٰ صاحبه.

---

(١) هو: أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، كان سيد أهل زمانه علما وعملا، توفي سنة ١١٠، ولي قضاء البصرة علىٰ كره منه. ينظر: أخبار القضاة ٢/ ٣، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٤.

(٢) لاسيما إذا كانت الخيل تسير علىٰ أرض صلبة. ينظر: لسان العرب ١٠/ ٢٢٥.

(٣) الهملجة والهملاج: حسن سير الدابة في سرعة. السابق ٢/ ٢٩٣.

(٤) البراذين من الخيل: ما كان من غير نتاج العراب. السابق ١٣/ ٥١.

«وحب الشرف بالحرص علىٰ نفوذ الأمر والنهي، وتدبير أمر الناس إذا قصد بذلك مجرد علوِّ المنزلة علىٰ الخلْق، والتعاظم عليهم، وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه، وذلهم في طلب حوائجهم منه، فهذا نفسه مزاحَمة لربوبية الله وإلهيته»؛ لأن هذا الوصف وصف الله - جل وعلا-. وبعض الناس تصير عنده السلعة، ولتكن خبزًا مثلاً، فيمنعه مدة من أجل أن تظهر حاجة الناس إليه، ويتذللوا له ويتزاحموا علىٰ بابه، ويبذلوا له الوسائط، ثم بعد ذلك يبذل، فيكون قد أحسن إليهم، وبعض التجار تجده يرفع الأسعار، ثم يتذمر الناس ثم يخفضها بناءً علىٰ أنه أحسن إليهم؛ ليريهم الحاجة إليه، وهذا واقع في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما قال:

«وربما تسبب بعض هؤلاء إلىٰ إيقاع الناس في أمر يحتاجون فيه إليه؛ ليضطرهم بذلك إلىٰ رفع حاجاتهم إليه، وظهور افتقارهم واحتياجهم إليه، ويتعاظم بذلك ويتكبر به، وهذا لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وفي بعض الآثـار: أن الله تعالىٰ يبتلي عبده بالبلاء؛ ليسمع تضرعه[1].

وفي بعض الآثار أيضًا: أن العبد إذا دعا الله تعالىٰ وهو يحبه قال الله تعالىٰ: «يا جبريل، لا تعجل بقضاء حاجته، فإني أحب أن أسمع تضرعه»[2].

فهذه الأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم، وأدهىٰ من الشرك، والشرك أعظم الظلم عند الله، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما عذبته».

لا شك أن تصرفات الذي يحوج الناس إليه؛ ليريهم حاجتهم إليه، ثم بعد ذلك يقضي هذه الحاجة، فيه تشبه بالله - جل وعلا - ومزاحمة لخصائص أوصافه - جل وعلا -، وهذا أدهىٰ وأمر من

(١) أخرجه هناد في الزهد (٤٠٥)، وابن حبان في المجروحين (١٢١٤) من حديث أبي هريرة مرفوعًا، وفي إسناده يحيىٰ بن عبيد الله بن موهب التيمي، قال فيه ابن حبان: «سقط عن حد الاحتجاج به». ويروىٰ موقوفًا عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٤٤٢) عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد يدعو الله وهو يحبه، فيقول الله عز وجل: يا جبريل اقض لعبدي هذا حاجته، وأخرها، فإني أحب ألا أزال أسمع صوته، وإن العبد ليدعو الله وهو يبغضه، فيقول الله عز وجل: يا جبريل، اقض لعبدي هذا حاجته، وعجلها، فإني أكره أن أسمع صوته» قال في المجمع ١٠/ ١٥١: «فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك».

الشرك، والشرك أعظم الظلم عند الله تعالىٰ، وهذا النوع الذي يتحدث عنه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو من الشرك الخفي، الذي يدخل فيه الإنسان وهو لا يشعر؛ لأن الشرك الظاهر مدرَك، ويتحاشاه الناس، ما لم توجد لدىٰ أحدهم شبهة، أو تلبيس من بعض المبتدعة، لكن الشرك الخفي يقع فيه كثير من الناس، وهم لا يشعرون.

وهذه الآثار التي ذكرها المصنف فيها مقال لأهل العلم؛ إلا أنهم يتساهلون فيها؛ لكونها في باب الفضائل والترهيب والترغيب.

ولفظ الحديث الذي ذكره المصنف أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات[(١)]، وهو في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**»[(٢)]، وعند أبي داود بلفظ: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما، قذفته في النار**»، وعند ابن ماجه: «**ألقيته في جهنم**»[(٣)]، فمن أراد أن يضاهي المولىٰ - سبحانه وتعالىٰ - في صفة من صفاته، فقد سلك طريقًا أخطر من الظلم، وأعظم من الشرك، والشرك ظلم؛ ولذلك كان الصالحون يخافون من أن يتسلل إليهم مثل هذا الشرك الخفي،

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٢٦٣).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، (٢٦٢٠) وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وجاء من حديث أبي سعيد الخدري، وفضالة بن عبيد رضي الله عنهما.
(٣) السابق.

أي: الشعور بمضاهاة الخالق – جل وعلا –؛ ولذا وجدت منهم بعض التصرفات مما ذكر الحافظ في قوله:

«وكان بعض المتقدمين قاضيًا، فرأىٰ في منامه كأن قائلاً يقول له: «أنت قاضٍ، والله قاضٍ»، الوصف بالقضاء وصف مشترَك؛ للمخلوق ما يناسبه، وللخالق ما يناسبه؛ ولذا لو أن شخصًا ممن عرف بالكرم، رأىٰ في منامه من يقول له: «أنت كريم، والله كريم»، فهذا لا يضيره، وينبغي ألا يدفعه إلىٰ أن يترك الكرم، فهذه أوصاف مشترَكة، لكن هذا القاضي استشعر المضاهاة **«فاستيقظ منزعجًا، وخرج عن القضاء وتركه»**، والقضاء من فروض الكفايات، فلا يترك لمثل هذه الأمور؛ إلا إذا غلب علىٰ الظن أنه يتضرر باستمراره فيه أو يضر غيره.

«وكان طائفة من القضاة الورِعين يمنعون الناس أن يدعوهم بـ«قاضي القضاة»، وهذا الوصف موجود عند المتقدمين؛ فيلقبون بـ«قاضي القضاة»، أو «مُوْبِذ مُوْبِذَان» وهي قاضي القضاة بلغة العجم[1]، ويريدون بذلك رئيسهم والمقدَّم عليهم، الذي يفصل بينهم إذا اختلفوا[2]، وهناك من منع من هذه التسمية؛ لأن الخلْق نوع واحد في القضاء، والقاضي بينهم هو الله– جل وعلا–.

(١) ينظر: الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٣٥، طبقات ابن سعد ٧/ ١٨٣.

(٢) فهي وظيفة يقصد بها مقدم القضاة في القطر أو في البلد، فيقال: قاضي القضاة بالديار المصرية، قاضي القضاة بالإسكندرية، وهكذا. ينظر: شجرة النور الزكية ١/ ٢٦٨.

وقد ترجم الإمام المجدِّد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد: «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»[(١)] وقال: «قال سفيان - يعني: ابن عيينة[(٢)] - مثل شاهنشاه عند العجم عبارة عن ملك الأملاك؛ ولهذا مثل به سفيان؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم»[(٣)].

«فإن هذا الاسم يشبه ملك الملوك الذي ذم النبي ﷺ التسمية به وقال: «لا مالك إلا الله»، وهو في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن أخنع اسم عند الله رجل تسمىٰ ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»**[(٤)]؛ ولذلك كان التسمي به أشد، كما قال الحافظ:

«وحاكم الحكام مثله أو أشد»، وعن أبي شريح هانئ بن يزيد أنه كان يكنىٰ أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: **«إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكْمُ»**، وكناه أبا شريح بابنه الأكبر[(٥)].

---

(١) كتاب التوحيد، ومعه شرحه فتح المجيد (ص: ٤٢٥).

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي، توفي سنة ١٧٨، قال الشافعي: ما رأيت أحدا فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة، وما رأيت أكف عن الفتيا منه، قال: وما رأيت أحدًا أحسن تفسيرا للحديث منه. ينظر: التاريخ الكبير للبخاري ٤/ ٩٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٤.

(٣) كتاب التوحيد مع فتح المجيد (ص: ٤٢٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلىٰ الله، (٦٢٠٥)، ومسلم، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وملك الملوك، (٢١٤٣)، وأبو داود (٤٩٦١)، والترمذي (٢٨٣٧).

(٥) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح، (٤٩٥٥)، والنسائي كتاب آداب القضاة، باب إذا حكموا رجلا فقضىٰ بينهم (٥٣٨٧)، وابن حبان (٥٠٤)، والحاكم (٦٢).

فلا مالك ملكًا مطلقًا، إلا الله - جل وعلا - وأفراد الناس يملكون ملكًا خاصًا.

والمقصود أن المِلْك المتعارَف عليه فيما يليق بالمخلوق موجود، وتسمية الحكام ملوكًا جائز، وهذا أمر متفق عليه.

والقصد له مدخل كبير في هذا، وهناك أشياء استحدثها بعض المتزلفين تدخل في هذا الباب؛ مثل: ملك الإنسانية، ملك القلوب، وملك الإنسانية هو ملك الناس، وهو الله - جل وعلا -.

والقذافي في آخر عمره سمي: ملك ملوك أفريقيا.

والعبرة بما يصحب الإنسان في قبره، أما الألقاب والأموال، وغيرها، فكلها زائلة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١).

ومن هذا الباب أيضًا: أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد علىٰ أفعاله، ويثنىٰ عليه بها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذىٰ من لا يجيبه إليه، وربما كان ذلك الفعل إلىٰ الذم أقرب منه إلىٰ المدح، وربما أظهر أمرًا حسنًا في الظاهر، وأحب المدح عليه، وقصد به في الباطن شرًّا، وفَرِحَ بتمويه ذلك، وترويجه علىٰ الخلق.

وهذا يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [آل عمران:١٨٨] الآية، فإن هذه الآية إنما نزلت فيمن هذه صفاته.

وهذا الوصف - أعني: طلب المدح من الخلق، ومحبتَه والعقوبةَ علىٰ تركه - لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمة الهدىٰ ينهون عن حمدهم علىٰ أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلىٰ الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد علىٰ ذلك إلىٰ الله وحده لا شريك له؛ فإن النعم كلها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد العناية بذلك، وكتب مرة إلىٰ أهل الموسم كتابًا يُقرَأ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم، وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: «ولا تَحْمَدُوا علىٰ ذلك كله إلا اللهَ؛ فإنه لو وكلني إلىٰ نفسي كنت كغيري».

وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرض لبناتها اليتامىٰ مشهورة، فإنها كانت لها أربع بنات، ففرض لاثنتين منهن وهي تحمد الله، ثم فرض للثالثة فشكرته فقال: إنما كنا نفرض لهن حيث كنتِ تولين الحمد أهلَه، فمري هؤلاء الثلاث يواسين الرابعة أو كما قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

[الشرح]

[الحرص على الولاية حبًا للحمد والثناء]

هذا باب آخر من أبواب حب الشرف المذموم، وهو: حب الحمد من الناس، وهو من أعظم المعاصي أيضًا؛ قال رَحِمَهُ اللهُ:

«ومن هذا الباب أيضًا أن يحب ذو الشرف والولاية أن يُحمَد علىٰ أفعاله، ويُثنىٰ عليه بها»، حب المدح والثناء، من أبواب حب الشرف المذموم، ومثل حب المدح كراهية الذم، وذلك إذا كان يكره الذم وعنده ما يُذَم عليه، لكن إذا كان يُذَم بما ليس فيه؛ فمن حقه أن يكره ذلك كراهية شديدة؛ لأن هذا ظلم وعدوان عليه، وإن كان له فيه أجر.

وقد أطلق المصنف ذم حب المدح، فيدخل فيه ما لو كان مدحًا بسبب فعل ما يحمد عليه، وحبه للمدح ولو لم يفعل شيئًا، كما يأتي في التعليق علىٰ آية آل عمران.

«**ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذىٰ من لا يجيبه إليه**»، فإذا حمله ذلك علىٰ الكبرياء وعلىٰ الرياء فلا شك أن هذا مذموم، ولو كان من فعله، بل إن منهم من يفعل الشيء من أجل أن يُحمَد عليه، فيكون الباعث عليه الحمد فقط، وهذا لا شك في ذمه، أما أن يفعل الإنسان فعلاً مخلصًا فيه لله - جل وعلا-، ثم بعد ذلك يترتب علىٰ هذا الفعل ذكر الناس له بالخير والثناء عليه، فذلك عاجل بشرىٰ المؤمن(١).

«**وربما كان ذلك الفعل إلىٰ الذم أقرب منه إلىٰ المدح**»، ومع الأسف فقد سمعنا بعض من ينتسب إلىٰ العلم والدعوة، وهو يثني علىٰ بعض المسؤولين بأفعال مخالفة للشرع.

«**وربما أظهر أمرًا حسنًا في الظاهر، وأحب المدح عليه، وقصد به في الباطن شرًّا، وفرح بتمويه ذلك**» وفي نسخة «**وقصد تمويه ذلك**» «**وترويجه علىٰ الخلق. وهذا يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [آل عمران:١٨٨]**»، فقد أشار بعض المفسرين إلىٰ أن مفهوم الآية: أن الذي يحب أن يحمد بما فعل

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي ذر، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**» أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني علىٰ الصالح فهي بشرىٰ ولا تضره، (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٤٢٢٥).

لا يدخل في الذم[1]، والحق أن المفهوم يدخل في إطار المذموم إذا تأثَّر بهذا المدح في قلبه، وترتَّب علىٰ حبه بعض الأمور؛ ولذا قد يفعل شيئًا ظاهره الخير، لكنه يقصد به شرًّا؛ لأنه قد يكون ظاهره خيرًا بالنسبة لقوم، ويتضرر به آخرون؛ كما لو أن شخصًا اغتصب دارًا ومنحها لآخر، فمن لا يعرف أن الدار مغصوبة، يظن أنه أحسن إلىٰ هذه الأسرة الفقيرة بهذا البيت، فمدحه، وأثنىٰ عليه، لكنه في حقيقة الأمر مسيء. كقول القائل:

بنى مسجدا لله من غير حله
فتمَّ بحمد الله غير موفَّقِ
كمطعمة الأيتام من كَدِّ فرجها
لكِ الويل لا تزني ولا تتصدقي[2]

والمسألة دقيقة جدًّا، فلا تعارض بين كلام المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وبين ما فهمه بعضهم من الآية.

«فإن هذه الآية إنما نزلت فيمن هذه صفاته، وهذا الوصف، أعني: طلب المدح من الخلق، ومحبته والعقوبة علىٰ تركه لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له»، سبق وأن ذكرنا كلام ابن القيم في الفوائد،

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص: ١٦٠).
(٢) ينسب نحوهما لإسماعيل بن عمار الأسدي، كما في الوافي بالوفيات؛ للصفدي ٩/ ١٠٧، والحماسة البصرية؛ لأبي الحسن البصري ٢/ ٢٨٥، ونسبه البعض للإمام علي، كما في ديوان الإمام علي (ص: ١٣٧).

وفيه أن الإخلاص لا يكمل إلا إذا زهد في ثناء الناس ومدحهم، وأنه إذا أراد ذبح حب هذا الزهد في نفسه فعليه أن يعلم: «أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده»[(١)].

وعدم حب الحمد والثناء كان دأب الصالحين من أصحاب الولايات، وهو ما ذكره المصنف، فقال:

«ومن هنا كان أئمة الهدىٰ ينهون عن حمدهم علىٰ أعمالهم، وما يصدر منهم من الإحسان إلىٰ الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد علىٰ ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد العناية بذلك، وكتب مرة إلىٰ أهل الموسم»، يعني: في الحج، **«كتابًا يُقرأ عليهم وفيه الأمر بالإحسان إليهم، وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: «ولا تحمدوا علىٰ ذلك كله إلا الله؛ فإنه لو وكلني إلىٰ نفسي كنت كغيري»**[(٢)]، أي: من الولاة الذين تقدموا عليه، وصدر منهم ما صدر.

وعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثال للحاكم العادل الخليفة الراشد الذي لا تعني الدنيا عنده شيئًا، لَمَّا ولِّيَ الخلافة تجرد من الدنيا كلها، وجرَّد كل من حوله منها؛ من النساء والبنين والبنات[(٣)]،

(١) الفوائد؛ لابن القيم (ص: ١٤٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٩٢.
(٣) ينظر: سيرة عمر؛ لابن عبد الحكم (ص: ٣٧).

وتركهم بدون أموال ولم يترك لهم إرثًا، ولَمَّا قيل له في ذلك قال: «وإنَّما ولد عمر بَين أحد رجلَيْنِ إمَّا رجل صَالح فسيغنيه الله وإمَّا غير ذلك فَلَنْ أكون أول من أعانه بالمالِ علىٰ مَعْصِيّة الله»[1].

قال المصنف مستمرًا في بيان عدم حب عمر بن عبد العزيز للمدح:

«وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرض لبناتها اليتامىٰ مشهورة، فإنها كانت لها أربع بنات، ففرض لاثنتين منهن وهي تحمد الله، ثم فرض للثالثة فشكرته فقال: إنما كنا نفرض لهن حيث كنتِ تُوْلِين الحمد أهله، فمري هذه الثلاث يواسين الرابعة، أو كما قال رضي الله عنه**»**[2]، الملاحظ أنها في أول الأمر كانت تحمد الله لَمَّا أعطىٰ الاثنتين، ولما أعطىٰ الثالثة شكرته، فأمسك عن العطاء! فإن قيل: كيف لامها، وفي الحديث: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[3]، فهل يلام إذا حُمِد بما تسبب فيه من خير؟

(١) ينظر: سيرة عمر بن عبد العزيز؛ لعبد الله بن الحكم بن أعين (ص: ١٠١)، والبداية والنهاية ١٢/ ٧١٥.

(٢) ينظر: السابق (ص: ١٤٩).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب شكر المعروف، (٤٨١١)، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، (١٩٥٤)، وأحمد (٧٥٠٤)، وابن حبان (٣٤٠٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء من حديث أبي سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، والأشعث بن قيس رضي الله عنهم.

الجواب: بالطبع لا، ولكنها منازل، فمنزلة بعض الناس عالية، وعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحظ شيئًا لا يخطر على بال كثير من الناس.

وفي الحديث «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له**»[1]، قال: ادعوا له، ولم يقل: أثنوا عليه أو امدحوه.

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، (١٦٧٢)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب من سأل بالله عز وجل، (٢٥٦٧)، وأحمد (٥٣٦٥)، وابن حبان (٣٤٠٨)، والحاكم (٢٣٦٩) وصححه ووافقه الذهبي، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وحاصل الأمر أن يعرف أن ذا الولاية إنما هو منتصب لتنفيذ أمْر الله، وآمر العباد بطاعة الله تعالىٰ، وناهٍ لهم عن محارم الله، ناصح لعباد الله بدعائهم إلىٰ الله، فهو يقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون العزة لله، وهو مع ذلك خائف من التقصير في حقوق الله أيضًا.

فالمحبون لله غاية مقاصدهم من الخَلْق أن يحبوا الله ويطيعوه، ويفردوه بالعبودية والإلهية، فكيف من يزاحمه في شيء من ذلك؟! فهو لا يريد من الخَلْق جزاءً ولا شكورًا، وإنما يرجو ثواب عمله من الله كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٩] الآيتين.

وقال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله».

وكان ﷺ ينكر علىٰ من لا يتأدب معه في الخطاب بهذا الأدب، كما قال: «لا تقولوا: ما شاء الله، وشاء محمد، بل قولوا: ما شاء الله، ثم شاء محمد».

وقال لمن قال: ما شاء الله وشئت، «أجعلتني لله ندًا؟! بل ما شاء الله وحده».

فمن هنا كان خلفاء الرسل وأتباعهم من أمراء العدل وقضاتهم لا يدْعُون إلىٰ تعظيم نفوسهم ألبتة، بل إلىٰ تعظيم الله وحده وإفراده بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها علىٰ الدعوة إلىٰ الله وحده.

وكان بعض الصالحين يتولىٰ القضاء، ويقول: أنا أتولاه لأستعين به علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولهذا كانت الرسل وأتباعهم يصبرون علىٰ الأذىٰ في الدعوة إلىٰ الله، ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة وهم صابرون، بل راضون بذلك، فإن المحب ربما يتلذذ بما يصيبه من الأذىٰ في رضىٰ محبوبه، كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما يقول لأبيه في خلافته إذا حرَص علىٰ تنفيذ الحق وإقامة العدل: يا أبتِ لوددت أني غلتْ بي وبك القدور في الله – عز وجل –.

وقال بعض الصالحين: وددت أن جسمي قرض بالمقاريض وأن هذا الخَلْق كلهم أطاعوا الله – عز وجل –، فعُرِض قولُه علىٰ بعض العارفين، فقال: إن كان أراد بذلك النصيحة للخلق، وإلا فلا أدري، ثم غشي عليه.

ومعنىٰ هذا: أن صاحب هذا القول قد يكون لحظ نُصح الخلق والشفقة عليهم من عذاب الله، وأحب أن يفديهم من عذاب الله بأذىٰ نفسه، وقد يكون لحظ جلال الله وعظمته وما يستحقه من

الإجلال والإكرام والطاعة والمحبة، فَوَدَّ أن الخلق قاموا بذلك، وإن حصل له في نفسه غاية الضرر، وهذا هو مشهد خواص المحبين العارفين بملاحظته، فغشي علىٰ هذا الرجل العارف.

وقد وصف الله تعالىٰ في كتابه أن المحبين له يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم، وفي ذلك يقول بعضهم:

أَجِـدُ المَلامَةَ في هَـواك لَـذِيـذَةً
حُبًّا لِـذِكْـرِك فَلْيَلُمْنِي اللُّـوَّمُ

[الشرح]

[غاية المحبين لله حبه وطاعته]

بعد أن بين الحافظ ما يجب علىٰ صاحب الولاية في مسألة حب المدح والثناء، شرع في زيادة الأمر وضوحًا، ببيان وجوب توجه القصد إلىٰ الله، فقال:

«وحاصل الأمر أن يعرف أن ذا الولاية إنما هو منتصب لتنفيذ أمْر الله، وآمر العباد بطاعة الله تعالىٰ، وناهٍ لهم عن محارم الله، ناصح لعباد الله بدعائهم إلىٰ الله، فهو يقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون العزة لله وهو مع ذلك خائف من التقصير في حقوق الله أيضًا»، ويا للأسف الشديد! فإن بعض من يتصدَّر لتوجيه الناس، هو في حقيقة الأمر يدعو إلىٰ نفسه، والأمور بمقاصدها، والله المستعان.

«**فالمحبون لله غاية مقاصدهم من الخَلْق أن يحبوا الله ويطيعوه**»؛ كما كان الرسل يدعون أقوامهم وأممهم من أجل أن يعبدوا الله وحده ويطيعوه، «**ويفردوه بالعبودية والإلهية، فكيف بمن يزاحمه في شيء من ذلك؟!**»، يعني: أنَّ العالِمَ، أو من يدعي العلم، أو من يتصدىٰ لنصح الناس وتوجيههم، هو إما أن يحب أن يطيع الناسُ اللهَ - جل وعلا - ويفردوه بالعبودية والإلهية؛ فيكون هذا قدوته الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، وإما - كما تقدم - يريد أن يتعالىٰ علىٰ الناس، ويأمرهم؛ فيطيعوه، وينهاهم؛ فينتهوا، وهذا مزاحِم لله في أمره ونهيه.

«**فهو لا يريد من الخلق جزاء ولا شكورًا**»، وإنما يريدهم أن يعبدوا الله ويخلصوا له، وجزاؤه علىٰ الله.

«**وإنما يرجو ثواب عمله من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآيتين** [آل عمران:٧٩]»، فالرباني يتعلَّم ويعمل ويعلِّم؛ يتعلم العلم، ويعمل به، ويعلمه الناسَ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هو الذي يربِّي الناس بصغار العلم قبل كباره»(١)، هذا هو الرباني لا من يأمر باتخاذ غير الله ربًا: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٨٠].

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه ١ / ٢٤ دون أن ينسبه إلىٰ قائل، وقال القرطبي في تفسيره ٤/ ١٢٢: «روي معناه عن ابن عباس».

«وقال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[(١)]، يعني: لا تغلوا ولا تبالغوا في مدحي؛ بحيث تجعلون لي شيئًا من حقوق الله - جل وعلا- أو تصرفوا لي شيئًا مما لا يستحقه مخلوق، بل هو من خصائص الله - جل وعلا-، كما قالت النصارىٰ في عيسىٰ: إنه ابن الله، وثالث ثلاثة، تعالىٰ الله.

«وكان رسول الله ﷺ ينكر علىٰ مَن لا يتأدب معه في الخطاب بهذا الأدب»، وقد بين الحافظ مثالًا علىٰ هذا في سنة رسول الله ﷺ، فقال:

«كما قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»[(٢)]**، وقال لمن قال: ما شاء الله وشئتَ: «أجعلتني لله نِدًّا؟! بل: ما شاء الله وحده»**[(٣)]؛ لأن «ثم» تعني التراخي في الرتبة، فمنزلة الرسول ﷺ متراخية عن رتبة الله - جل وعلا-، وليست منزلة واحدة أو متقاربة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللهِ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت (٢١١٨)، وأحمد (٢٠٦٩٤) واللفظ له، من حديث حذيفة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٧٨)، وصححه الحاكم (٥٩٤٥)، من حديث الطفيل بن سخبرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٣٩)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٧٥٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «**أجعلتني والله عدلا، بل ما شاء الله وحده**»، وحسنه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (ص: ١٠٥٦).

«فمن هنا كان خلفاء الرسل وأتباعهم من أمراء العدل، وقضاتهم؛ لا يدعون إلىٰ تعظيم نفوسهم ألبتة»، قد يرد علىٰ ألسنة بعض من يتصدر للتعليم، أو يتصدر للدعوة، ما هو في حقيقته دعوة إلىٰ نفسه، وهو مفهومُ ما ينضح به لسانه، وقد روي أن عليًا رأىٰ واعظًا فقال له: «ما كنيتك؟» فقال: «أبو يحيىٰ». فقال: «بل أنت أبو اعرفوني»[1]، نسأل الله العافية.

فأتباع الرسل لا يدعون إلىٰ تعظيم نفوسهم، بل إلىٰ تعظيم الله، وإفراده بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها علىٰ الدعوة إلىٰ الله.

وهذا يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: ٥٥] هل كان قصده أن يتصرف في هذه الخزائن؟ أو هل كان قصده تولي الأمر والنهي والتسلط علىٰ الناس؟

لا، والله، بل ليتمكن بذلك من العدل بين الناس، ودعوتهم إلىٰ دين الله؛ حيث دعاهم في السجن: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥٤٠٧) عن معمر قال: بلغني أن عليًا، مر بقاص، فقال: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟» قال: لا قال: «هلكت وأهلكت» قال: ومر بآخر قال: «ما كنيتك؟» قال: أبو يحيىٰ، قال: «بل أنت أبو اعرفوني»، وينظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي (ص: ٢٥).

وقيل لبعض شيوخنا: لماذا لا تعتزل منصبك؛ لأنك تقول ولا يسمع لك أحيانًا، فصرت ذريعة للناس؛ ليحسنوا الظن ببعض المسؤولين.

فقال: ليس الأمر كذلك، فإنَّني أستغل منصبي هذا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم أجلس فيه من أجل الوظيفة، ولا ما يترتب عليها، فلو اعتزلت مكاني، ما سُمِع شيء من النصح ألبتة.

لأنه إذا كان في منصبه يسمع له ويطاع، فهو يستعين بهذه الوظيفة بما يستطيعه من الأمر والنهي فيما يرضي الله، ولو اعتزل فلن يكون هناك أمر ولا نهي ألبتة.

وهذا صرَّح به بعض الشيوخ المعروفين، وإن كان الناس يقعون في أعراضهم، ويلومونهم ويشددون في لومهم، واللائم غافل عن حقيقة الحال والأمر.

ومثل هذا ذكره الحافظ فقال:

«وكان بعض الصالحين يتولىٰ القضاء ويقول: أنا أتولاه لأستعين به علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولهذا كانت الرسل وأتباعهم يصبرون علىٰ الأذىٰ في الدعوة إلىٰ الله، ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة»، إن من قرأ

سيرة الرسول ﷺ عرف ما حصل له من أذىٰ قومه، وكذلك سائر الرسل وأتباعهم إلىٰ يوم القيامة. فطريق الدعوة - كما يقال في الأسلوب المعاصر - ليس مفروشًا بالورود، ومِن لازمِ ذلك ما جاء في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]، فلا بد من الصبر، وقد ذكر الإمام المجدد هذه الأمور علىٰ أربع مسائل؛ الأولىٰ: العلم، والثانية: العمل، والثالثة: الدعوة، والرابعة: الصبر علىٰ الأذىٰ[(١)].

«وهم صابرون، بل راضون بذلك، فإن المحب ربما يتلذذ بما يصيبه من الأذىٰ في رضىٰ محبوبه»، كما كان من شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد ذكر ابن القيم أنه قال له: «ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي، لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلتُ ملء هذه القلعة ذهبًا، ما عدل عندي شكر هذه النعمة أو قال: ما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا»[(٢)].

والمقصود أنهم يتلذذون بمثل هذا، لكن هل للإنسان أن يعرض نفسه لهذه الأمور مما لا يستدعيه داعٍ؟ وهل له أن يتمنىٰ مثل هذه الأمور، كأن يتمنىٰ أن يسجن؛ ليتلذذ؟

(١) ينظر: الأصول الثلاثة للإمام محمد بن عبد الوهاب.
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٤٨).

الجواب: لا، ليس له ذلك، فالرسول ﷺ يقول: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»(١)، فهذا إذا حصل تبعًا للدعوة، وتبعًا لبيان الحق وإظهاره، فله في ذلك قدوة وسلف، أما أن يخالف من أجل أن يسجن، فهذا لم يفعله أحد، ولا يحمد عليه أحد، بل يذم علىٰ مخالفته.

ولما ذكر المصنف أن أتباع الرسل ربما يتلذذون بالأذىٰ في سبيل الله، ذكر لذلك مثالًا، فقال:

«**كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ»(٢)، وقد كان شابًّا صغيرًا لما تولىٰ أبوه الخلافة، وهو علىٰ قدر كبير من العمل، والعبادة والزهد، وله شيء من العلم، وقد ألف الحافظ ابن رجب رسالة في سيرته: «سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز» وهي مطبوعة بقدر هذا المتن الذي نشرحه، وفيها عجائب في التربية، تعرف منها كيف نشأ الناشئة علىٰ ما رباهم آباؤهم عليه من الخير والصلاح والفلاح، والهادي هو الله - جل وعلا-، لكن لا بد من بذل الأسباب.

(١) أخرجه البخاري، كتاب التمني، باب كراهية تمني لقاء العدو، (٧٢٣٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، (١٧٤٢)، وأبو داود (٢٦٣١)، من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ.

(٢) عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، توفي سنة ١٠١، كان رجلًا صالحًا يعين أباه علىٰ رد المظالم ويحثه، ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٧/ ٣٨، والأعلام ٤/ ١٦١.

هذا الشاب خاطب أباه في المعنىٰ الذي ذكره المصنف - التلذذ بالأذىٰ في سبيل الله - فكان: «**يقول لأبيه في خلافته إذا حرص علىٰ تنفيذ الحق وإقامة العدل: يا أبتِ لوددت أني غلت بي وبك القدور في الله - عز وجل -**»[(١)]، لكن عافية الله أوسع من ذلك، والقوم منازلهم تختلف عما نعيشه في وقتنا الحاضر.

«**وقال بعض الصالحين: وددت أن جسمي قرض بالمقاريض، وأن هذا الخلق كلهم أطاعوا الله**»[(٢)]، لا شك أن طلب الإنسان نجاته لنفسه مقدَّم علىٰ كل أحد، فهو يتمنىٰ للناس الخير، ويحب لإخوانه ما يحبه لنفسه، ولكن لا يلزم أن يتمنىٰ أن يكون فداءً لغيره؛ لاسيما في أمور الدين.

«**فعُرض قوله علىٰ بعض العارفين**»، وفي نسخة أخرىٰ: «المتقدمين»؛ يعني: المتقدمين علىٰ هذا القائل في المنزلة.

«**فقال: إن كان أراد بذلك النصيحة للخلق وإلا فلا أدري، ثم غشي عليه**» هذه الغشية كانت تحصل لبعض السلف سواء كان ذلك بسبب سماعه آية من كتاب الله، أم لموقف، أم لقول، كما في هذا الموضع، وهذا موجود في السلف بكثرة؛ إلا أنها لم تحصل من النبي ﷺ، ولا مِن كبار الصحابة، وإنما حصلت فيمن بعدهم.

---

(١) روىٰ نحوه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٧/ ٤٦.
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥٠ عن زهير بن نعيم.

وبعضهم ينكر مثل هذا، فابن سيرين يقول عن الذي يغشىٰ عليه بسبب سماع القرآن: «يقعد أحدهم علىٰ جدار، ثم يقرأ عليه القرآن فإن وقع فهو صادق»[1]، كأنه يشكك في مثل هذا، لكنه موجود ومستفيض في السلف.

وشيخ الإسلام يوجه عدم حصوله من النبي ﷺ؛ بأن القرآن ثقيل كما قال الله -جل وعلا-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] وقلبه ﷺ قوي، فيناسب الوعاء النازل، فيحصل التوازن، وكذلك كبار الصحابة، فاستشعار هذا القول الثقيل وعظمة القرآن استمرت فيمن جاء بعدهم، لكن القلوب ضعفت، فلا يوجد توازن بين النازل والطرف المنزول عليه، فحصلت الغشية[2]، وجاء بعدهم خلوف خف استشعار عظمة القرآن عندهم؛ ولذلك لا يؤثر فيهم مثل هذا التأثير، فقلوبهم ليست بمستوىٰ قلوب من تقدم، وكذلك استشعار عظمة القرآن عندهم أقل، وإلا فالله يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

ثم شرح الحافظ ابن رجب هذا القول، وما فيه من المعاني التي جعلت هذا العارف يغشىٰ عليه، فقال:

«ومعنىٰ هذا: أن صاحب هذا القول قد يكون لحظ نُصح الخلق

---

(١) أخرجه في حلية الأولياء ٢/ ٢٦٥.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٢٢٠، ٢٢/ ٥٢٢، ومنهاج السنة ٨/ ٢٠٨.

والشفقة عليهم من عذاب الله، وأحب أن يفديهم من عذاب الله بأذىٰ نفسه، وقد يكون لحظ جلال الله وعظمته وما يستحقه من الإجلال والإكرام والطاعة والمحبة، فود أن الخلق قاموا بذلك، وإن حصل له في نفسه غاية الضرر»، وسواء أكان هذا أم ذاك، فكلاهما مما يجدر بالمسلم أن يفديه بما يستطيع قال:

«**وهذا هو مشهد خواص المحبين العارفين بملاحظته، فغشي علىٰ هذا الرجل العارف.**

وقد وصف الله تعالىٰ في كتابه أن المحبين له يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم» وهو قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾ [المائدة: ٥٤].

ثم تمثل الحافظ ببيت من الشعر في هذا المعنىٰ فقال:

«**وفي ذلك يقول بعضهم:**

أَجِـدُ المَـلامَـةَ في هَـواك لَذِيذَةً
حُبًّا لِذِكْرِك فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّم»[١]

يعني: ليصنعوا ما شاؤوا.

(١) البيت لمحمّد بن عبد الله بن رزين أبي الشيص. ينظر: الشعر والشعراء ٢/ ٨٣٢.

القسم الثاني: طلب الشرف والعلو علىٰ الناس بالأمور الدينية؛ كالعلم، والعمل والزهد.

فهذا أفحش من الأول، وأقبح وأشد فسادًا وخطرًا، فإن العلم والعمل والزهد إنما يطلب بها ما عند الله من الدرجات العلىٰ والنعيم المقيم، ويطلب بها ما عند الله والقرب منه والزلفىٰ لديه.

[الشرح]

[طلب العلو على الناس بالأمور الدينية]

لما فرغ المصنف رَحِمَهُ اللهُ من القسم الأول من أقسام الحرص علىٰ الشرف المضيع للدين، وهو: طلب شرف الولاية والسلطان والمال، وبين ما فيه من المساوئ من حب العلو علىٰ الناس، وظهور احتياجهم إليه، ومدحهم له، وما في ذلك من مضاهاة لصفات الله - جل وعلا- وبيَّن ما ينبغي للصالحين، وأتباع المرسلين، بدأ في شرح القسم الثاني من أقسام الحرص علىٰ الشرف، فقال:

«**القسم الثاني: طلب الشرف والعلو علىٰ الناس بالأمور الدينية؛ كالعلم والعمل والزهد**»، طلب الشرف والجاه بأمور الدنيا فيه ما تقدم، ويزداد سوءًا إذا طلب الشرف علىٰ الناس مظهرًا لهم أنه مريد بذلك الله - جل وعلا - والدار الآخرة، فتجده يتزهد،

ويتنسك فيما يبدو للناس، وهو في حقيقة أمرِه ذئب؛ ولذا رُوي في الحديث: أنهم يلبسون جلود الضأن علىٰ قلوب الذئاب[1]. وهذا أخطر من الأول؛ ولذلك قال:

«فهذا أفحش من الأول وأقبح وأشد فسادًا وخطرًا»؛ لأن الأول ظاهر ومكشوف، وليس فيه خداع للناس، وإنما فيه حب الرئاسة والشرف، وحب الأمر والنهي، وحب أن يؤتمر بأمره، ويزدجر عن نهيه، فهذا نوع تسلط، وفيه - بلا شك - نوعُ منازعةٍ لله - جل وعلا- في أمره ونهيه وكبريائه، لكن القسم الثاني أشد وأعظم وأنكىٰ؛ لأنه يصطاد بالدين، وسبب كونه أشد: هو ما قاله الحافظ:

«فإن العلم والعمل والزهد إنما يطلب به ما عند الله من الدرجات العلىٰ، ويطلب به ما عند الله والقرب منه والزلفىٰ لديه»؛ ولذا قال بعضهم:

(١) أخرج الترمذي (٢٤٠٤) عن أبي هريرة مرفوعًا: «يخرج في آخر الزمان رجال يختِلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلىٰ من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب»، وفيه يحيىٰ بن عبيد الله: متروك، وجاءت هذه الجملة في حديث أبي ذر مرفوعًا عند الطبراني، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ٣٢٥: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سيف بن مسكين وهو ضعيف». وفي حديثٍ لمعقل بن يسار، أخرجه الحارث بن أبي أسامة، عزاه له البوصيري في الإتحاف ٨/ ٢٨، وفيه: أبان بن أبي عياش، وهو متروك الحديث. ينظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال؛ للمزي ٢/ ٢٠. وجاء من قول أبي العالية كما في الزهد لأحمد بن حنبل (١٧٤١).

ومن يكن ليقول الناس يطلبه

أخسر بصفقته في موقف الندم[1]

فالعلم من أمـور الآخـرة المحضة التي لا تقبل التشريك، والمراد به العلم الموروث عن النبي ﷺ فيما حواه الوحيان، وما يعين علىٰ فهم الوحيين، أما العلوم الأخرىٰ، فشأنها كشأن سائر أمور الدنيا؛ ولذلك لو أوصي لأهل العلم، لم تتناول تلك الوصية غير أهل العلم الشرعي[2]، وما كان الناس ينازعون ويجادلون في عدم تسمية العلوم الأخرىٰ علمًا في الوصية، والآن يوجد من ينازع، وأنه إذا وجد وصية لأهل العلم، فهي تتناول جميع العلوم بما في ذلك علوم الدنيا من الطب، والهندسة، وغيرها من العلوم، حتىٰ ولو كانت تُدَرَّسُ علىٰ أيدي الكفار، فتصرف لهم من وصايا المسلمين، لكن من أوصىٰ لأهل العلم في عقود مضت هل يتصور أن يدور في ذهنه أن تصرف وصيته لطالب هندسة في الغرب؟ أبدًا، فما كان الناس يختلفون في ماهية العلم، وحقيقة العلم الذي يدخل في نصوص الشرع.

---

(١) البيت للشيخ: حافظ حكمي من منظومته الميمية في الوصايا والآداب العلمية، (٦٧).

(٢) ينظر: البحر الرائق؛ لابن نجيم ٨/ ٤٧٨، والشرح الكبير للرافعي ٧/ ٩١، الكافي في فقه الإمام أحمد ٢/ ٢٧٥.

قال الثوري: إنما فُضِّل العلم؛ لأنه يتقىٰ به الله، وإلا كان كسائر الأشياء.

فإذا طُلب بشيء من هذا عرضُ الدنيا الفاني، فهو أيضًا نوعان:

أحدهما: أن يطلب به المال، فهذا من نوع الحرص علىٰ المال وطلبه بالأسباب المحرمة، وفي هذا الحديث عن النبي ﷺ: «من تعلم علمًا مما يبتغىٰ به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»، يعني: ريحها، خرجه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

وسبب هذا - والله أعلم - أن في الدنيا جنة معجَّلة وهي معرفة الله تعالىٰ، ومحبته، والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، وخشيته، وطاعته، والعلم النافع يدل علىٰ ذلك، فمن دله علمه علىٰ دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة.

ولهذا كان أشد الناس عذابًا في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه، وهو أشد الناس حسرة يوم القيامة، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلىٰ أعلىٰ الدرجات وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلىٰ

أخسِّ الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة، فباعها ببعرة أو شيء مستقذَر لا ينتفع به، بل حالُ مَن يطلب الدنيا بعلمه أقبح وأقبح، وكذلك من يطلبها بإظهار الزهد فيها، فإن ذلك خداع قبيح جدًّا.

وكان أبو سليمان الداراني يعيب علىٰ من لبس عباءة وفي قلبه شهوة من شهوات الدنيا تساوي أكثر من قيمة العباءة.

يشير إلىٰ أن إظهار الزهد في الدنيا باللباس الدني إنما يصلح لمن فرغ قلبه من التعلق بها؛ بحيث لا يتعلق قلبه بأكثر من قيمة ما لبسه بالظاهر، حتىٰ يستوي ظاهره وباطنه في الفراغ من الدنيا.

وما أحسن قول بعض العارفين وقد سئل عن الصوفي، فقال: الصوفي: من لبس الصوف علىٰ الصفا، وسلك طريق المصطفىٰ، وذاق الهوىٰ بعد الجفا، وكانت الدنيا منه خلف القفا.

[الشرح]

[طلب المال بالعلم]

شرع المصنف هنا في بيان خطورة طلب المال بوسيلة العلم، وهو من أخبث الأمور؛ لأن العلم لا يطلب للمال، وهذا الأمر زاد واستشرىٰ في العصور المتأخرة؛ فتجد هذا في نفوس الناشئة، يطلب العلم من أجل هذا الهدف، وينشأون عليه، ثم يصعب عليهم التخلي عنه؛ لأنه وجد في العقود المتأخرة من يعيش من أهل العلم عيشة الملوك، وتجد أسرته من نساء وبنين وبنات كأسر الأمراء، فالناس ينظرون إلىٰ أمثال هؤلاء علىٰ أنهم قدوات بالمجموع، يعني: بالعلم الذي أوصلهم إلىٰ هذه المنزلة، فتجده يطلب العلم لهذا السبب، وإذا دخل في العلم بهذه النية يصعب عليه أن يرجع عنها إلا بعناية إلاهية واستدراك.

وكان أهل العلم إلىٰ وقت قريب هم أهل التواضع، والمسكنة، والتقلل من الدنيا؛ لمعرفتهم بالله، وطلبهم ما يقرِّب إلىٰ الله – جل وعلا–، وقال بعض السلف: «إذا رأيتم العالم محبًّا لدنياه، فاتهموه علىٰ دينكم؛ فإن كل محب لشيء يحوط ما أحب»[1]؛ لأن العالم الحقيقي هو الذي ينصرف إلىٰ ما هو بصدده من تحصيل العلم

(١) نسبه في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٦٦٨ إلىٰ جعفر بن محمد.

وتعليمه والعمل به؛ ولذا قال:

«قال الثوري[1]: إنما فُضِّل العلم؛ لأنه يتقىٰ به الله»[2] المقصود به العلم المورِث لخشية الله - جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨] فالعلم المورث للخشية هو النافع، فإن لم يورث الخشية لم تكن له مزية وفضل؛ ولذا قال:

«وإلا كان كسائر الأشياء»، أي: صار العلم مهنة من المهن، وليته مثل المهن الأخرىٰ التي لا تبعةَ فيها، يعني: مثل الذي يدرس الطب، أو الهندسة، أو التجارة، أو النجارة، أو غيرها من العلوم والحرف، فهذا - في الأصل -: لا له ولا عليه، كسائر أمور الدنيا، فإذا قصد بذلك نفع المسلمين، وتيسير أمورهم، فإنه يؤجر بقدر هذه النية، وإلا فليس عليه شيء لو نوىٰ به عرض الدنيا، لكن الإشكال إذا طلب الدنيا بالعلم الذي يبتغىٰ به وجه الله، كما قال:

«فإذا طلب بشيء من هذا عرض الدنيا الفاني، فهو أيضًا نوعان؛ أحدهما: أن يطلب به المال، فهذا نوع من الحرص علىٰ المال،

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله، الكوفي، مات سنة ١٢٦، وصنف كتاب الجامع، قال عباس الدوري: رأيت يحيىٰ بن معين، لا يقدم علىٰ سفيان أحدًا في زمانه في الفقه، والحديث، والزهد، وكل شيء. ينظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩، تاريخ بغداد ١٠/ ٢١٩.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٣٦٢.

وطلبه بالأسباب المحرمة، وفي هذا الحديث عن النبي ﷺ: «من تعلم علمًا مما يبتغىٰ به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني: ريحها، خرَّجه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ[1].

وسبب هذا، والله أعلم، أن في الدنيا جنة معجلة»، وقد أشار إلىٰ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما، وأن من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[2].

ثم بين الحافظ ما هي هذه الجنة فقال:

«وهي معرفة الله، ومحبته والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل علىٰ ذلك، فمن دله علمه علىٰ دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا، دخل الجنة في الآخرة، ومن لم يشمَّ رائحتها، لم يشمَّ رائحة الجنة في الآخرة»، لم يشَمَّ ولم يشُمَّ كلاهما صحيح؛ كقول ابن مالك:

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤٥٧)، وأبو داود، كتاب العلم، باب طلب العلم لغير الله تعالىٰ، (٣٦٦٤)، وابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، (٢٥٢)، وابن حبان (٧٨)، والحاكم وصححه (٢٨٨).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ ١٤/ ١٦٠، ١٧/ ٢٧، والداء والدواء (ص: ٢٣٣)، وزاد المعاد ٢/ ٢٤، والفوائد (ص: ٩٣).

سواهما الحــرف كهل وفي ولم

فعل مضارع يلي لم كيشَم[(١)]

فعاقبة من تخلف به علمه عن دخول جنة الدنيا بالمعرفة، والمحبة، والأنس، والشوق، والخشية، أنه لن يجد رائحة الجنة في الآخرة، وليس هذا فقط، وإنما حاله كما قال:

«ولهذا كان أشد الناس عذابًا يوم القيامة في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[(٢)].

وعـــالم بـعـلـمـه لم يعملن

معذب من قبل عباد الوثن[(٣)]

وهذا العالم من الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، وهو: العالم الذي تعلم؛ ليقال: عالم.

وهذا العالم ينال من الحسرة ما يناله، كما قال:

«وهو أشد الناس حسرة يوم القيامة»؛ لأنه قد يرىٰ من دخل الجنة ونُعِّم بسببه وبسبب علمه، وقد دخل هو بسبب علمه النار؛ **«حيث كان معه آلة يتوصل بها إلىٰ أعلىٰ الدرجات، وأرفع المقامات»**؛ فقد

---

(١) ألفية ابن مالك، ومعها شرح ابن عقيل ١/ ٢٣.
(٢) سبق تخريجه (ص: ١٣٤).
(٣) هو لابن رسلان في متن الزبد. ينظر: غاية البيان شرح زبد ابن رسلان (ص: ٤).

كان بإمكانه هذا؛ لأنه يعرف كيفية الوصول إليها؛ إلا أنه استعملها في الدنيا وطلبها، ولا يستوي الذي يعلم والذي لا يعلم، وقد قال الفضيل بن عياض: «أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ بعض أنبيائه: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»[1]؛ ولذا كان عذاب أبي طالب أشد من نظرائه من الكفار لولا شفاعة النبي ﷺ: «**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[2]؛ لأنه عاش وخالط النبي ﷺ، وعرف من دعوته ما لم يعرفه غيره وكان يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد

من خير أديان البرية دينا

لولا المذمة أو حذار مسبة

لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا[3]

ومع ذلك يموت علىٰ ملة عبد المطلب، نسأل الله العافية.

فذلك الذي كانت معه آلة الوصول للعلىٰ:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٣)، وذكره في الحلية ٨/ ٩١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، (٣٨٨٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، (٢٠٩)، من حديث العباس رضي الله عنه.

(٣) سيرة ابن إسحاق (ص: ١٥٥).

«فلم يستعملها إلا في التوصل إلىٰ أخس الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة فباعها ببعرة، أو بشيء مستقذر لا ينتفع به»، مثل سلْم الخاسر وقد سبق الكلام عليه.

«فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه، وأقبح من ذلك من يطلبها بإظهار الزهد فيها، فإن ذلك خداع قبيح جدًّا»، فهذا مخادع لله، مخادع لخلقه، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١] فما مقدار هذه الدرجة الواحدة من درجات الآخرة؟ إن مقدارها مثل ما بين السماء والأرض(١)، يرفع بالعلم هذه الدرجات، ثم ينزل بنفسه إلىٰ أمور حقيرة، ويستبدل هذا العلم أو ثمرة هذا العلم بهذه الأمور الخسيسة! إن هذا لهو الخذلان! وإن هذا لهو الحرمان!.

«وكان أبو سليمان الداراني»، وهو: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي(٢)، يكثر النقل عنه شيخ الإسلام، وابن القيم، وابن رجب،

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة - أراه - فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة». أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي (٢٧٩٠)، وأحمد (٨٤١٩).

(٢) هو: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، أبو سليمان، زاهد مشهور، من أهل داريّا بغوطة دمشق، رحل إلىٰ بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد=

وهو من العباد المشهورين، وإن لوحظ عليه شيء، إلا أن النقل عنهم هي طريقة بعض أهل العلم في أخذ الحكمة ممن جاء بها.

«يعيب علىٰ من لبس عباءة، وفي قلبه شهوة من شهوات الدنيا تساوي أكثر من قيمة العباءة»[(١)]، هذا الملحَظ الدقيق يمر علىٰ السواد الأعظم من طلاب العلم، وقد لا يلتفتون له؛ ففي تقدير أبي سليمان واصطلاحه لا بد أن يتساوىٰ الباطن مع الظاهر بدقة؛ بحيث لا يزيد هذا علىٰ ذاك، فيكون ظاهر المسلم كباطنه؛ مع أن هذا في الحقيقة من الأمور الدقيقة الخفية، وقد يكون في تطبيقها شيء من العسر والتكليف بما يشق ويعسر، فهذه المقامات قد لا يتصورها كثير من المسلمين.

قال الحافظ ابن رجب شارحًا لما كان يراه أبو سليمان الداراني:

«يشير إلىٰ أن إظهار الزهد في الدنيا باللباس الدني، إنما يصلح لمن فرغ قلبه من التعلق بها، بحيث لا يتعلق قلبه بها بأكثر من قيمة ما لبسه في الظاهر؛ حتىٰ يستوي ظاهره وباطنه في الفراغ من الدنيا»، أي: أنه لا يظهر

=إلىٰ الشام. كان من كبار المتصوفين. له أخبار في الزهد، توفي سنة ٢١٥هـ. ينظر: تاريخ بغداد وذيوله ١٠/ ٢٤٧، طبقات الصوفية للسلمي ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات (ص: ٧٤).

(١) رواه عنه في حلية الأولياء ٩/ ٢٦٠ ولفظه «يلبس أحدهم عباءة قيمتها ثلاثة دراهم ونصف، وشهوته في قلبه خمسة دراهم، إنما يستحي أن تجاوز شهوته لباسه». قال أبو سليمان: «وإذا لم يبق في قلبه من الشهوات شيء جاز له أن يتدرع عباءة ويلزم الطريق؛ لأن العباءة علم من أعلام الزهد، ولو أنه ستر زهده بثوبين أبيضين بخلطة الناس كان أسلم له».

منه خلاف ما يبطن؛ بل ظاهره كباطنه، فلا يحسن ظاهره، بينما باطنه بعيد عن هذا الحسن؛ مع أن هذا الباطن هو مناط منزلته عند الله تعالىٰ.

وبعض طلاب العلم لا تجدهم حريصين علىٰ الصف الأول، أو التبكير للجماعة - في حال سعتهم - وإن كانوا يدركون الصلاة مع الجماعة، وتجدهم أنفسهم حريصين علىٰ أداء الصلاة خلف الإمام مباشرة في المساجد التي توجد فيها الكاميرات كما في الحرم وغيره، ثم يعلل هذا بأن القرب من الإمام أفضل من البعد منه، فهل استوىٰ ظاهر هذا مع باطنه؟!

كذلك هل يستوي خشوعه إذا صلىٰ النافلة في المسجد أمام الناس مع خشوعه إذا صلىٰ في بيته؟!

وفي المقابل عرفْنَا من أهل العلم من يصلي التراويح في بيته؛ من أجل أن يقوم غالب الليل، ومنهم من يصلي مع الناس، ثم ينصرف مع الإمام؛ ليكتب له قيام ليلة(١)، وإذا رجع إلىٰ بيته استغل بقية وقته في طاعة الله.

---

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل إذا صلىٰ مع الإمام حتىٰ ينصرف حسب له قيام ليلة» أخرجه أبو داود، كتاب تفريع أبواب شهر رمضان، باب قيام شهر رمضان، (١٣٧٥)، والترمذي، كتاب الصوم، باب قيام شهر رمضان، (٨٠٦)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب قيام شهر رمضان (١٦٠٥)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب قيام شهر رمضان، (١٣٢٧)، وأحمد (٢١٤١٩).

ولا شك أن الإنسان إذا صلىٰ التراويح في بيته فقد تزداد قراءته وخشوعه، إلا أن كثيرًا من الناس يكسل إذا بقي في بيته، فمثل هذا أداء صلاته في المسجد يكون أفضل له.

«وما أحسن قول بعض العارفين، وقد سئل عن الصوفي، فقال الصوفي: من لبس الصوف على الصفا، وسلك طريق المصطفى، وذاق الهوى بعد الجفا، وكانت الدنيا منه خلف القفا»[١].

(١) هذه العبارة منسوبة للشبلي الصوفي. ينظر: نزهة المجالس ومنتخب النفائس؛ للصفوري ٢/ ٥٦.

النوع الثاني: من يطلب بالعمل والعلم والزهد الرئاسة علىٰ الخلق، والتعاظمَ عليهم، وأن ينقاد الخلق، ويخضعون له، ويصرفون وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه علىٰ العلماء؛ ليعلوَ به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعدُهُ النار؛ لأن قصد التكبر علىٰ الخلق محرم في نفسه، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة، كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

وفي السنن عن النبي ﷺ قال: «من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يجاري به العلماء، أو يصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار»، خرَّجه الترمذي من حديث كعب بن مالك.

وخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر، وحذيفة وعنده: «فهو في النار».

وخرجه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «لا تَعَلَّمُوا العلمَ لتُباهوا به العلماءَ، ولا لتماروا به السُّفهاءَ، ولا لتُخَيِّروا به المجالس؛ فمن فعل ذلك، فالنارَ النارَ».

وخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه، وزاد فيه: «ولكن تَعلَّموه لوجه الله والدارِ الآخرة».

وعن ابن مسعود ﵁ قال: «لا تعلموا العلم لثلاث؛ لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله؛ فإنه يبقىٰ، ويفنىٰ ما سواه».

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ: «إن أول خلقٍ تُسَعَّرُ بهم النارُ يوم القيامة ثلاثة ...»، منهم العالم الذي قرأ القرآن؛ ليقال: قارئ، وتعلم العلم ليقال: عالم، وأنه يقال له: قد قيل ذلك، وأمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار.

وذكر مثل ذلك في المتصدق؛ ليقال: إنه جواد، وفي المجاهد؛ ليقال: إنه شجاع.

وعن علي ﵁ قال: يا حملةَ العلم، اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم، فوافق عملُهُ علمَهُ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملُهُم علمَهم، وتخالف سريرتُهم علانيتَهم، يجلسون حلقًا حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا، حتىٰ إن الرجل ليغضب علىٰ جليسه إذا جلس إلىٰ غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالُهم في مجالسهم تلك إلىٰ الله - عز وجل -.

وقال الحسن: «لا يكون حظ أحدكم من العلم أن يقال: عالم».

وفي بعض الآثـار: أن عيسىٰ ﵇ قال: «كيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم؛ ليحدث به، ولا يطلبه ليعمل به؟!»

وقال بعض السلف: «بلغنا أن الذي يطلب الأحاديث؛ ليحدث بها، لا يجد ريح الجنة»، يعني: من ليس له غرض في طلبها إلا ليحدث بها دون العمل بها.

[الشرح]

[طلب الرئاسة بالعلم والعمل والزهد]

لما ذكر المصنف النوع الأول من أنواع المنتفعين بالدين من أجل الدنيا، وهم من يطلبون المال بالدين، ذكر النوع الثاني من هؤلاء الهالكين؛ وهم من يطلبون رياسة الدنيا بالدين، فقال:

«النوع الثاني: من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرئاسة علىٰ الخلق، والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق، ويخضعون له، ويصرفون وجوههم إليه، وأن يُظهر للناس زيادة علمه علىٰ العلماء؛ ليعلو به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعده النار» إن مثل هذا الكلام يصف حالنا وصفا دقيقًا؛ فلو تدبرناه، وطبقناه علىٰ أنفسنا، فكيف يصير مآلنا؟ فهل نترك العلم والتعليم بسبب هذا الكلام؟

إن الترك ليس بعلاج، لا في بداية الطلب ولا في نهايته؛ وقد يسأل كثير من طلاب الدراسات النظامية قائلين: نحن في كليات شرعية، نطلب العلم الشرعي، لكننا دخلنا هذه الكليات؛ لننال

الشهادات، ومن ثم الوظائف، وهذه نياتنا أول ما دخلنا، فهل نترك الدراسة؛ لأننا نصبح بهذه النية علىٰ خطر عظيم؟

والجواب أنْ يقال لهم: إنّ الترك ليس بعلاج، بل استمر وجاهد. ومثل هذا يقال للعالِم والمعلِّم: أنت واقع في كثير مما يذكره أهل العلم، وأنت علىٰ خطر، لكن الترك ليس بعلاج، جاهد وغيِّر قصدك وغير نيتك؛ لتنال الدرجات العلىٰ.

فعلىٰ العالم وطالب العلم أن يحذر أن يطلب بعلمه الجاه، وانقياد الناس إليه، وخضوعهم له؛ لأن هذا مآله النار، والسبب كما قال المصنف:

«لأن قصد التكبر علىٰ الخلق محرم في نفسه، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان»؛ لأن من يستعمل آلات الدنيا لأيِّ هدفٍ كان، وضعه مكشوف، لا مخادعة فيه لله ولخلقه، ومن يستعمل آلات الآخرة، ويتصيد الدنيا بالدين، فإشكاله كبير، نسأل الله العافية.

«وفي السنن عن النبي ﷺ قال: «من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يجاري به العلماء، أو يصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار» خرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك، وخرجه

ابن ماجه من حديث ابن عمر وحذيفة، وعنده: «فهو في النار»[1]، والحديث بمجموع طرقه يصل إلىٰ درجة الحسن، وفيه وعيد شديد لـ«**من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يجاري به العلماء**»، أي: ينافسهم، «**أو يصرف وجوه الناس إليه**»، فلا شك أن العامة يعجبون بالعالِم وينظرون إليه، ويلجأون إليه لحلِّ مشاكلهم، فإذا طلبه بهذه النية «**أدخله الله النار**».

«وخرجه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار»[2]، **وخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وزاد فيه: «ولكن تعلموه لوجه الله والدار الآخرة»**[3].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب من يطلب بعلمه الدنيا، (٢٦٥٤)، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وقال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيىٰ بن طلحة ليس بذاك القوي عندهم، تكلم فيه من قبل حفظه». وأخرجه ابن ماجه، كتاب الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، (٢٥٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، و(٢٥٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، (٢٥٤)، وابن حبان (٧٧)، والحاكم (٢٧٠)، وقال في مصباح الزجاجة ١/ ٣٧: «هذا إسناد رجاله ثقات علىٰ شرط مسلم».

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٧٤، من طريق ابن عدي، وفيه علي بن الحسن المكتب كان يضع الحديث. ينظر: ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٠.

وهـذه الأحاديث فيها ضعف، وهي في معنىٰ ما تقدم، فإذا انضمت إلىٰ ما تقدمها يحصل لها شيء من القوة.

«وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله؛ فإنه يبقىٰ، ويفنىٰ ما سواه»[1].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أول خلقٍ تُسَعَّرُ بهم النارُ يوم القيامة ثلاثة ...»، منهم العالم الذي قرأ القرآن؛ ليقال: قارئ، وتعلم العلم ليقال: عالم، وأنه يقال له: قد قيل ذلك، وأمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار».

وهذا معنىٰ حديث في صحيح مسلم ولفظه: «إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمِـرَ به، فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرَفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم، وعلَّمْتُهُ وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم، وقرأت القرآن؛ ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل وسَّع

(١) أخرجه الدارمي (٢٦١).

الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كلِّه، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنْفَقَ فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت؛ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار»(١).

وما أكثر من يتعلم ومن يعلِّم؛ ليقال: عالم، والأمارات، والدلائل، والقرائن التي تدل علىٰ ذلك ظاهرة، ومثله ما قال المصنف: **«وذكر مثل ذلك في المتصدق ليقال: إنه جواد»** فيتصدق ويبذل المال الذي تعب في تحصيله؛ من أجل أن يقال: جواد.

وقد قيل لثري: نريد منك صدقات للفقراء والمساكين، فأجاب: إنما عندنا صداقات، وليست صدقات. نسأل الله العافية.

وجيء إلىٰ شخص من كبار الأغنياء في مجمع ومحضر من نظرائه فقيل له: المشروع الفلاني بحاجة إلىٰ دعم، فحرَّر شيكًا بمبلغ كبير، فلما خرج السائل من عنده، اتصل علىٰ البنك وقال: لا تصرفوا الشيك الفلاني. نسأل الله العافية.

«وفي المجاهد» الذي يقدِّم مهجته ليُقتَل، وهو في الظاهر يزعم أنه في سبيل الله، وفي الباطن أنه: **«ليقال شجاع»**، فهؤلاء الثلاثة أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة.

(١) سبق تخريجه (ص: ١١٣).

وتابع المصنف سرده للآثار التي تحذر من طلب العلم للمباهاة به، وللعلو علىٰ الخلق من خلاله فقال:

«**وعن علي** ﵁ **قال:** «**يا حملة العلم، اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم فوافق عملُه علمَه**»[1]، فثمرة العلم العمل، وإلا فمجرد العلم بدون عمل كالشجر بلا ثمر.

«**وسيكون أقوام يحملون العلم**» يحملونه؛ ليقال: عالم، وليتحدثوا به للناس، لا ليعملوا به، فـ«**لا يجاوز تراقيهم**»، أي: نصيبهم مجرد التحدث به.

«**يخالف عملهم علمهم، ويخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقًا حلقًا، فيباهي بعضهم بعضًا**»، يباهي بعضهم بعضًا، كل يقول: أنا أكثر منك طلابًا، وآخر يقول: أنا أفصح منك عبارة، وثالث يقول: أنا أوضح منك كلامًا أو أطول شرحًا، فيباهي بعضهم بعضًا.

«**حتىٰ إن الرجل ليغضب علىٰ جليسه إذا جلس إلىٰ غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلىٰ الله -عز وجل-**»، وهذا مثل الحلق التي في الجوامع الكبيرة كالحرمين وغيرهما، تجد الحلقة بجانبها حلقة، فإذا جلس أحدهم لشيخ، فرأىٰ أن الفائدة ليست بكبيرة، فقام وبحث عن غيره، يغضب الشيخ ويقول:

(١) أخرجه الدارمي (٣٩٤).

لماذا قام؟ وهذا الذي يغضب في نيته دَخَل، وإلا فالسامع يبحث عما ينفعه.

«وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكون حظ أحدكم من علمه أن يقال: عالم».

وفي بعض الآثار أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «كيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم ليحدث به، ولا يطلبه ليعمل به؟»[1].

وقال بعض السلف: «بلغنا أن الذي يطلب الأحاديث؛ ليحدث بها لا يجد ريح الجنة»[2]**، يعني: من ليس له غرض في طلبها إلا أن يحدث بها دون العمل بها»**.

وكل هذه الآثـار في الحذر من طلب العلم ليقال عالم، أو محدث، كطالب الحديث ليحدث به، دون العمل به.

(١) ينظر: أخلاق العلماء (ص: ٩٣).

(٢) القائل هو: عائذ الله أبو إدريس، كما في: مصنف ابن أبي شيبة (٢٦١٢٥)، جامع بيان العلم وفضله (١١٣١).

ومن هذا القبيل: كراهةُ السلفِ الصالحِ الجرأةَ علىٰ الفتيا، والحرصَ عليها، والمنازعةَ إليها، والإكثارَ منها.

وروىٰ ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «أجرؤكم علىٰ الفتيا أجرؤكم علىٰ النار».

وقال علقمة: «كانوا يقولون: أجرؤكم علىٰ الفتيا أقلُّكم علمًا».

وعن البراء قال: «أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسْأَلُ أحدُهُم عن المسألةِ ما منهم من أحد إلا ودَّ أنَّ أخاه كفاه».

وفي رواية: «فيَرُدُّها هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا حتىٰ ترجع إلىٰ الأول».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون».

وسئل عمر بن عبد العزيز عن مسألة، فقال: «ما أنا علىٰ الفتيا بجريء».

وكتب إلىٰ بعض عماله: «إني، والله، ما أنا بحريص علىٰ الفتيا، ما وجدت منها بدًّا، وليس هذا الأمر لمن ودَّ أن الناس احتاجوا إليه، إنما هذا الأمر لمن ودَّ أنه وجد من يكفيه».

وعنه أنه قال: «أعلم الناس بالفتوىٰ أسكتهم، وأجهلهم بها أنطقهم».

وقال سفيان الثوري - رحمة الله عليه-: «أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتىٰ لا يجدوا بدًّا من أن يفتوا، وإذا أعفوا منها كان أحبَّ إليهم».

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه: «من عرَّض نفسه للفتيا، فقد عرَّضها لأمر عظيم؛ إلا أنه قد تلجئ الضرورة». قيل له: «فأيُّما أفضل الكلام أم السكوت؟»، قال: «الإمساك أحب إلي»، قيل له: «فإذا كانت الضرورة؟»، فجعل يقول: «الضرورة الضرورة». وقال: «الإمساك أسلم له».

وليعلمِ المفتي أنه يوقِّع عن الله أمره ونهيه، وأنه موقوف ومسؤول عن ذلك.

قال الربيع بن خثيم: «أيها المفتون، انظروا كيف تفتون».

وقال عمرو بن دينار لقتادة لما جلس للفتيا: «تدري في أي عمل وقَعت؟ وقَعت بين الله وبين عباده، وقلتَ: هذا يصلح، وهذا لا يصلح».

وعن ابن المنكدر قال: «إن العالم داخل بين الله وبين خلقه، فلينظرْ كيف يدخل عليهم».

وكان ابن سيرين إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام تغير لونه وتبدَّل، حتىٰ كأنه ليس بالذي كان.

وكان النخعي يُسْأَل، فتظهر عليه الكراهة ويقول: «ما وجدتَ أحدًا تسأل غيري؟».

وقال: «قد تكلمتُ، ولو وجدتُ بدًّا ما تكلمت، وإن زمانًا أكون فيه فقيهَ الكوفة لزمان سوء».

وروي عن عمر قال: «إنكم لتستفتوننا استفتاءَ قومٍ كأنا لا نُسألُ عما نفتيكم به».

وعن محمد بن واسع قال: «أول من يُدعَىٰ إلىٰ الحساب: الفقهاء».

وعن مالك: أنه كان إذا سئل عن المسألة كأنه واقف بين الجنة والنار.

وقال بعض العلماء لبعض المفتين: إذا سُئلتَ عن مسألة، فلا يكن همُّك تخليصَ السائل، ولكن تخليصَ نفسِك أوَّلاً.

وقال لآخر: إذا سئلت عن مسألة، فتَفكَّر، فإن وجدت لنفسك مخرجًا فتكلم، وإلا فاسكت.

وكلام السلف في هذا المعنىٰ كثير جدًّا يطول ذكره واستقصاؤه.

[الشرح]

[الجرأة على الفتيا]

لما ذكر المصنف الذم والتحذير من طلب العلو علىٰ الناس بالعلم؛ لأنه لا يُطلَب إلا للعمل، ذكر بابًا من أبواب طلب العلو علىٰ الناس بالعلم، وهو العلو عليهم بالفتوىٰ، فذكر تحذير السلف من هذا الباب الخطير، فقال:

«ومن هذا القبيل: كراهةُ السلفِ الصالحِ الجرأةَ علىٰ الفتيا، والحرصَ عليها، والمنازعةَ إليها، والإكثارَ منها»، وقد كان السلف يكرهون الجرأة علىٰ الفتيا، والحرص عليها، وكان المستفتي يدخل المدينة، فيسأل الصحابي، فيقول له: اذهب إلىٰ فلان، ولا يجيبه، وفلان يقول: اذهب إلىٰ فلان، وينتهي من البلد وما وجد من يفتيه. وستأتي الإشارة إلىٰ ذلك في كلام المصنف.

وهذا إنما يَسُوغُ إذا لم تتعين المسألة علىٰ شخص، فإذا تعيَّنت المسألة علىٰ شخص، فلا يجوز له أن يتردد ويرفض؛ بحيث يدخل المستفتي ولا يجد من يفتيه في بلد فيه علماء، أو فيه مؤسسة أو دائرة فيها علماء؛ لاسيما إذا كان هؤلاء العلماء ممن يأخذون الأجر علىٰ هذا العمل من التعليم والفتيا وغيرهما.

«وروىٰ ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «أجرؤكم علىٰ الفتيا أجرؤكم علىٰ النار»[1].

في سنده ابن لهيعة[2]، وهو مضعف عند الأكثر؛ فقد ضعفه ابن حجر في مواضع، وضعف أحاديث بسببه[3]، وقال في التقريب: إنه صدوق[4]. والأكثر علىٰ تضعيفه مطلقًا[5]، وبعضهم يقوي روايته إذا كانت من طريق العبادلة[6]، والحديث فيه علة أخرىٰ، وهي الإرسال[7]، والأكثر علىٰ تضعيف المرسل، ما عدا مالكًا، وأبا حنيفة؛ ولذا يقول الحافظ العراقي:

واحتج مالك كذا النعمان

وتابعوهما به ودانوا

(١) أخرجه الدارمي (١٥٩)، من غير طريق ابن لهيعة، وعزاه ابن بطة في إبطال الحيل (ص: ٦٢) لعمر رضي الله عنه.

(٢) عبد الله بن لهيعة الحضرمي الأعدولي، أبو عبد الرحمن، المصري الفقيه القاضي، مات بمصر سنة ١٧٤، لقي اثنين وسبعين تابعيًا. ينظر: الطبقات الكبرىٰ ٧/ ٣٥٨، والإكمال ٨/ ١٤٣.

(٣) ينظر: تلخيص الحبير ٢/ ٨٧، ٣٥٤، وفتح الباري ٨/ ٧٠٢.

(٤) ينظر: تقريب التهذيب (ص: ٣١٩).

(٥) ينظر: الإكمال؛ للدمشقي ٨/ ١٤٣.

(٦) يعني إذا روىٰ العبادلة عنه وهم: ابن وهب، وابن المبارك، وابن المقرئ، وقائل هذا القول عبد الغني بن سعيد الحافظ. ويقال: إن ذلك؛ لأنهم سمعوا من ابن لهيعة قبل احتراق كتبه. ينظر: المنثور؛ لابن طاهر المقدسي ١/ ٣٧، والإكمال ٨/ ١٤٤، ١٤٥.

(٧) ينظر: إتحاف المهرة لابن حجر ١٩/ ٢١٩.

وردهـــــا جمـــاهـــر الـــنـــقـــاد
للجهل بالساقط في الإسناد
وصاحب التمهيد عنهم نقله
ومسلمٌ صَدْرَ الكتاب أصَّلَه[(١)]

يعني: أصل التضعيف والرد.

«وقـال علقمة: كانوا يقولون: أجرؤكـم علىٰ الفتيا أقلكم علمًا»[(٢)]؛ لأن الأكثر علمًا يعرف عواقب هذه الجرأة، أما الأقل علمًا، فلا يستحضر مثل هذه العواقب. وأيضًا الأكثر علمًا حصل عنده من الثقة بعلمه وفي نفسه ما يردعه عن ذلك، إضافة إلىٰ خشية الله - جل وعلا- وتقواه، والأقل علمًا يريد أن يبني شخصيته ؛ فيخشىٰ إذا تردد في الفتيا أن يقال: لا علم عنده، لكن إذا وفق وبلغ من العلم ما يردعه ويوصله إلىٰ خشية الله وتقواه؛ فإن هذا لا يشكل عليه أن يقول: لا أدري؛ ولذا سئل مالك عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: «لا أدري»[(٣)]، وسأل رجل مالكًا عن

(١) ألفية العراقي: الأبيات من ١٢٢ إلىٰ ١٢٤، وينظر: صعود المراقي إلىٰ ألفية العراقي ١/ ٢٥٩.
(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله عن سفيان بن عيينة (١٥٩١)، وعن سحنون (٢٢١١)، ونحوه عن أيوب السختياني (١٥٢٥).
(٣) ينظر: ترتيب المدارك؛ للقاضي عياض ١/ ١٨١.

مسألة، وذكر أنهم أرسلوه يسأله عنها من مسيرة ستة أشهر، فقال: «فأخبر الذىٰ أرسلك أني لا علم لي بها»[(١)].

وآيات الكتاب، وسنة الرسول تُرَبِّي علىٰ هذه الأمور، وهناك الآن من شيوخنا الموجودين من إذا سئل تغير لونه؛ وإن كان قائمًا جلس، وإن كان جالسًا اضطجع، تمر ساعة ولا يجيب، وبعضهم تجري الفتوىٰ في عروقه مثل النفس، لا يتردد فيها.

«وعن البراء قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة، ما منهم رجل إلا ودَّ أن أخاه كفاه، وفي رواية: فيردها هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا، حتىٰ يرجع إلىٰ الأول»، كذا في المطبوع «**عن البراء**» وفي نسخة «**عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ**» وهو الصحيح عنه، وهو عند الدارمي، وغيره[(٢)].

وفيه هروب الصحابة من الفتيا، أما الآن فنرىٰ في مجالس طلاب العلم من يبادر بالجواب قبل أن يُسأل؛ ويُسأل الأكبر فينبري الأصغر ويبادر ليظهر للحاضرين ما عنده من علم، نسأل الله العافية.

---

(١) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء؛ لابن عبد البر ٣٨.

(٢) أخرجه الدارمي (١٣٧)، والمدخل إلىٰ السنن للبيهقي (٨٠٠). والذي روي عن البراء رضي الله عنه هو قوله: «لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر، ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوىٰ». أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٤٩.

«وعـن ابن مسعود رضي الله عنه قـال: إن الـذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون»[1].

وقد حُفِظَ عن شيخنا الشيخ ابن باز في مسائل ليست بالقليلة قوله في البرامج العامة التي تذاع علىٰ العالم كله: نبحث المسألة، مع أنه يستطيع أن يلغي السؤال من التسجيل أصلاً، وفي إحدىٰ حلقات نور علىٰ الدرب سئل الشيخ عن تسع مسائل كلها يقول: لا أعلم، فقال المقدم: نحذفها يا شيخ، قال: لا تحذفها. وهذا نوع من التربية لطلاب العلم.

«وسئل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ عن مسألة فقال: ما أنا علىٰ الفتيا بجريء. وكتب إلىٰ بعض عماله: إني والله ما أنا بحريص علىٰ الفتيا ما وجدت منها بدًّا»، يعني: ما لم تتعين عليه، أما إذا تعينتْ، فليس فيها مندوحة؛ لأن العالم الذي يعرف الجواب لا يجوز له أن يكتم، وفي الحديث: **«من سئل عن علم فكتمه، ألجم بلجام من نار يوم القيامة»**[2] والحديث فيه كلام.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٥٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، (٣٦٥٨)، والترمذي كتاب العلم، باب كتمان العلم، (٢٦٤٩)، وقال «حسن»، وابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه، (٢٦٦)، وأحمد (٧٥٧١)، وابن حبان (٩٥)، والحاكم (٣٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء من حديث ابن عباس، وأنس، وعمرو بن العاص، وجابر، وابن مسعود رضي الله عنهم.

«وليس هذا الأمر لمن ود أن الناس احتاجوا إليه، إنما هذا الأمر لمن ود أنه وجد من يكفيه»[1]، يعني: أنه لا يتجرأ علىٰ الفتيا إلا مَن وَدَّ أن الناس يحتاجون إليه، فما هو رادٌّ أحدًا، وإنما هذا الأمر لمن وَدَّ أنه وجد من يكفيه تبعة الفتوىٰ.

«وعنه أنه قال: أعلم الناس بالفتاوىٰ أسكتهم، وأجهلهم بها أنطقهم»[2]؛ لأن العلم إنما يقود إلىٰ طلب نجاة النفس، وهذا هو العلم الحقيقي النافع، فأسكتُهم يطلبُ نجاة نفسه ما لم تتعين عليه، وأجهلُهم أنطقُهم؛ لأنه لا يَقْدِرُ لنفسه أي حساب، سواءٌ أصاب أو أخطأ، فينطق بكل ما يُسأل عنه.

«قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ»، سفيان الثوري إمام من أئمة المسلمين، صاحب مذهب متبوع كسائر الأئمة، لكنه اندثر: **«أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتىٰ لا يجدوا بدًّا من أن يفتوا، وإذا أعفوا منها كان أحب إليهم»**[3].

---

(١) أخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٦١٧) عن ابن لهيعة، أن عمر بن عبد العزيز، استعمل عروة بن محمد السعدي، من بني سعد بن بكر، وكان من صالحي عمال عمر بن عبد العزيز علىٰ اليمن، وأنه كتب إلىٰ عمر يسأله عن شيء من أمر القضاء فكتب إليه عمر: «لعمري ما أنا بالنشيط علىٰ الفتيا ما وجدت منها بدا وما جعلتك إلا لتكفيني وقد حملتك ذلك فاقض فيه برأيك».

(٢) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٥٠ عن ابن عيينة.

(٣) أخرجه في الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٨.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم»؛ لأنه كما تقدم موقِّع عن الله - جل وعلا -، وإذا أفتىٰ بغير علم، فهو ممن كذب علىٰ الله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ [النحل: ١١٦] وهؤلاء هم الذين جاء فيهم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

«إلا أنه قد تلجئ إليه الضرورة، قيل له: فأيما أفضل الكلام أم السكوت؟ قال: الإمساك أحب إلي، قيل له: فإذا كانت الضرورة، فجعل يقول: الضرورة الضرورة، وقال: الإمساك أسلم له»[1]، كأنه يستخفّ بمن يقول: الضرورة الضرورة، ويجعلها مطيته في كل تساهل، ومع ذلك إذا تعينت، فلا بد من أن يقوم بها أحد؛ لأن الفتوىٰ من فروض الكفايات.

«وليعلم المفتي أنه يوقِّع عن الله أمره ونهيه، وأنه موقوف ومسؤول عن ذلك» لا شك أن المفتي واسطة بين صاحب الحكم، وهو الله - جل وعلا - وبين المستفتي، وهو في حقيقته وواقعه موقِّع عن الله؛ ولذلك سمىٰ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كتابه: «إعلام - أو أعلام - الموقِّعين عن رب العالمين»، والمراد بهم المفتون عن الله، فهم موقعون عن الله.

(١) أخرجه في الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٩.

«وقال الربيع بن خثيم: أيها المفتون انظروا كيف تفتون!»[1]، وبعض الناس مِن العجلة وحرْصِهِ علىٰ الجواب يجيب السائل قبل أن يتم السؤال، بل بعضهم يجيب علىٰ السؤال وهو لم يفهمه.

وقد سئل أحدهم عن شخص يضرب أباه، فأجاب: «الأدب مطلوب، وللوالد أن يضرب ولده ويؤدبه»، فعكس الحال، وكل هذا من أجل العجلة في تلقف السؤال.

وفي أكثر من حديث يُسأل النبي ﷺ فيسكت[2]، وما يتعجل، وهو المؤيَّد بالوحي، يسكت إما انتظارًا للوحي، كما في بعض الوقائع، وإما ليؤدِّب ويعلم من يأتي بعده، فلا يتعجل بالجواب.

«وقال عمرو بن دينار[3] لقتادة[4] لما جلس للفتيا: تدري في أي عمل وقَعت؟ وقَعت بين الله وبين عباده، وقلت: هذا يصلح وهذا

(١) أخرجه في الفقيه والمتفقه١/ ٥٢٩، وتمامه: قال ربيع بن خثيم: «أيها المفتون: انظروا كيف تفتون، لا يقل أحدكم: إن الله أحل كذا وكذا وأمر به، فيقول الله: كذبت لم أحلله ولم آمر به، ولا يقل أحدكم: إن الله حرم كذا وكذا، ونهىٰ عنه، فيقول الله: كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه».

(٢) ينظر: البخاري (١٢٥، ١٤٦٥، ١٥٣٦) ومسلم (١٠٥٢، ١١٨٠، ٢٧٩٤).

(٣) هو: عمرو بن دينار أبو محمد الجمحي، أحد الأعلام، وشيخ الحرم في زمانه، أفتىٰ بمكة ثلاثين سنة، توفي سنة ١٢٦، وهو من أوساط التابعين. ينظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٠٠، وإكمال تهذيب الكمال؛ لمغلطاي الحنفي ١٠/ ١٦٣.

(٤) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي البصري، أبو الخطاب، توفي سنة ١١٧، وقيل ١١٨، حجة بالإجماع إذا بين السماع، فإنه مدلس معروف بذلك، وكان يقول بشيء من القدر. ينظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩، وطبقات ابن سعد ٧/ ١٧١.

لا يصلح»[(١)]، يعني: صرت واسطة بين الله وبين عباده؛ تتحدث نيابة عن الله - جل وعلا -، وتقول: هذا يصلح وهذا لا يصلح.

وبعض الناس إذا سئل ظن أن من الورع ألَّا يقول: هذا حلال، وهذا حرام، بل يقول: هذا لا يصلح. والعلماء قالوا: إن كلمة «لا يصلح» بمثابة حرام[(٢)]، وفي الصحيح: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس**»[(٣)]، يعني: يحرم، فعلىٰ الإنسان أن يحتاط ويضبط العبارات التي تصدر عنه.

ومن نقل فتوىٰ عالم من هذا القبيل، فعليه أن يتثبت من صحتها، فإذا كان هذا الناقل مِنَ العامة الذين ليست لديهم الأهلية لتمييز الراجح من المرجوح، فيكتفي بالنقل عمن تبرأ الذمة بتقليده.

«وعن ابن المنكدر[(٤)] **قال: إن العالم داخل بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل عليهم»**[(٥)]، وهو بمعنىٰ ما تقدم.

(١) ذكره في جامع بيان العلم وفضله (٢٠٧٤)، وأخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٥٥، عن مالك بن دينار، لا عمرو كما ذكر المصنف.

(٢) ينظر: الفروع؛ لابن مفلح ١/ ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، (١٢١٨)، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٤) هو: محمد بن المنكدر بن عبد الله، أبو عبد الله القرشي، التيمي، المدني، مات سنة ١٣٠، وقيل ١٣١، قال مالك: كان ابن المنكدر سيد القراء. ينظر: تاريخ دمشق؛ لابن عساكر ٥٦/ ٣٧، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥٣.

(٥) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٥٤.

«وكـان ابن سيرين إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام تغير لونه وتبدل، حتىٰ كأنه ليس بالذي كان»[1]، إذا كان الإنسان في امتحان من امتحانات الدنيا، ودخل قاعة الامتحان فإنه يرتعد ويخاف ويتغير لونه، ويضطرب، وكذا لو كان في مقابلة من أجل حطام دنيا إما وظيفة أو دراسة أو غيرهما، فكيف إذا سئل ونصب نفسه نائبًا عن الله - جل وعلا-؟!

«وكان النخعي[2] **يُسأل، فتظهر عليه الكراهة ويقول: ما وجدتَ أحدًا تسأله غيري؟»**[3]. إن بعض مَنْ أدركناه كان إذا سئل، قال للسائل: هل هذه المسألة تخصك؟ هل هي واقعة أو غير واقعة؟ فإن كانت غير واقعة لم يجب؛ لأنها حينئذ لم تتعين.

«وقال: قد تكلمتُ ولو وجدت بدًّا ما تكلمت، وإن زمانًا أكون فقيه أهل الكوفة لزمان سـوء»[4]. هذا الذي كان يقوله النخعي، وهو سيد من سادات التابعين، فكيف به لو رأىٰ الذين يتصدون ويتصدرون لإفتاء الناس وتوجيههم وتعليمهم في زمننا هذا؟!

---

(١) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٥٣.

(٢) إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عمرو النخعي، أبو عمران، مات سنة خمس أو ست وتسعين، كان فقيه العراق، وكان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانهما، ينظر: الثقات لابن حبان ٤/ ٨، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٠.

(٣) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٢٥.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٢٣.

«وروي عن عمر ﷺ أنه قال: إنكم لتستفتوننا استفتاء قوم، كأنا لا نُسأل عما نفتيكم به»(١)؛ لأنه معروفٌ لديه أنه سيُسأل أمام الله - جل وعلا - عما أفتىٰ به؛ لذلك فهو يتصور التبعة.

«وعن محمد بن واسع(٢) **قال: أول من يدعىٰ إلىٰ الحساب الفقهاء**(٣).

وعن مالك أنه كان إذا سئل عن المسألة كأنه واقف بين الجنة والنار»(٤)، يخشىٰ أن يزل فيُقذَف في النار، والإصابة مظنونة.

«وقال بعض العلماء لبعض المفتين: إذا سئلت عن مسألة، فلا يكن همك تخليص السائل، ولكن تخليص نفسِك أولاً»(٥). ونجد بعض المفتين إذا سئل يبحث عن المخارج التي تُخرِج السائلَ من التبعة، فتجده ينظر في الأقوال، من أجل أن يخلص السائل من تبعة قوله أو فعله، مع أن نفسه أولىٰ بالتخليص من السائل.

(١) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٥٦، عن ابن عمر.
(٢) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس، أبو عبد الله، ويقال: أبو بكر، الأزدي، البصري، توفي سنة ١٢٣، وقيل ١٢٧، كان قليل الرواية، ثقة عابدا صالحا، ينظر: سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٩، وتاريخ دمشق لابن عساكر، ٥٦/ ١٣٨.
(٣) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٥٦.
(٤) أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٥٤.
(٥) أخرج الخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٣٥٧ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: قال لي ابن خلدة: «إني أرىٰ الناس قد أحاطوا بك، فإذا سألك الرجل عن مسألة، فلا تكن همتك أن تخلصه، ولكن لتكن همتك أن تخلص نفسك».

«وقال لآخر: إذا سئلت عن مسألة فتفكر، فإن وجدت لنفسك مخرجًا فتكلم، وإلا فاسكت[1].

وكلام السلف في هذا المعنىٰ كثير جدًّا يطول ذكره واستقصاؤه».

(١) أخرج الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٥٩) عن مالك: «كنت أسأل وأنا حدث السن، فمررت بمجلس الأنصار فيه عمر بن خلدة الأنصاري، فقال: «تعال يا مالك: إذا سئلت عن شيء فتفكر فيه، فإن وجدت لنفسك مخرجا فتكلم، وإلا فاسكت».

ومن هذا الباب أيضًا كراهة الدخول علىٰ الملوك والدنوِّ منهم، وهو الباب الذي يدخل منه علماء الدنيا إلىٰ نيل الشرف والرياسات فيها.

وخرَّج الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتىٰ أبواب السلاطين افتُتِن».

وخرج أحمد، وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، وفي حديثه: «وما ازداد أحد من السلطان دنوًّا إلا ازداد من الله بعدًا».

وخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن أناسًا من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرؤون القرآن ويقولون: نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك، كما لا يجتنىٰ من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنىٰ من قربهم إلا الخطايا».

وخرَّجه الطبراني ولفظه: «إن أناسًا من أمتي يقرؤون القرآن، ويتعمقون في الدين، يأتيهم الشيطان يقول: لو أتيتم الملوك فأصبتم من دنياهم واعتزلتموهم بدينكم، ألا ولا يكون ذلك، كما لا يجتنىٰ من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنىٰ من قربهم إلا الخطايا».

وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تعوذوا بالله من جب الحزَن» قالوا: وما جب الحزَن؟ قال: «وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة»، قيل: يا رسول الله، ومن يدخله؟ قال: «القراء المراؤون بأعمالهم».

وخرج ابن ماجه نحوه، وزاد فيه: «وإن من أبغض القراء إلىٰ الله الذين يزورون الأمراء الجوَرة». ويروىٰ من حديث علي عن النبي ﷺ نحوه.

ومن أعظم ما يخشىٰ علىٰ من يدخل علىٰ الملوك الظلمة أن يُصدِّقهم بكذبهم، ويعينَهم علىٰ ظلمهم، ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم، فإن من يريد بدخوله عليهم الشرف والرئاسة - وهو حريص عليهما - لا يُقدم علىٰ الإنكار عليهم، بل ربما حسَّن لهم بعض أفعالهم القبيحة؛ تقرُّبًا إليهم؛ ليحسن موقعه عندهم، ويساعدوه علىٰ غرضه.

وقد خرج الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن عجرة عن النبي ﷺ قال: «سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم علىٰ ظلمهم، فليس مني ولست منه، وليس بواردٍ عليَّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يعنهم علىٰ ظلمهم، ولم يُصدِّقهم بكذبهم، فهو مني وأنا منه، وهو وارد عليَّ الحوض».

وخــرج الإمــام أحـمـد معنىٰ هـذا الـحـديـث مـن حديث حذيفة، وابن عمر، وخبَّاب بن الأرتِّ، وأبي سعيد الخدري، والنعمان بن بشير ﵃.

وقد كان كثير من السلف ينهون عن الدخول علىٰ الملوك لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضًا.

وممن نهىٰ عن ذلـك: عمر بن عبد العزيز، وابـن المبارك، والثوري، وغيرهم من الأئمة.

وقال ابن المبارك: ليس الآمر الناهي عندنا من دخل عليهم، فأمرهم ونهاهم، إنما الآمر الناهي من اعتزلهم.

وسبب هذا: ما يخشىٰ من فتنة الدخول عليهم؛ فإن النفس قد تُخيِّل للإنسان إذا كان بعيدًا عنهم أنه يأمرهم وينهاهم، ويغلظ عليهم، فإذا شاهدهم قريبًا مالت النفس إليهم؛ لأن محبة الشرف كامنة في النفس، والنفس تُحَسِّن له ذلك ومداهنتَهم وملاطفتَهم، وربما مال إليهم وأحبهم، ولاسيما إن لاطفوه وأكرموه، وقَبِلَ ذلك منهم، وقد جرىٰ ذلك لابن طاوسٍ مع بعض الأمراء بحضرة أبيه طاوس، فوبَّخه طاوسٌ علىٰ فعله ذلك.

وكتب سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ إلىٰ عباد بن عباد، وكان في كتابه: «إيـاك والأمـراءَ أن تدنوَ منهم، أو تخالطهم في شيء من

الأشياء، وإياك أن تُخْدَعَ، ويقال لك: لتشفع وتدرأ عن مظلوم، أو تَرُدَّ مظلمة، فإن ذلك خديعةُ إبليسَ، وإنما اتخذها فجَّار القرَّاءِ سُلَّمًا.

وما كفيت من المسألة والفتيا فاغتنم ذلك، ولا تنافسهم.

وإياك أن تكون كمن يحب أن يُعمَل بقوله، أو ينشر قوله، أو يسمع قوله، فإذا تُرك ذلك منه عرف فيه.

وإياك وحبَّ الرئاسة، فإن الرجل يكون حب الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض، لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة.

فتفقَّدْ بقلب، واعملْ بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت والسلام».

[الشرح]

[الدخول على الملوك من أجل الرئاسة والشرف]

يبين المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا آخر من أبواب الحرص علىٰ الشرف بالعلو علىٰ الناس بركوب مطية العلم، والدين، وهو باب الدخول علىٰ الملوك والأمراء؛ لينال الرئاسة بالدخول عليهم، وينال الشرف والعلو بالقرب منهم، فقال:

«ومن هذا الباب أيضًا كراهة الدخول علىٰ الملوك والدنوِّ منهم، وهو الباب الذي يدخل منه علماء الدنيا إلىٰ نيل الشرف والرئاسات فيها». هذا الباب فيه أقوال كثيرة لسلف هذه الأمة وأئمتها، وقد صُنِّف فيه - أيضًا - مصنفات؛ في التحذير من الدخول علىٰ السلاطين وغُشِيِّ مجالسهم؛ لما يترتب علىٰ ذلك من الفتنة بدنياهم، وما يحصل عندهم في الغالب من منكرات ومخالفات، وتحصل بذلك المداهنة ممن لا يستطيع الإنكار عليهم، أما الذي يستطيع الإنكار كما فعله كثير من السلف وعلماء الأمة إلىٰ يومنا هذا، فيدخلون للتغيير والنصح والتوجيه، فلا بأس به، وسيأتي الكلام عليه.

وكل خليفة أو أمير له بطانتان[1]، بطانة خير تأمره بالخير وتعينه عليه، وبطانة سوء تأمره بالشر وتعينه عليه، فإذا خلا مجلسه من بطانة الخير شغل بالصنف الآخر، وحينئذٍ لا تسمع كلمة حق؛ لخلو المجلس من أهل الخير، وإنما يسمع ضدها.

فالكلام المذكور ليس علىٰ إطلاقه، وإن كان الغالب أن كثيرًا من الناس بمن فيهم أهل العلم وطلبة العلم قد يجبن عن الصدع

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما استخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله»، أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب المعصوم من عصم الله (٦٦١١)، والنسائي (٤٢٠٢)، وأحمد (١١٣٤٢).

بالحق عند الظالم من السلاطين، وحينئذ يأثم بمداهنته ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] يرتكب المنكر، ولا يجد من ينكر عليه، فيظن بذلك أنه علىٰ حق.

أما من استعان بالله، وأعانه الله علىٰ إنكار المنكر وفَتْحِ أبواب الخير، فهذا يُطلَب منه أن يغشىٰ هذه المجالس، وينكر عليهم، ويوجههم، وينصحهم، والدين النصيحة، وفي حديث تميم الداري: قلنا: لمن، يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين**»(١)، وهذا لا يتم إلا بالوصول إليهم.

وعليه، فالمقصود أن الكلام جيء به علىٰ الغالب؛ فغالب الناس وعمومهم يتأثرون، ولا يؤثِّرون، وهذا فرع عن العزلة والخلطة، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في الصحيح وغيره بالأمر بالعزلة في آخر الزمان: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمًا، يتبع بها شعف الجبال يفرُّ بدينه من الفتن**»(٢) وهذا حثٌّ علىٰ العزلة،

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إن الدين النصيحة، (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه، وجاء من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الفرار من الفتن، (١٩)، وأبو داود (٤٢٦٧)، والنسائي(٥٠٣٦)، وابن ماجه (٣٩٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وللإمام أبي سليمان الخطابي[١] مصنف في العزلة من أبدع ما كتب في الباب، وجاء في الخلطة أحاديث تحث عليها بنية صالحة، من توجيه للناس وإرشاد لهم، وتعليم لجاهلهم وصبر علىٰ أذاهم[٢]، ولا شك أن مثل هذا لمن يقدر عليه أفضل من العزلة والخلطة، وكلاهما جاءت به النصوص، فتتعين الخلطة علىٰ من كان يستطيع التأثير ولا يتأثر بما يرتكبه الناس من جرائم ومنكرات، والذي لا يستطيع التأثير، بل يتأثر بما عندهم من ذنوب ومعاصٍ ومنكرات، فهذا تتعين عليه العزلة.

ومحافل المسلمين منذ قرون طويلة مشتملة علىٰ المخالفات، تزيد وتنقص في بعض الأقطار والآفاق، فالمسألة بين مد وجزر، أحيانًا يوجَد في هذه الناحية، وهذا الإقليم خير لا يوجد في غيره، وبالعكس، ومن قرأ تاريخ المسلمين، عرف ذلك؛ ولذا يقول بعض شراح البخاري تحت حديث: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم**

(١) هو: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، كان فقيهًا أديبًا محدثًا، له تصانيف، منها: «غريب الحديث»، و«معالم السنن في شرح سنن أبي داود»، و«أعلام السنن في شرح البخاري»، توفي سنة ٣٨٨هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/ ١٤٩، وفيات الأعيان ٢/ ٢١٤.

(٢) إشارة إلىٰ حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**المسلم إذا كان يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم، خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم**»، أخرجه الترمذي، كتاب القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٧)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر علىٰ البلاء (٤٠٣٢)، وأحمد (٥٠٢٢)، وحسنه ابن حجر في الفتح ١٠/ ٥١٢.

غنم»: والمتعين في هذه الأزمان العزلة؛ لاستحالة خلو المحافل من المعاصي والمنكرات[1]. وهذا قالوه في القرن الثامن والتاسع، والله المستعان.

والدخول علىٰ السلاطين داخل فيمن تتعين عليه الخلطة لقدرته علىٰ التأثير، ولا تتم هذه النصيحة لأئمة المسلمين إلا بالوصول إليهم أو بمخاطبتهم بالكتابة، كما فعل سفيان وغيره[2].

والكلام الذي جاء في هذا الفصل من الكتاب وفي غيره من الكتب مما في معناه، وما ألف فيه، ليس علىٰ إطلاقه، والمسألة مسألة نفع وضرر، فالذي ينفع يلزمه أن يغشىٰ هذه المجالس، ولا يتركها للصنف الثاني، وكم من مصيبة وبلية حصلت بسبب بعض بطانة السوء، فجر علىٰ المسلمين الويلات في سائر العصور، ومن أوضحها وأشهرها دخول التتار إلىٰ بغداد؛ بسبب البطانة: كما هو حال ابن العلقمي الرافضي[3]، ولو زوحم من قِبَل الأخيار لقلَّ شره.

(١) ينظر: عمدة القاري ١/ ١٦٣.

(٢) كان لسفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ مواقف ورسائل مع الخلفاء، والأمراء، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ونالته من ذلك شدة. ينظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٤، حلية الأولياء ٧/ ٤٤.

(٣) هو: محمد بن أحمد أبو طالب بن العلقمي، وزير المستعصم، توفي سنة ٦٥٦هـ، كان رافضيًا خبيثًا رديء الطوية علىٰ الإسلام وأهله، مالأ علىٰ الإسلام وأهله هولاكو خان، حتىٰ فعل ما فعل بالإسلام وأهله، ثم ذل علىٰ أيدي التتار الذين مالأهم، وذاق الخزي في الحياة الدنيا. ينظر: تاريخ الإسلام؛ للذهبي ٤٨/ ٢٩٠، البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٦.

أمر الله نافذ، وقدْرُه سابق، لكن ينبغي أن ينظر إلىٰ هذه المسألة بعين الإنصاف، وكم نفع الله بدخول بعض شيوخنا علىٰ الملوك والأمراء، وكم حقن الله بسببهم من الدماء في جهة من الجهات التي تنتسب إلىٰ الإسلام؛ فحكم علىٰ بضعة عشر عالمًا وداعية بالإعدام، وبكلمة من واحد من الشيوخ - رحمة الله عليه - عفي عنهم في ليلة التنفيذ نفسها.

فالكلام ليس علىٰ إطلاقه، لكن علىٰ الإنسان أن يعرف نفسه أوَّلًا، ولا يخاطر بها إلا إذا وثق بقوة دينه، وأنه ممن يستطيع التأثير دون أن يتأثر، فإن وجدها كذلك، فليغشَ هذه الأماكن ويزاحم الأشرار، لكن إذا كان يتأثر ويعرف من نفسه الضعف، فمثل هذا يعتزل.

وقد سألنا شيخنا الشيخ ابن باز قبل ثلاثين سنة: ما العمل الذي تبرأ به ذمة طالب العلم الذي لا يستطيع الوصول إلىٰ الأمراء، والوزراء، والسلاطين، قال: يكتب، قيل له: قد لا يصل الكتاب، قال: يبلغ من يصل إليهم، وبذلك تبرأ ذمته.

ويقال مثل هذا في جوائز الأمراء؛ لما جاء في الصحيح من الأمر بالأخذ إذا أعطاك السلطان من بيت المال من غير طلب ولا استشراف[1]، وهناك قيد جاء في صحيح مسلم: «**فإذا كان ثمنًا**

(١) سبقت الإشارة إليه (ص: ٤٩). وينظر: فتح الباري ٣/ ٣٣٨.

لدينك فدعه»[1]، يعني: إذا غلب علىٰ ظنك أنه يطلب منك شيئًا تتنازل به من دينك فلا تأخذ شيئًا.

وكون الإنسان يتورع ولا يأخذ، هذا باب واسع، لكن جاء الأمر بالأخذ، والمسألة مسألة موازنة.

فلا يجمع العلماء علىٰ السكوت إذا ظهر منكر؛ ولذلك لو سكت الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن لكانت - والعلم عند الله - مقررة إلىٰ الآن، لكنه لما حمل هذا الواجب وتحمله عن الأمة، وصبر علىٰ الضرب والسجن رفعه الله في الدنيا والآخرة، ورفع عن الأمة هذه الغمة.

ولو كان هناك متبوع مشهور، لكنه جبان أو لا يتحمل ضربًا ولا يتحمل شيئًا، ويخشىٰ من فتنة أعظم إذا حصل له ذلك، فهناك عزيمة وهناك رخصة، من يتحمل العزيمة أجره علىٰ الله، والذي لا يستطيع أن يتحمل العزيمة، فله أن يأخذ بالرخصة، وإن خاف أن يترتب علىٰ إنكاره مفسدة أعظم فتركَه، فهذا ممدوح.

ولما بين المصنف أن الدخول علىٰ السلاطين من أجل الرئاسة والشرف مذموم أخذ يسرد الأدلة علىٰ ذلك، فقال:

---

(١) وهذا من قول أبي ذر رضي الله عنه، أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الكانزين للأموال والتغليظ عليهم، (٩٩٢).

«وخـرَّج الإمـام أحمد، وأبـو داود، والترمذي، والنسائي من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا» فإذا جلس بمفرده في البراري والقفار جفا؛ لأن الأخلاق تكتسب بالمخالطة والمعاشرة، والقدوات الحسنة.

«**ومن اتبع الصيد غفل**»؛ لأنه يتبعه من شجرة إلىٰ شجرة، ونحو ذلك، فقد تفوته الصلاة وهو لا يدري؛ فضلًا عن الغفلة عن الذكر.

«**ومن أتىٰ أبواب السلطان افتتن**»[(١)] وهذا هو الشاهد، وقلنا إنه كثير غالب، ووجدت أمثلة رائعة في تاريخ الأمة من المتقدمين والمتأخرين من الذين غَشُوْا هذه المجالس ونفع الله بهم نفعًا عظيمًا.

«وخرج أحمد وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ وفي حديثه: «وما ازداد أحد من السلطان دنوًّا إلا ازداد من الله بعدًا»[(٢)]، فالسلاطين ليسوا علىٰ قلب رجل واحد، والكثير الغالب منهم بسبب ما مكنوا به من الدنيا تكون أمورهم مختلطة، ومنهم: الصالحون الأتقياء، ومنهم: الظلمة الأشقياء، والظالم الغاشم تقال كلمة الحق

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣٦٢)، وأبو داود، كتاب الصيد، باب اتباع الصيد، (٢٨٥٩)، والترمذي، كتاب الفتن، (٢٢٥٦)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي، كتاب الصيد والذبائح، وباب اتباع الصيد، (٤٣٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٦٢)، وأبو داود، كتاب الصيد، باب اتباع الصيد، (٢٨٦٠)، وقال في مجمع الزوائد ٥/ ٢٤٦: «رواه أحمد، والبزار، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح خلا الحسن بن الحكم النخعي وهو ثقة».

عنده، ولو قتل القائل، فهو من أعظم الشهداء: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلىٰ إمام جائر فأمره ونهاه؛ فقتله**»[1].

«**وخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: إن أناسًا من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرؤون القرآن، ويقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك، كما لا يجتنىٰ من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنىٰ من قربهم إلا الخطايا**»[2] حديث ضعيف، والقتاد: علىٰ وزن سحاب: شجر صلب له شوكة كالإبر[3]، واحده: قتادة.

وخرطه[4] من أشق الأمور، وفي المثل: «دونه خرط القتاد»؛ يضرب للأمر دونه مانع[5]، وكانت العرب تهوىٰ الأسماء الدالة علىٰ الخشونة والشدة؛ حتىٰ سموا كلبًا، وجحشًا، وحربًا، ونحو ذلك، ومن هنا اشتق اسم قتادة.

(١) أخرجه الحاكم (٤٩٥٠)، وصححه، من حديث جابر رضي الله عنه، وأعله الذهبي بجهالة حفيد الصفار.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، (٢٥٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه في مصباح الزجاجة ١/ ٣٨ بجهالة عبيد الله بن أبي بردة.

(٣) القاموس المحيط (ص: ٣٠٨).

(٤) وهو: التقشير، تقول: خرطتُّ العودَ: قشرته، وخرطت الورق: حتته، وهو أن تقبض علىٰ أعلاه ثم تمر يدك عليه إلىٰ أسفله. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٣/ ١١٢٢.

(٥) ينظر: مجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٦٥.

«وخرَّجه الطبراني ولفظه: «إن أناسًا من أمتي يقرؤون القرآن، ويتعمقون في الدين، يأتيهم الشيطان يقول: لو أتيتم الملوك فأصبتم من دنياهم واعتزلتموهم بدينكم، ألا ولا يكون ذلك، كما لا يجتنىٰ من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنىٰ من قربهم إلا الخطايا»[1]، وهذا كسابقه ضعيف، وهو بمعناه.

«وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعوذوا بالله من جب الحزَن» قالوا: وما جب الحزَن؟ قال: «وادٍ في جهنم، تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة» قيل: يا رسول الله مَن يدخله؟ قال: «القراء المراؤون بأعمالهم»[2]، وهذا الوعيد أعم من أن يكون القارئ يرائي سلطانًا أو غيره.

«وخرج ابن ماجه نحوه، وزاد فيه: «وإن من أبغض القراء إلىٰ الله الذين يزورون الأمراء الجوَرة»[3]**. ويروىٰ من حديث علي عن النبي ﷺ نحوه»**[4]، ثم بين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الحكمة من هذا، فقال:

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٢٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، (٢٣٨٣)، وقال: «حديث غريب»، وابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، (٢٥٦)، وضعفه ابن عدي في الكامل ٢/ ٢٠٤.

(٣) ينظر: تخريج الحديث السابق.

(٤) أخرجه الطبراني في الدعاء (١٣٩٠)، والبيهقي في البعث والنشور (٤٨١)، وتمام في الفوائد (٤٩٢)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٢٦٣.

[ما يُخشى على من يدخل على الملوك الظلمة]

«ومن أعظم ما يخشىٰ علىٰ من يدخل علىٰ الملوك الظلمة أن يصدقهم بكذبهم، ويعينهم علىٰ ظلمهم ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم، فإن من يريد بدخوله عليهم الشرف والرئاسة وهو حريص عليهما، لا يقدم علىٰ الإنكار عليهم»؛ لأنه إذا أنكر عليهم، وهم ظلمة، وهو يريد شرفًا ورئاسة، فلن يحصل عليهما، وإن طلب الشرف عند الناس بتعريفهم أنه أنكر في مجلس السلطان حتىٰ يرتفع شأنه عندهم، فهذه مراءاة.

«بل ربما حسن لهم بعض أفعالهم القبيحة؛ تقربًا إليهم؛ ليحسن موقعه عندهم، ويساعدوه علىٰ غرضه».

ثم ذكر المؤلف ما يؤيد هذا التعليل، فقال:

«وخرَّج الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن عجرة عن النبي ﷺ قال: «سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم علىٰ ظلمهم، فليس مني ولست منه، وليس بوارد علي الحوض، ومن دخل عليهم، ولم يعنهم علىٰ ظلمهم، ولم يصدقهم بكذبهم، فهو مني وأنا منه، ووارد علي الحوض»[(١)]، حديث ضعيف، وفي وقتنا الحاضر يمكن

(١) أخرجه أحمد (١٨١٢٦)، والترمذي، كتاب الفتن (٢٢٥٩)، وقال «صحيح غريب»، والنسائي، كتاب البيعة، باب من لم يعن أميرًا علىٰ الظلم، (٤٢٠٨)،=

أن يصدقهم بكذبهم، ويعينهم علىٰ ظلمهم، ولو لم يدخل عليهم، بسبب هذه الوسائل الحديثة المسموعة والمرئية، فيقرب القرابين، ويفعل أمورًا قد يتضرر بها في دنياه قبل دينه، نسأل الله العافية.

«وخرَّج الإمام أحمد معنىٰ هذا الحديث من حديث حذيفة(١)**، وابن عمر**(٢)**، وخباب بن الأرت**(٣)**، وأبي سعيد الخدري**(٤)**، والنعمان بن بشير»**(٥)، وهذه شواهد للحديث يتقوىٰ بها.

[النهي عن الدخول على الملوك والأمراء بقصد الأمر بالمعروف]

ثم بدأ المصنف في ذكر أخبار السلف في النهي عن الدخول علىٰ الملوك والأمراء حتىٰ ولو كان بقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال:

«وقد كان كثير من السلف ينهون عن الدخول علىٰ الملوك لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضًا، وممن نهىٰ عن

=والحاكم (٢٦٣)، وابن حبان (٢٧٩)، وقال ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص: ٢١٥): «هذا حديث صحيح».

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٦١)، ورجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ٥/ ٢٤٨.

(٢) أخرجه أحمد (٥٧٠٢)، قال في مجمع الزوائد ٥/ ٢٤٧: «فيه إبراهيم بن قعيس ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٢١٨).

(٤) أخرجه أحمد (١١١٩٢)، وابن حبان (٢٨٦).

(٥) أخرجه أحمد (١٨٣٥٣)، قال في مجمع الزوائد ٥/ ٢٤٧: «فيه راو لم يسم، وبقية رجاله رجال الصحيح».

ذلك: عمر بن عبد العزيز، وابن المبارك، والثوري، وغيرهم من الأئمة»، رحمهم الله، وهذا منهم زيادة في التحري والاحتياط؛ لأنه قد يدخل بهذه النية وتتغير فيما بعد.

«وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس الآمر الناهي عندنا من دخل عليهم فأمرهم ونهاهم، إنما الآمر الناهي من اعتزلهم»[1]، وهذا – لا شك – من باب التحري والاحتياط؛ وإلا فمن غلب علىٰ ظنه، أو آنس من نفسه أنه يستطيع هذا الأمر، فقد يتعين عليه إذا لم يوجد من يقوم به.

وبيَّن المصنف سبب التحذير من الدخول عليهم حتىٰ ولو كان لأمرهم ونهيهم، فقال:

«وسبب هذا ما يخشىٰ من فتنة الدخول عليهم، فإن النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيدًا عنه أنه يأمرهم وينهاهم، ويغلظ عليهم»، والإنسان ربما زَوَّر في نفسه كلامًا عند من هم دون الخلفاء من أصحاب الجاه والمال والشرف، يريد أن ينصحهم، وقد يزوِّر في نفسه سؤالاً لعالم، فإذا وصل عندهم ذاب كل شيء وتبخر، فكيف إذا دخل علىٰ الملوك؟! ولذا قال:

«فإذا شاهدهم قريبًا مالت النفس إليهم؛ لأن محبة الشرف كامنة في النفس له، والنفس تحسن له ذلك، ومداهنتهم وملاطفتهم»،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١/ ٢٨٠.

وهذه المداهنة لا شك في تحريمها، وهي الموافقة علىٰ الباطل، أو كتم الحق في وقت وجوب إظهاره.

[الفرق بين المداهنة والمداراة]

وهناك فرق بين المداهنة والمداراة، فالمداراة هي التي يسمونها المجاملة، فيجامل في بعض الأمور التي لا ضرر فيها، ولا يَرتكب فيها محظورًا، ولا يترك لها واجبًا، فيكون في إطار المستحبات، أو المكروهات، بخلاف المداهنة التي يرتكب فيها المحظور، ويترك فيها المأمور: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، فالمداراة جائزة؛ والنبي ﷺ قال في حق شخص: «**بئس أخو العشيرة**»، فلما دخل ألان له الكلام، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، قلت الذي قلت، ثم ألنت له الكلام؟ قال: «**أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس، اتقاء فحشه**»[(١)]، فهذه مداراة، وليست مداهنة.

[الدخل على الملوك يورث الميل القلبي]

وقد لا يقتصر أمر من دخل علىٰ الملوك بنية أمرهم ونهيهم علىٰ تغيره إلىٰ مداهنتهم، بل الأمر قد يزيد عن ذلك، كما قال المصنف:

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، (٦٠٥٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقىٰ فحشه (٢٥٩١)، وأبو داود (٤٧٩١)، والترمذي (١٩٩٦).

«وربما مال إليهم وأحبهم ولاسيما إن لاطفوه وأكرموه، وقَبِل ذلك منهم»، ذُكِر أن طالبَ علمٍ دخل علىٰ أمير من الأمـراء في مسألة، فلما دخل استقبله الأمير، ووقره علىٰ غير توقع من طالب العلم هذا، حتىٰ قال: «تغيرت أموري لدرجة أني لم أكلمه فيما كنت أريد، ثم بعد ذلك قررت ألا أدخل مرة ثانية؛ لأنني امتحنت نفسي في هذا الموقف فرسبت».

«وقد جرىٰ ذلك لابن طاوس[(١)]؛ مع بعض الأمراء بحضرة أبيه طاوس[(٢)] فوبَّخه طاوس علىٰ فعله ذلك»، كأنه برَّر موقفًا لسلطان، أو لان له السلطان، فمالت نفسه إليه، فوبخه أبوه.

«وكتب سفيان الثوري إلىٰ عباد بن عباد رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)] وكان في كتابه: إياك والأمراء أن تدنو منهم أو تخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك أن تخدع ويقال لك: لتشفع وتدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة، فإن

(١) عبد الله بن طاوس بن كيسان أبو محمد اليماني، توفي سنة ١٣٢، قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية، وأحسنهم خلقًا، ما رأينا ابن فقيه مثله. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٦٧٩، إكمال تهذيب الكمال ٧/ ٤١٢.

(٢) طاوس بن كيسان الأبناوي اليماني، أبو عبد الرحمن، توفي سنة ١٠٥، أحد الأعلام التابعين، وكان ملازمًا لابن عباس رضي الله عنهما. ينظر: وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٩، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٣٨.

(٣) عباد بن عباد أبو معاوية الأزدي، مات ببغداد سنة ١٨١، قال يحيىٰ بن معين: كان رجلاً عاقلًا أديبًا حسن الهيئة. ينظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩٤، وإكمال تهذيب الكمال ٧/ ١٧٣.

ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فجار القراء سُلَّمًا»[١]، يعني: لاقتناص الدنيا، نسأل الله العافية.

[حب العالم سؤاله وانتشار قوله]

«وما كفيت عن المسألة والفتيا فاغتنم ذلك»، وذلك كما تقدم، فإذا وجد من يقوم بواجب إجابة السائل، وتوجيه الجاهل؛ اغتنم ذلك، والمسألة فرض كفاية.

«ولا تنافسهم، وإياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله، أو يُنشَر قوله، أو يسمع قوله» وهذه آفة؛ أن يحب العالم انتشار قوله، والعمل به، فإذا أفتىٰ جمع من أهل العلم، فلماذا تحب أن يُذكَر اسمك معهم؟ فالمطلوب إظهار الحق، سواء كان علىٰ يدك أم يد غيرك.

يقول الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «ما ناظرت أحداً قطّ علىٰ الغَلَبة؛ وبِوُدِّي أن جميع الخَلْق تعلموا هذا الكتاب - يعني: كتبه - ولا يُنسب إلي شيء منه»[٢].

«فإذا ترك ذلك منه عرف فيه»، فلو صدرت فتوىٰ جماعية، ثم سقط اسم واحد منهم في الكتابة، أو في الطباعة، ماذا يقول في نفسه؟

(١) أخرج الكتاب كاملا أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٧٦.
(٢) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي ١/ ١٧٣.

بعضهم يغضب إن نسيت كتابة اسمه علىٰ فتوىٰ كان له فيها رأي، وهذا من جنس الخلُق المذموم الذي ذكره المصنف.

«وإياك وحب الرئاسة، فإن الرجل يكون حب الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة»، فكثير من الناس يكون الشرف أحب إليه من المال؛ ولذلك يبذل الأموال؛ لينال الشرف والرئاسة، ويبذل الرشاوىٰ الطائلة؛ من أجل أن يصل إلىٰ منصب، نسأل الله العافية.

«وهو باب غامض دقيق خفي لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة»، أي: الحذاق والمتبصرين في الأمور.

«فتفقَّد بقلب، واعمل بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت، والسلام»، أي: تفقد بقلب واعٍ، واعمل بنية خالصة صالحة؛ ففي آخر الزمان يمر المسلم بصاحب القبر ويتمنىٰ أنه مكانه[1]،نعوذ بالله من الفتن، وفي الدعاء: «**وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**»[2].

---

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه**». أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتىٰ يغبط أهل القبور، (٧١١٥)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتىٰ يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنىٰ أن يكون مكان الميت من البلاء، (١٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة ص، (٣٢٣٣)، وأحمد (٣٤٨٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وجاء من حديث معاذ، وثوبان، وعبد الرحمن بن عايش الحضرمي ﷺ، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار ٢/ ٣١٧.

ومن هذا الباب أيضًا كراهة أن يُشهِر الإنسان نفسه للناس بالعلم والزهد والدين، أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات؛ ليزار، وتلتمس بركته ودعاؤه، وتقبل يدُهُ، وهو محب لذلك، ويقيم عليه، ويفرح به، أو يسعىٰ في أسبابه.

ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة، منهم: أيوب، والنخعي، وسفيان، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين، وكذلك الفضيل، وداود الطائي، وغيرهما من الزهاد والعارفين، وكانوا يذمون أنفسهم غاية الذم، ويسترون أعمالهم غاية الستر.

دخل رجل علىٰ داود الطائي فسأله: ما جاء به؟ فقال: جئت أزورك، فقال: أما أنت فقد أصبت خيرًا؛ حيث زرتَ في الله، ولكن أنا أنظر ماذا لقيت غدًا إذا قيل لي: من أنت حتىٰ تزار؟! من الزهاد أنت؟! لا والله. من العباد أنت؟! لا والله. من الصالحين أنت؟! لا والله. وعدد خصال الخير علىٰ هذا الوجه، ثم جعل يوبخ نفسه فيقول: يا داود كنت في الشبيبة فاسقًا، فلما شبتَ صرتَ مرائيًا، والمرائي أشر من الفاسق.

وكان محمد بن واسع يقول: لو أن للذنوب رائحةً ما استطاع أحد أن يجالسني.

وكان إبراهيم النخعي إذا دخل عليه أحد وهو يقرأ في المصحف غطَّاه.

وكان أويس وغيره من الزهاد إذا عُرفوا في مكان ارتحلوا عنه.

وكان كثير من السلف يكره أن يُطلب منه الدعاء، ويقول لمن يسأله الدعاء: أمنِّي أنا؟!

وممن روي عنه ذلك عمر بن الخطاب، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، وكذلك مالك بن دينار، وكان النخعي يكره أن يُسألَ الدعاء.

وكتب رجل إلىٰ أحمد يسأله الدعاء، فقال أحمد: إذا دعونا نحن لهذا، فمن يدعو لنا؟!

وَوُصِفَ بعضُ الصالحين واجتهاده في العبادة لبعض الملوك، فعزم علىٰ زيارته، فبلغه ذلك، فجلس علىٰ قارعة الطريق يأكل، فوافاه الملك وهو علىٰ تلك الحالة، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وجعل يأكل أكلاً كثيرًا، ولا يلتفت إلىٰ الملك، فقال الملك: ما في هذا خير ورجع، فقال الرجل: الحمد لله الذي رد هذا عني وهو لائم.

وهذا باب واسع جدًّا.

وهاهنا نكتة دقيقة، وهي: أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس، يريد بذلك أن يُري أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم

ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبَّه عليه السلف الصالح.

قال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: كفىٰ بالنفس إطراءً أن تذمها علىٰ الملأ، كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سَفَهٌ.

[الشرح]

[حب الشهرة والسعي في أسبابها]

ذكر المصنف ذم الحرص علىٰ الشرف وأثره علىٰ الدين إجمالًا، ثم فصل فذكر من أبوابه: الجرأة علىٰ الفتيا، والدخول علىٰ السلاطين، وحب التسلط علىٰ الناس والمدح منهم بما معه من ظاهر الدين، وجمع المال به، وما كان عليه السلف من الحذر من الرياء، والهرب من الشهرة، فقال:

«**ومن هذا الباب أيضًا كراهة أن يشهر الإنسان نفسه للناس بالعلم والزهد والدين، أو بإظهار الأعمال، والأقوال، والكرامات؛ ليزار وتلتمس بركته ودعاؤه وتقبيل يده، وهو محب لذلك، ويقيم عليه ويفرح به، أو يسعىٰ في أسبابه**»، ولا شك أن هذا من أظهر صور الرياء؛ أن يُظهر للناس ما عنده من الخير الخفي، فكيف إذا كان مدعيًا ذلك، وهو يحب ذلك، فإذا لم يحدث هذا «**يسعىٰ في**

أسبابه»، فلو قدر أنه ما جرؤ أن يظهر شيئًا، فيوحي إلىٰ غيره أن يظهره، نسأل الله العافية.

ثم بيَّن المصنف كراهة السلف لهذا الأمر، فأخذ يسرد أقوالهم، وأخبارهم فيه قائلًا:

«**ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة**»، فإذا عرف منه شيء غيَّره؛ فإذا صام مثلًا، دهن وجهه وشفتيه ويديه كأنه آكل[1].

«**منهم أيوب**» هو: أيوب السختياني[2].

«**والنخعي، وسفيان**» الثوري، فإذا أطلق، فهو المشهور به، وهو أشهر من سفيان بن عيينة، وإن كان الثاني ليس ببعيد منه.

«**وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين**» هؤلاء علماء، وفي الوقت نفسه أهل ورع وزهد وعبادة.

---

(١) أخرج في الحلية ٥/ ٤١ عن منصور بن المعتمر، أنه «صام ستين سنة، يقوم ليلها، ويصوم نهارها، وكان يبكي، فتقول له أمه: يا بني، قتلت قتيلًا؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصبح كحل عينيه، ودهن رأسه، وفرق شقتيه وخرج إلىٰ الناس».

(٢) أيوب بن أبي تميمة، كيسان السختياني، أبو بكر، البصري، من صغار التابعين، ومن كبار العلماء، توفي سنة ١٣١، قال مالك: كنا ندخل علىٰ أيوب السختياني، فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكىٰ حتىٰ نرحمه. ينظر: سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥، الطبقات الكبرىٰ؛ لابن سعد ٧/ ١٨٣.

«وكذلك الفضيل[(١)]، وداود الطائي[(٢)] وغيرهما من الزهاد والعارفين»، يعني: وإن كانوا في المرتبة العلمية أقل ممن سبقهم، فإنه يريد أن يذكر الأصناف من أهل العلم وغيرهم - رحمهم الله -.

[ذمُّ النفس وحكم المبالغة فيه]

«وكانوا يذمون أنفسهم غاية الذم، ويسترون أعمالهم غاية الستر.

دخل رجل علىٰ داود الطائي رَحِمَهُ اللهُ فسأله: ما جاء به؟ فقال: جئت أزورك، فقال: أما أنت فقد أصبت خيرًا حيث زرت في الله، ولكن انظر ماذا لقيتُ غدًا إذا قيل لي: من أنت حتىٰ تزار؟! أمن الزهاد أنت؟! لا والله، من العباد أنت؟! لا والله، من الصالحين أنت؟! لا والله، وعدَّد خصال الخير علىٰ هذا الوجه، ثم جعل يوبِّخ نفسه ويقول: يا داود كنت في الشبيبة فاسقًا، فلما شبت صرت مرائيًا، والمرائي أشر من الفاسق»[(٣)]، إنّ ازدراء النفس، ومقتها مطلوب، وهو نوع من التواضع، لكن أحيانًا يفهم منه السامع خلاف مقصد هذا المزدري.

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي، قدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث من منصور بن المعتمر وغيره. ثم تعبد وانتقل إلىٰ مكة فنزلها إلىٰ أن مات بها في أول سنة سبع وثمانين ومائة، وكان ثقة ثبتًا فاضلًا عابدًا ورعًا كثير الحديث. ينظر: الطبقات الكبرىٰ ٦/ ٤٣، سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٢١.

(٢) أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي، توفي سنة ١٦٠، أو ١٦٥، كان ممن شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه وغيره من العلوم، ثم اختار بعد ذلك العزلة وآثر الانفراد والخلوة، فلزم العبادة واجتهد فيها إلىٰ آخر عمره. ينظر: تاريخ الإسلام؛ للذهبي ٤/ ٣٥٧، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٥٩.

(٣) ذكره ابن الملقن في طبقات الأولياء (ص: ٢٠١).

وأحيانًا يكون الأمر فيه نوعَ مبالغةٍ وقربٍ من القنوط؛ كأن يتعبد شخص سبعين سنة، وهو في ذلك كله لا يسأل الله الجنة، وإنما يكتفي بالتعوذ من النار ويقول: «الجنة؟ ما أنا بكفء للجنة، لكن يكفيني أن أنجو من النار»، فمثل هذا إلىٰ القنوط أقرب، وليس هذا من هدي المصطفىٰ ﷺ الذي سأل الجنة وأمر بسؤال الجنة، بل أمر بسؤال الفردوس(١).

ويقابل هذا الشخص من يوسِّع باب الرجاء، ويرىٰ من نفسه أنه فعل ما لم يفعله المتقدمون والمتأخرون؛ فإذا جلس في المسجد وقرأ جزءًا وتحرك الباب ظنهم الملائكة جاؤوا ليسلموا عليه، وهدي المصطفىٰ ﷺ التوسط لا يأس ولا قنوط، ولا أمن من مكر الله.

«وكان محمد بن واسع يقول: لو أن للذنوب رائحة ما استطاع

(١) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقًا علىٰ الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها»**، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: **«إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة - أراه - فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»** أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، (٢٧٩٠)، وجاء من حديث معاذ، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما.

أحد أن يجالسني»[(١)]، وفي أرجوزة أبي العتاهية التي تشتمل على الحكم الكثيرة حتى قالوا: إن فيها أربعمائة حكمة قال:

لَتَمُوتَنَّ ولوْ
عُمِّرْتَ ما عُمِّرَ نوح

إلى أن قال:

لطف الله بنا
أن الخطايا لا تفوح[(٢)]

يعني ليس لها رائحة، وهذا من لطف الله - جل وعلا-، وفي نونية القحطاني[(٣)]:

واللهِ لو علموا قبيحَ سَرِيرَتِي
لأبَى السَّلامَ عليَّ مَن يلقاني[(٤)]

(١) أخرجه في الحلية ٢/ ٣٤٩.
(٢) هما بيتان من قصيدة لأبي العتاهية صدرها: خانك الطرف الطموح. ينظر: مجاني الأدب في حدائق العرب ٤/ ٢٨.
(٣) هو: محمد بن صالح بن محمد أبو عبد الله القحطاني المعافري الأندلسي، توفي ببخارى سنة ٣٨٣، من مؤلفاته القصيدة النونية، ينظر: تاريخ علماء الأندلس ٢/ ٩١، ٩٢، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥٣/ ٢٧٠، والأنساب للسمعاني ١٠/ ٣٤٥.
(٤) وهو البيت الثامن عشر منها.

«وكان إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا دخل عليه أحد وهو يقرأ في المصحف غطاه»[(١)]، إنّ القراءة في المصحف مرجَّحة علىٰ القراءة من الحفظ عند أكثر العلماء[(٢)]، لكن قد يترتب عليها أن يُرىٰ وهو يقرأ، أما القراءة من الحفظ فيحصل بها الأجر المرتَّب علىٰ القراءة، وهي أقرب إلىٰ السر والخفاء؛ ولذا فإن إبراهيم النخعي وهو من أئمة وسادات التابعين إذا دخل عليه وهو يقرأ في المصحف غطَّاه.

«وكان أويس رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من الزهاد إذا عرفوا في مكان ارتحلوا عنه»، أويس هو ابن عامر القَرَني[(٣)] الذي جاءت منقبته في صحيح مسلم، وأُمر عمر أن يطلب منه الاستغفار، والقصة في الصحيح[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٢١٢١)، والبيهقي في الشعب (٢٠٤١)، قال إبراهيم في تعليل ما فعل: «لا يراني هذا أني أقرأ فيه كل ساعة»، وروي مثله عن الربيع بن خيثم.

(٢) قيل: إن قراءة القرآن في المصحف أفضل من القراءة من حفظه؛ لأنها تجمع القراءة والنظر في المصحف، وهو عبادة أخرىٰ، وهذا مشهور عن السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال النووي: «وهذا ليس علىٰ إطلاقه، بل إن كان القارئ من حفظه يحصل له من التدبر والتفكّر وجمع القلب والبصر أكثر مما يحصل من المصحف، فالقراءة من الحفظ أفضل، وإن استويا، فمن المصحف أفضل، وهذا مراد السلف». ينظر: الأذكار (ص: ١٠٧)، المجموع ٢/ ١٧٧.

(٣) هو: أُوَيْس بن عامر بْن جَزْء بْن مالك المُرادِي القَرَني الزاهد، سيد التابعين، أبو عمرو، استشهد يوم صفين مع علي، سكن الكوفة، وليس له حديث مسند، تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٣١٣، الطبقات الكبرىٰ ٦/ ٢٠٤.

(٤) إشارة إلىٰ حديث أسير بن جابر، أن أهل الكوفة وفدوا إلىٰ عمر، وفيهم رجل ممن كان يسخر بأويس، فقال عمر: هل هاهنا أحد من القرنيين؟ فجاء ذلك الرجل فقال عمر: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «**إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له أويس**،=

كان أويسٌ رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من الزهاد يكرهون الشهرة، فإذا عرفوا في مكان انتقلوا عنه.

أما الآن فالعالم أو طالب العلم يغشىٰ مكانًا واحدًا يعرف فيه من أجل أن يتردد عليه الناس، ويقضي حوائجهم، أو يجيب عن أسئلتهم ومشاكلهم، والأمور بمقاصدها، لكن هذا فرع عما تقدم في مسألة تدافع الفتيا ووجود من يكفيه، فإنه يفرح بمن يتحمل عنه المسؤولية.

«وكان كثير من السلف يكره أن يُطلَب منه الدعاء، ويقول لمن يسأله الدعاء: أمني أنا؟!»، أو يقول: أي شيء أنا؟! كما في النسخة الأخرىٰ.

«وممن روي عنه ذلك عمر بن الخطاب[(١)]، وحذيفة رضي الله عنهما»[(٢)] لكن طلب عمر من أويس القرني أن يدعو له، وأن يستغفر له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علىٰ جلالة قدره.

=**لا يدع باليمن غير أم له، قد كان به بياض، فدعا الله فأذهبه عنه، إلا موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»**. أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم، باب من فضائل أويس القرني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (٢٥٤٢).

(١) عزاه الشاطبي في الاعتصام ٢/ ٣٣١، لابن جرير في التهذيب، وفيه: كتب رجل إلىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني أصبت ذنبًا فادع الله لي». فكتب إليه عمر: «إني لست بنبي، ولكن إذا أقيمت الصلاة فاستغفر الله لذنبك».

(٢) أثر حذيفة أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٧٧ بسنده عن زيد بن وهب، قال: جاء رجل إلىٰ حذيفة فقال: استغفر لي، فقال: «لا غفر الله لك، إني لو استغفرت لهذا الآتي بسيئاته، فقال: استغفر لي حذيفة ، أتحب أن يجعلك الله مع حذيفة؟ اللهم اجعله مع حذيفة».

«**وكذلك مالك بن دينار**[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **وكان النخعي يكره أن يُسأل الدعاء، وكتب رجل إلىٰ أحمد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يسأله الدعاء فقال: إذا دعونا نحن لهذا، فمَن يدعو لنا؟!**»[2] كل هذا من باب التواضع وهضم النفس، وإلا فهؤلاء خيار ترجىٰ إجابة دعوتهم إذا دعـوا لمن سألهم، والملَك يقول: «لك بمثله»[3]، إذا كان في ظهر الغيب فيحصل الخير للداعي والمدعو له، لكن ما حكاه المؤلف عن السلف في الآثار المتقدمة، فهو من باب الزيادة في هضم النفس، وقد عرفوا بذلك.

«**ووصف بعض الصالحين واجتهاده في العبادة لبعض الملوك فعزم علىٰ زيارته، فبلغه ذلك**»، أي: بلغ هذا الرجل الصالح أن الملك سيزوره.

«**فجلس علىٰ قارعة الطريق يأكل**»؛ ليظهر أنه ليس بذي مروءة، ولا يستحق الزيارة، وأنه إلىٰ الغفلة أو ما هو أشد من ذلك أقرب.

---

(١) أبو يحيىٰ مالك بن دينار البصري، توفي سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة بالبصرة. معدود في ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، وكان من العباد الزهاد. ينظر: وفيات الأعيان ٤/ ١٤٠، وسير أعلام النبلاء، ٥/ ٣٦٢.

(٢) قول النخعي بنحوه في العلم لأبي خيثمة (١٥٩)، وقول أحمد في الآداب الشرعية ٢/ ١٣، ومناقب الإمام أحمد (ص:٣٦٨).

(٣) إشارة إلىٰ حديث أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل**». أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، (٢٧٣٢)، وأبو داود (١٥٣٤)، وابن ماجه (٢٨٩٥)، وجاء من حديث عبد الله بن عمرو.

«فوافاه الملك وهو علىٰ تلك الحالة، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وجعل يأكل أكلاً كثيرًا ولا يلتفت إلىٰ الملك» يأكل بشره ونهم؛ من أجل أن يقول الملك: هذا لا خير فيه، وهو ما حدث:

«فقال الملك: ما في هذا خير ورجع، فقال الرجل: الحمد لله الذي رد هذا عني وهو لائم»، فكثير من السلف عند زيارة الملوك تتغير أحوالهم، وقد يتصرفون تصرفات تحط من قيمتهم في نظر هذا الزائر، ولكن مع ذلك ينصحونهم[1].

«وهذا باب واسع جدًا».

[ذمُّ المرء نفسه طلباً لمدحه والثناء عليه]

ثم بين المصنف مدخلًا من مداخل الرياء في هذا الأمر، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

«وهنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرىٰ أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم، ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء»، وهو أن يتحدث عن نفسه نافيًا أن تكون صالحة؛ ليقال: متواضع. وهذا باب دقيق ينبغي التفطن له.

---

(١) وفي ترجمة الثوري من الجرح والتعديل ١/ ١٠٦ بسنده عن الشافعي يقول: دخل سفيان الثوري علىٰ أمير المؤمنين، فجعل يتجان عليهم - أي: يظهر الجنون - ويمسح البساط ويقول: ما أحسنه، ما أحسنه، بكم أخذتم هذا؟ ثم قال: البول، البول، حتىٰ أخرج. قال أبو محمد: قلت: يعني: أنه احتال بما فعل ليزهدوا فيه فيتباعد منهم ويسلم من شرهم. وينظر: أخبار القضاة ١/ ٢٦.

والأمر منوط بالمقاصد، والله أعلم بالنوايا، ولكن علىٰ الإنسان أن يكون علىٰ حذر.

وهذا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر طبقات الناجين، وأنهم المقربون والأبرار والمخلِّطون، وأن أرفعهم درجة المقربون، شرح برنامج الأبرار، وما يصنعونه من أعمال صالحة من بداية اليوم إلىٰ نهايته، ثم أراد أن يشرح حال المقربين فقال: «وأما السابقون المقربون: فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة»[1]، وهو من العباد، فنفىٰ عن نفسه مرتبة المقربين، ولم ينفِ مرتبة الأبرار.

وأيٌّ منا لو قيل له: من أي طبقة أنت؟ لا بد أن يقول: من الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، وهذا واقعنا، فمع وجود خير كثير؛ إلا أنَّا كثيرو الخطايا.

فعلىٰ المسلمِ الحذرُ من ذمِّ نفسِهِ مريدًا بذلك إطراءها.

«قال مطرف بن عبد الله بن الشخير[2]: كفىٰ بالنفس إطراءً أن يذمها علىٰ الملأ، كأنك تريد بذمها زينها، وذلك عند الله سفه»؛ لأنه يخادع الله سبحانه.

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٢٠٥).

(٢) هو: مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي، أبو عبد الله الحرشي، العامري، البصري، من كبار التابعين، وكان ثقة، له فضل، وورع، وعقل، وأدب، مات سنة ٨٦. ينظر: طبقات ابن سعد ٧/ ١٠٣، وسير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٧.

فصل

وقد تبين بما ذكرنا أن حب المال والرئاسة، والحرص عليهما يفسد دين المرء حتىٰ لا يبقىٰ منه إلا ما شاء الله، كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

وأصل محبة المال والشرف من حب الدنيا، وأصل حب الدنيا اتباع الهوىٰ.

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ: من اتباع الهوىٰ: الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها: حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف: استحلال المحارم.

وهذا كلام حسن، فإنه إنما عتب علىٰ صاحب المال والشرف الرغبة في الدنيا، وإنما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع الهوىٰ؛ لأن الهوىٰ داع إلىٰ الرغبة في الدنيا وحب المال والشرف فيها، والتقوىٰ تمنع من اتباع الهوىٰ وتَـرْدَعُ عن حب الدنيا، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

وقد وصف الله تعالىٰ أهل النار بالمال والسلطان في مواضع من كتابه، فقال تعالىٰ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ **[الحاقة:٢٥-٢٩].**

[الشرح]

[أصل حبِّ الدنيا اتباع الهوى]

لما فرغ المصنف من بيان الحرص علىٰ المال، والشرف، وما فيهما من كلام، بيَّن أن أصل الركون إليهما هو اتباع الهوىٰ، فقال:

«**وقد تبين بما ذكرنا أن حب المال والرئاسة، والحرص عليهما يفسد دين المرء حتىٰ لا يبقىٰ منه إلا ما شاء الله كما أخبر بذلك النبي ﷺ**»، يعني: في حديث «ما ذئبان جائعان».

«**وأصل محبة المال والشرف من حب الدنيا**»، حب المال والشرف من فروع حب الدنيا.

«**وأصل حب الدنيا اتباع الهوىٰ**»؛ لأن الإنسان لو ترك هواه، وكان هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ لآثر الآخرة علىٰ الدنيا.

«قال وهبُ بن منبِّه[1]**: من اتباع الهوىٰ الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم»**[2]، فإذا أشرب قلبه حب المال، فإنه سوف يرتكب الوسائل المحرمة؛ لكسب المال وجمعه ولا بد، وكذلك الشرف والجاه؛ لأنه سيبذل لنيلهما الوسائل المحرمة، ومنها ما يكون بذلاً لشيء من دينه في مقابل هذا الشرف والجاه. ويصل الأمر ببعضهم إلىٰ استحلال الحرام، وهو أشد.

«وهذا كلام حسن، فإنه إنما عتب علىٰ صاحب المال والشرف، الرغبة في الدنيا»، ولولا الرغبة في الدنيا لما أحب المال، ولولا الرغبة في الدنيا لما أحب الشرف.

قد يقول قائل: أنا أحب المال من أجل أن أوسع علىٰ الناس، ومن أجل أن أبذل في وجوه الخير، وأن أصنع بمالي مثل ما صنع فلان المحسن، ويكون له مثل أجره فنقول: هذا يوجد، لكن هل هذا هو الكثير الغالب؟

---

(١) هو: وهب بن منبه بن كامل بن سيج، بن ذي كبار، أبو عبد الله الأبناوي، اليماني، الذماري، الصنعاني، ثقة من كبار التابعين، توفي سنة ١١٠، وقيل ١١٣، وقيل ١١٤، كان علىٰ قضاء صنعاء. ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ٦٣/ ٣٦٦، تاريخ الإسلام ٤/ ٥٤٤.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٣/ ٣٩٣.

وكثير من طلاب العلم يسأل ويقول: هل يدخل في حب المال وفي تقديم الدنيا علىٰ الآخرة طلبُ الإمامة في المسجد، وطلب الخطابة؟

فنقول: إذا كان يقصد بذلك ألا تفوته الصلاة، بل ولا تكبيرة الإحرام، وأن يحافظ علىٰ حفظه للقرآن صار من أمور الدين، وإن كان قصده المكافأة، وما يصرف له من بيت المال، فهذا من حب الدنيا.

ثم استدل المصنف لكون الهوىٰ طريق الهلاك، ولكون التقوىٰ طريق النجاة، فقال:

«وإنما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع الهوىٰ؛ لأن الهوىٰ داعٍ إلىٰ الرغبة في الدنيا، وحب المال والشرف فيها، والتقوىٰ تمنع من اتباع الهوىٰ، وتَرْدَعُ عن حب الدنيا»، فالتقوىٰ التي هي في الأصل وقاية من عذاب الله، ومما يقرِّب إليه، تمنعك من هذا كله، وتردع عن حب الدنيا.

«قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]» وواقع الناس لا يحتاج إلىٰ شرح؛ فالطغيان بلغ إلىٰ حد لا يخطر علىٰ قلب المصنف، ولا من قبله.

قال بعض السلف: من وضع علىٰ مائدته ثلاثة ألوان من الطعام فقد طغىٰ(١).

(١) القائل هو يحيىٰ بن أبي كثير، كما في تفسير القرطبي ١٩/ ٢٠٧.

هذا هو الطغيان عندهم، لكن اليوم لم يقتصر الناس علىٰ ذلك، فأقل الناس عيشة يضع أكثر من هذا، والآن الموائد عند الكبار تجبىٰ إليها الأطعمة من القارات الست، وتنقل بالطائرات.

ثلاثة ألوان من الطعام: تمر ولبن وقرص من البر، هذه ثلاثة ألوان، لكن الطغيان أعم من ذلك، وهو درجات.

هذا حال من طغىٰ.

أما من خالف هواه:

«﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات:٤٠]»، خاف مقام ربه في السر والعلن.

«﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠]»، يعني: كفَّ نفسه عن اتباع الهوىٰ، وارتكاب المحرمات.

«﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤١]»، هي المأوىٰ والمصير، أولئك يصيرون إلىٰ النار، وهؤلاء يصيرون إلىٰ الجنة.

[أهل العلو بالمال والشرف من أهل النار]

ثم دلل المصنف علىٰ أن أهل العلو بالمال، والشرف من أهل النار، فقال:

«**وقد وصف الله تعالىٰ أهل النار بالمال والسلطان في مواضع من كتابه؛ فقال تعالىٰ** ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ [الحاقة:٢٥]» هؤلاء هم أهل النار.

«﴿ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦]»، أي: أنه عندما يأخذ في الآخرة كتابه بشماله فسيقول: ليتني لم أوت كتابي، ولم أدر ما حسابي، وذلك كالطالب إذا كان رديئًا في دراسته، ودرجاته قليلة، أو رسب، فهل يذهب بشهادته إلىٰ أهله ليفتخر بها؟! بل ربما يمزقها ويقول لأهله: الشهادات لم تسلم بعد.

«﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ [الحاقة: ٢٧]»، يود ألا يكون هناك بعث فيحاسب، وتكون موتته الأولىٰ هي القاضية.

«﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٨]»، هو صاحب أموال، لكنها لم تنفعه بشيء لما لقي ربه.

«﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة:٢٩]»، فهل نفع هذا المال والسلطان؟ لا. فالمال والسلطان إنما ينفعان إذا استعملا فيما يرضي الله - جل وعلا- وفيما ابتغي به وجه الله.

واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو علىٰ أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي، الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه، وانحطاط العبد وسفوله وبعده عن الله، وطرده عنه، فهذا العلو الفاني الذي يُذَم وهو العتو والتكبر في الأرض بغير الحق.

وأما العلو الأول والحرص عليه، فهو محمود؛ قال الله تعالىٰ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة».

وقال وهيب بن الورد: «إن استطعت ألا يسبقك إلىٰ الله أحد، فافعل».

وقال محمد بن يوسف الأصبهاني العابد: «لو أن رجلاً سمع برجل، أو عرف رجلاً أطوع لله منه فانصدع قلبه، لم يكن ذلك بعجب».

وقال رجل لمالك بن دينار: «رأيت في المنام مناديًا ينادي: أيها الناس، الرحيلَ، الرحيلَ، فما رأيت أحدًا ارتحل إلا محمد بن واسع، فصاح مالك وغشي عليه».

ففي درجات الآخرة الباقية يشرع التنافس وطلب العلو في منازلها، والحرص علىٰ ذلك بالسعي في أسبابه، وألا يقنع الإنسان منها بالدُّون مع قدرته علىٰ العلو.

وأما العلو الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبَه غدًا حسرة وندامة، وذلة وهوانًا وصغارًا، فهو الذي يشرع الزهد فيه والإعراض عنه.

[الشرح]

[حب الرفعة والعلو]

يبين المصنف هنا أن المنافسة في العلو إنما ينبغي أن تكون في العلو الأخرَوِي، لا العلو الدنيَوِي ، فقال:

«**واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو علىٰ أبناء جنسها، ومن هذا نشأ الكبر والحسد**»، وهذه جبلة في قلوب الناس ما لم يروِّض الإنسان نفسه؛ ولذلك لا يتصور السواد الأعظم من الناس ولا يدركون تمامًا معنىٰ قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١)؛ لأنه مجبول علىٰ أن يترفع علىٰ غيره فكيف يحب لهم ما يحب لنفسه؟!

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من خصال الخير (٤٥)، والترمذي (٢٥١٥)، والنسائي (٥٠١٦)، وابن ماجه (٦٦)، من حديث أنس رضي الله عنه.

الكثير صرح بأن هذا غير ممكن؛ لأنه يؤنس من نفسه، ويعرف من نفسه أنه مستحيل، محتجًّا بما ورد في القرآن والسنة من طلب المنافسة والمسارعة والمسابقة وأن معنىٰ: أنك تنافس: أن تسبق وتسارع؛ لتتقدم علىٰ غيرك، فكيف يجتمع هذا ويتوافق مع أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك؟ علما أن جميع النصوص صحيحة قطعية ولا أحد يشكك في ثبوتها.

فتصور الأمر فيه صعوبة جدًا، لكن العلماء يقولون: صاحب القلب السليم يتصوره، ويسهل عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، أما غيره، فلا.

هذا هو العلو الفاني الدنيوي، تحبه النفس، وتسعىٰ في تحصيله، والمنافسة من أجله؛ إلا أن هناك علوًا آخر في الباقية، وهو الذي تجري فيه المنافسة بحق، وهو ما ذكره المصنف شارحًا ومستدلًا، فقال:

«ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي، الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه، وانحطاط العبد وسفوله، وبعده عن الله، وطرده عنه. فهذا العلو الفاني الذي يذم، وهو العتو والتكبر في الأرض بغير الحق»، إن الفاني هو الذي مدته تنتهي بزوال الدنيا، فلو عاش من أول حياته إلىٰ آخرها في هذا الشرف، وهذا المال، وهذا العلو، وهذا التكبر،

فنهايته قريبة، حتىٰ ولو كان من الأمم السابقة الذين كانوا يعيشون مئات السنين، فله نهاية قريبة؛ لأن مدة الدنيا بالنسبة لمدة الآخرة كلا شيء؛ ولذلك جاء في الحديث: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر علىٰ معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة**»(١) وذلك أنه ﷺ لم يقل في جزاء من نفس كربة أخيه: «مِن كرب الدنيا والآخرة»، مثلما قال فيمن يسر وستر: «**يسر الله عليه في الدنيا والآخرة**»، و«**ستره الله في الدنيا والآخرة**»؛ لأن كرب الدنيا لو صارت في حياة المرء من مولده إلىٰ مماته كانت كلا شيء بالنسبة لكربة واحدة من كرب يوم القيامة.

«وأما العلو الأول والحرص عليه فهو محمود؛ قال الله تعالىٰ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]»، إن العلو في الدين والحرص عليه أمر محمود، كما قال الله تعالىٰ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فإذا كانت المنافسات في أمور الدنيا، وفي علوم الدنيا ترصد لها الجوائز والصلات، فما بالك بالباقية، وكيف تكون جوائزها؟! إنها العلو في الآخرة، وفي هذا ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر، (٢٦٩٩)، وابن ماجه (٢٢٥)، والترمذي (١٤٢٥)، وجاء من حديث ابن عمر، ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهما.

[اهتمام السلف بالعلو الباقي]

ولقد اهتم السلف بهذا العلو، وحرصوا علىٰ تحصيله، وندبوا إلىٰ المنافسة فيه، وهو ما ذكره المصنف، فقال:

«وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة »[(١)]، في سوق من أسواق المسلمين قبل أربعين سنة، كانت هناك منافسة شديدة علىٰ البيع والشراء، وكانوا يحرصون علىٰ بدء العمل في التجارة من طلوع الشمس إلىٰ غروبها بدون استثناء، ولهث وتعب شديد، وأعرف واحدًا منهم اختل حفظه للقرآن بسبب تلك المنافسة، فأغلق الدكان سنة؛ ليضبط حفظ القرآن، فهؤلاء كانوا ينافسون في الدنيا وهو نافسهم في الآخرة، وهذا مثال حي معاصر من أمثلة كثيرة - والحمد لله-.

«وقال وهيب بن الورد[(٢)]**: إن استطعت ألا يسبقك إلىٰ الله أحد فافعل»**[(٣)]، لكن هذا من أرخص الأمور علىٰ الناس مع الأسف،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (٥٣٥).

(٢) هو: وهيب بن الورد المكي، أبو أمية، وقيل أبو عثمان، تابعي لقي عائشة رضي الله عنها، توفي سنة ١٥٣، قيل اسمه عبد الوهاب فصغر، وكان من العباد، عن الثوري: أنه قال: قوموا إلىٰ الطبيب -يعني: وهيبا-. سير أعلام النبلاء ٧/ ١٩٨، الطبقات الكبرىٰ ٦/ ٣٥.

(٣) ذكره الذهبي في التاريخ ٩/ ٦٦٣.

والسبب الركون إلىٰ الدنيا، واتباع الهوىٰ وإلا فالأصل أن طالب العلم أول من يبادر إلىٰ فعل الخيرات.

«وقال محمد بن يوسف الأصبهاني العابد[(١)]: لو أن رجلاً سمع برجل أو عرف عنه أطوع منه فانصدع قلبه لم يكن ذلك بعجب»[(٢)]؛ لأنه زاد عليه ثوابًا، فينبغي أن ينافسه؛ ليكون أكثر منه، وهذه الحسرة التي حصلت في قلبه فانصدع من أجلها، إذا لم تحمله علىٰ العمل؛ ليكون مثله أو أفضل منه لا تفيده، مثل الخوف والرجاء؛ ثم إن الخوف الذي لا يبعث علىٰ التقوىٰ لا فائدة فيه، وكذلك الرجاء.

«وقال رجل لمالك بن دينار: رأيت في المنام مناديًا ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل فما رأيت أحدًا ارتحل إلا محمد بن واسع، فصاح مالك وغشي عليه[(٣)]».

ففي درجات الآخرة الباقية يشرع التنافس، وطلب العلو في منازلها، والحرص علىٰ ذلك، والسعي في أسبابه، وألا يقنع الإنسان

---

(١) هو: محمد بن يوسف بن معدان بن سليمان، أبو عبد الله، الأصبهاني، يعرف بعروس الزهاد، له المناقب المشهورة والفضائل المذكورة، توفي سنة أربع وثمانين ومائة، ولم يكمل أربعين سنة. ينظر: تاريخ أصبهان؛ للأصبهاني ٢/ ١٤١، وتاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ٩٦٨.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٣٣، عن محمد بن يوسف الأصبهاني، عن رجل من أهل البصرة.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/ ١٥٣.

منها بالدون مع قدرته علىٰ العلو، وأما العلو الفاني المنقطع الذي يُعقِب صاحبه غدًا حسرة وندامة، وذلة وهوانًا وصغارًا، فهو الذي يُشرع الزهد فيه والإعراض عنه»، والمفترض أن الإنسان إذا كان في أمور الدنيا يطلب لنفسه أفضل شيء، كان من باب أولىٰ أن يطلب ذاك الأفضل الذي هو العلو الباقي بالتقرب إلىٰ الله - جل وعلا-، لكن الواقع عند الكثيرين - للأسف - هو عكس ما قاله المصنف.

وصدق من قال:

أرى أناسًا بأدنى الدين قد قنعوا

وما أراهم رضوا في العيش بالدون[1]

ولذا لو أن شخصًا حل به ضيف يرجو من ورائه دنيا، لذهب إلىٰ السوق فاشترىٰ كبشًا ليكرمه، وتخير أطيب الموجود ليتحفه، لكن في حال التقرب إلىٰ الله -جل وعلا- بأضحية، أو عقيقة، أو صدقة، تجده يبحث عن الأقل سعرًا، والله المستعان.

(١) نسب البيت لابن أدهم كما في تاريخ ابن عساكر ٦/ ٣٤١.

وللزهد فيه أسباب عديدة، فمنها: نظر العبد إلىٰ سوء عاقبة الشرف في الدنيا بالولاية والإمارة لمن لا يؤدي حقها في الآخرة.

ومنها: نظر العبد إلىٰ عقوبة الظالمين والمكذبين ومن ينازع الله رداء الكبرياء.

وفي السنن عن النبي ﷺ قال: «يُحشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلىٰ سجن في جهنم، يقال له: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقَون من عصارة أهل النار: طينة الخبال».

وخرجه الترمذي وغيره من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عن النبي ﷺ.

وفي رواية لغيره من وجه آخر في هذا الحديث: «يطؤهم الناس بأقدامهم».

وفي رواية أخرىٰ من وجه آخر: «يطؤهم الجن والإنس والدواب بأرجلهم حتىٰ يقضي الله بين عباده».

واستأذن رجل عمر رضي الله عنه في القصص علىٰ الناس فقال له: إني أخاف أن تقص عليهم فترتفع عليهم في نفسك حتىٰ يضعك الله تحت أرجلهم يوم القيامة.

ومنها: نظر العبد إلىٰ ثواب المتواضعين لله في الدنيا بالرفعة في الآخرة؛ فإنه من تواضع لله رفعه.

[الشرح]

[أسباب الزهد في العلو الفاني]

لما قرر المصنف أن علىٰ المرء أن يحرص علىٰ العلو الباقي، وأن يزهد في العلو الفاني، بيَّن أسباب الزهد فيه، فقال:

«**وللزهد فيه أسباب عديدة، فمنها: نظر العبد إلىٰ سوء عاقبة الشرف بالدنيا بالولاية والإمارة لمن لا يؤدي حقها في الآخرة**»، وهذا كثير غالب؛ ولذا فالأصل الزهد فيها جملة وتفصيلاً؛ إلا لمن تعيَّنت عليه.

«**ومنها: نظر العبد إلىٰ عقوبة الظالمين والمكذبين ومن ينازع الله رداء الكبرياء**» فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما، قذفته في النار**»(١).

«**وفي السنن عن النبي ﷺ قال «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر**» والذر: صغار النمل(٢).

---

(١) سبق تخريجه (ص: ١٤٣).

(٢) ينظر: لسان العرب ٤/ ٣٠٤.

«**في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلىٰ سجن في جهنم يقال له بُوْلَس**»، ضبط بفتح الباء وضمها مع إسكان الواو وفتح اللام.

«**تعلوهم نار الأنيار**»، يعني: أشد النيران لهبًا وإحراقًا.

«**يُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**»، **وخرجه الترمذي وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ**»[1] والحديث لا ينزل عن درجة الحسن؛ لما هو معروف في الكلام علىٰ عمرو بن شعيب[2].

«**وفي رواية لغيره من وجه آخر في هذا الحديث: «يطؤهم الناس بأقدامهم**»[3].

وفي رواية أخرىٰ من وجه آخر: «يطؤهم الجن والإنس والدواب بأرجلهم حتىٰ يقضي الله بين عباده»[4]، لما تعاظموا وتكبروا،

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٩٢)، وقال: «هذا حديث حسن»، وأحمد (٦٦٧٧).

(٢) ينظر: تدريب الراواي؛ للسيوطي ٢/ ٧٣١، وصعود المراقي إلىٰ ألفية العراقي ٣/ ١١٨٢-١١٨٦.

(٣) أخرجها البزار كما في كشف الأستار (٣٤٢٩)، من حديث جابر رضي الله عنه، وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٣٤: «فيه القاسم بن عبد الله العمري، وهو متروك».

(٤) أخرجها ابن عدي في الكامل ٣/ ١٠، من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، وذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (ص: ١٧٣)، وقال: «مداره علىٰ الخصيب بن جحدر وهو متروك».

وتجبروا علىٰ الناس، وانتفخوا في ظاهرهم أمام الناس، عوقبوا بنقيض ما قصدوا؛ فحشروا علىٰ النقيض من ذلك، علىٰ أمثال الذر، ووطئوا بالأقدام.

«واستأذن رجل عمر في القصص علىٰ الناس «فقال له: إني أخاف أن تقص عليهم فترتفع عليهم في نفسك حتىٰ يضعك الله تحت أرجلهم يوم القيامة»[(١)]، أي: استأذنه ليعظ الناس، والقُصّاص هم الوعاظ، فحذره من أن يرتفع بالوعظ في نفسه، وعند الناس في الدنيا، ثم يضعه الله يوم القيامة.

وغالب القصاص لا يكون من أهل العلم، ويقصون الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لكنهم أصحاب أسلوبٍ مشوِّقٍ؛ ولذا جاء منع القصاص عن علي وغيره[(٢)].

«ومنها: نظر العبد إلىٰ ثواب المتواضعين لله في الدنيا بالرفعة في الآخرة فإنه من تواضع لله رفعه» وهذا في الصحيح[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٦٤٥).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٥٤٠٧)، وقد سبق ذكره، وينظر للمزيد: الآداب الشرعية والمنح المرعية؛ لابن مفلح ٢/ ٨٢.

(٣) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»، أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، استحباب العفو والتواضع، (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩).

ومنها - وليس هو في قدرة العبد، ولكنه من فضل الله ورحمته -: ما يعوض الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفنىٰ من المال والشرف، مما يعجله الله لهم في الدنيا من شرف التقوىٰ، وهيبة الخلْق لهم في الظاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحًا من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن.

وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا، ولا أهل الرئاسات، والحرص علىٰ الشرف؛ كما قال إبراهيم بن أدهم: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

ومن رزقه الله ذلك اشتغل به عن طلب الشرف الزائل، والرئاسة الفانية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

وفي بعض الآثار يقول الله عز وجل: «أنا العزيز فمن أراد العز فليطع العزيز، ومن أراد عز الدنيا والآخرة وشرفهما فعليه بالتقوىٰ».

وكان حجاج بن أرطاة يقول: «قتلني حب الشرف، فقال له سوَّار: لو اتقيتَ الله شرفتَ».

وفي هذا المعنىٰ يقول القائل شعرًا:

ألا إنما التقوى هي العز والكرمْ
وحبك للدنيا هو الذل والسقمْ
وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ
إذا حقَّق التقوى وإن حاك أو حَجَمْ

وقال صالح الناجيُّ: «الطاعة إمرة والمطيع لله أمير مؤمَّر علىٰ الأمراء، ألا ترىٰ هيبته في صدورهم؟ إن قال قَبلوا، وإن أمر أطاعوا، ثم يقول: يحق لمن أحسن خدمتك ومننتَ عليه بمحبَّتك أن تُذْلِلَ له الجبابرةَ حتىٰ يهابوه، لهيبته في صدورهم من هيبتك في قلبهِ، وكل الخير من عندك بأوليائك».

وقال بعض السلف الصالح: «مَن أسعدُ بالطاعة من مطيع؟! ألا وكل الخير في الطاعة؟! ألا وإن المطيع لله ملِكٌ في الدنيا والآخرة؟!».

وقال ذو النون: «من أكرمُ وأعزُّ ممن انقطع إلىٰ مَن مُلْك الأشياءِ بيده؟».

دخل محمد بن سليمان أمير البصرة علىٰ حماد بن سلمة، وقعد بين يديه يسأله، فقال له: يا أبا سلمة، ما لي كلما نظرت إليك ارتعدتُ فرَقًا منك؟ قال: «لأن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله خافه كلُّ شيء، وإن أراد أن يكثِّر به الكنوز خاف من كل شيء».

ومن هذا قول بعضهم: «علىٰ قدر هيبتك لله يخافك الخلق، وعلىٰ قدر محبتك لله يحبك الخلق، وعلىٰ قدر اشتغالك بالله تشتغل الخلق بأشغالك».

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يومًا يمشي، ووراءه قوم من كبار المهاجرين، فالتفت فرآهم، فخرُّوا علىٰ ركبهم هيبة له، فبكىٰ عمر وقال: «اللهم إنك تعلم أني أخوف لك منهم، فاغفر لي».

وكان العُمَريُّ الزاهد قد خرج إلىٰ الكوفة إلىٰ الرشيد؛ ليعظه وينهاه، فوقع الرعب في عسكر الرشيد لما سمعوا بنزوله، حتىٰ لو نزل بهم عدو مائة ألف نفس لما زادوا علىٰ ذلك.

وكان الحسن لا يستطيع أحد أن يسأله هيبة له، وكان خواص أصحابه يجتمعون، ويطلب بعضهم من بعض أن يسألوه عن المسألة، فإذا حضروا مجلسه لم يجسروا علىٰ سؤاله، حتىٰ ربما مكثوا علىٰ ذلك سنة كاملة هيبة له.

وكذلك كان مالك بن أنس يُهاب أن يُسألَ حتىٰ قال فيه القائل شعرًا:

يدع الجواب ولا يُراجَعُ هيبةً
والسائلون نواكس الأذقان
نور الوقار وعِزُّ سلطان التُّقى
فهو المَهيبُ وليس ذا سلطان

وكان بديل العقيلي يقول: «من أراد بعلمه وجه الله تعالىٰ أقبل الله عليه بوجهه، وأقبل بقلوب العباد عليه، ومن عمل لغير الله صرف الله وجهه عنه، وصرف قلوب العباد عنه».

وقال محمد بن واسع: «إذا أقبل العبد بقلبه علىٰ الله أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين».

وقال أبو يزيد البَسْطَامِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «طلَّقتُ الدنيا ثلاثا بتاتًا، لا رجعة لي فيها، وصرت إلىٰ ربي وحدي، وناديتُهُ بالاستعانة: إلهي، أدعوك دعاءَ من لم يبق له غيرُك، فلما عرف صدق الدعاء من قلبي واليأسَ من نفسي، كان أوَّلُ ما وَرَدَ علي من إجابة هذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية، ونصَب الخلائق بين يدي مع إعراضي عنهم».

وكان يزار من البلدان، فلما رأىٰ ازدحام الناس عليه قال:

وليتني صرت شيئًا
من غير شيء أُعَدُّ
أأصبحتُ للكل مولى
لأنني لك عبدُ
وفي الفؤاد أمور
ما تستطاع تُعَدُّ

لـــــكـــنَّ كـــتـــــمان حـــالي
أحـــــــق بي وأشــــــــدُّ

[الشرح]

[إكرام الله للزاهدين في الدنيا بالشرف فيها والحياة الطيبة]

هذا سبب آخر من الأسباب التي تعين العبد علىٰ الزهد في العلو في الدنيا؛ إلا أنه ليس في مقدور العبد، بل هو منة من الله تعالىٰ، وهو كما قال المصنف:

«ومنها - وليس هو في قـدرة العبد، ولكنه من فضل الله ورحمته -: ما يعوض الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفنىٰ من المال والشرف، مما يعجله الله لهم في الدنيا من شرف التقوىٰ، وهيبة الخلْق لهم في الظاهر، ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحًا من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا، ولا أهل الرئاسات، والحرص علىٰ الشرف»، نعم جعل الله لمن هذه صفاته من أهل العلم والعمل الهيبة في قلوب الناس، وحتىٰ في قلوب الملوك والأمراء والسلاطين.

وقد رأينا من يدخل علىٰ أهل العلم والعمل في الليالي الشاتية من أهل السلطان، ومن الأمراء وغيرهم، فتجده يتصبب عرقًا، وفي

نفسه سؤال، وينصرف ولم يسأل، ومن ورث عن النبي ﷺ شيئًا من العلم والعمل يُعطىٰ مِن: «**نصرت بالرعب**»[(١)] بقدر ما ورث.

قد يقول قائل: فما لنا نرىٰ تجرؤ بعض الجهال عليهم ممن لا يقدرهم قدرهم؟

فيقال له: ذلك لحكمة، فلولا هذه الجرأة لما ظهرت بعض الأسئلة؛ ولذلك كان الرسول ﷺ يُنَسَّىٰ لِيَسُنَّ[(٢)]، ونام عن صلاة الفجر[(٣)]، والأصل أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه[(٤)]، وهذا كله من أجل

(١) أخرجه البخاري، أول كتاب التيمم، (٣٣٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، (٥٢١)، والنسائي (٤٣٢)، من حديث جابر رضي الله عنه، وجاء من حديث أبي هريرة، وأبي ذر، وعلي، وابن عباس، وأبي موسىٰ، وأبي أمامة رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ بلاغًا ٢/ ١٣٨، وينظر: زاد المعاد ١/ ٢٧٧.

(٣) إشارة إلىٰ حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: عرسنا مع نبي الله ﷺ، فلم نستيقظ حتىٰ طلعت الشمس، فقال النبي ﷺ: «**ليأخذ كل رجل برأس راحلته، فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان**»، قال: ففعلنا، ثم دعا بالماء فتوضأ، ثم سجد سجدتين، وقال يعقوب: ثم صلىٰ سجدتين، ثم أقيمت الصلاة فصلىٰ الغداة. أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها ، (٦٨٠) والترمذي (٣١٦٣)، والنسائي (٢٠٦٩)، وابن ماجه (٦٩٧)، وجاء من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٤) إشارة إلىٰ حديث أنس بن مالك الطويل في الإسراء عن رسول الله ﷺ وفيه «**الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم**»، أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، (٧٥١٧). وحديث: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

أن يُشَرِّعَ في هذه القضية، فكونه يحصل خلاف الأصل إنما هو لحكمة.

«وهـذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا، ولا أهل الرئاسات والحرص علىٰ الشرف؛ كما قال إبراهيم بن أدهم[1]: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»[2]؛ فهناك حالات يعيش فيها المرء لها حلاوة، ولذة لا يمكن وصفها، وهي الحياة الطيبة كما ذكر المصنف. فطالب علم منهوم بعلمه قد يبقىٰ في مكتبته، وبين كتبه من كتاب إلىٰ كتاب يراجع مسألة فينسىٰ نفسه وهو في جنة لا يعرفها إلا القليل من الناس، وأعرف واحدًا يسمي مكتبته خريمًا، فإذا نزل في مكتبته، كأنه في روضة خريم[3].

وآخر من شيوخ شيوخنا في ليلة زواجه لما دخل علىٰ زوجته تذكر آية مرَّت عليه في الدرس فأراد مراجعتها، فنزل إلىٰ المكتبة، وأخذ يتنقل من تفسير إلىٰ تفسير حتىٰ أذن الفجر. وآخر من طلابنا في الأربعينات من عمره حضر الدرس ليلة زواجه، فطرده الشيخ لمَّا عرف بوجوده.

---

(١) هو: إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي، نزيل الشام، توفي سنة ١٦٢، قال النسائي: هو ثقة، مأمون، أحد الزهاد. ينظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧، تاريخ دمشق؛ لابن عساكر ٦/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٣٠٣.

(٣) روضة خريم منطقة ذات طبيعة خضراء في موسم الأمطار، تبعد عن مدينة الرياض حوالي ١٠٠ كلم شمال شرق مدينة الرياض.

والأمور تقدر بقدرها؛ لا نقول احضر درسًا ليلة زواجك، ولكنا نضرب مثالًا علىٰ اللذة التي يجدها الصالحون، والتي لا تدانيها لذات الدنيا، وهي من الجنة التي يذكرها إبراهيم بن أدهم وغيره.

«ومن رزقه الله ذلك اشتغل به عن طلب الشرف الزائل، والرئاسة الفانية قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]**، وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾** [فاطر:١٠].

وفي بعض الآثار يقول الله عز وجل: «أنا العزيز فمن أراد العز فليطع العزيز، ومن أراد عز الدنيا والآخرة وشرفهما فعليه بالتقوىٰ»[1].

وكان حجاج بن أرطاة[2] **يقول: قتلني حب الشرف، فقال له سوَّار:**[3] **لو اتقيتَ الله شرفتَ»**[4]، وقد ضُعِّف بسبب ذلك في

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ١/ ١١٩، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالىٰ كل يوم: أنا العزيز من أراد عز الدارين فليطع العزيز»، وضعفه بداود بن عفان كان يضع الحديث علىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه، فالحديث موضوع.

(٢) هو: حجاج بن أرطأة بن ثور بن هبيرة، أبو أرطأة، النخعي، الكوفي، بقي إلىٰ سنة تسع وأربعين ومائة، وتوفي بخراسان مع المهدي، وكان متكلما فيه لابتلائه بالتيه، والتدليس، وكان فقيها تولىٰ القضاء، والشرط. ينظر: تاريخ بغداد؛ للخطيب البغدادي ٩/ ١٣٣. وسير أعلام النبلاء ٧/ ٦٨.

(٣) هو: سوار بن عبد الله بن قدامة العنبري القاضي، أبو عبد الله، من أهل البصرة، كان فقيها روىٰ عنه أهل البصرة وابنه عبد الله بن سوار، مات سنة ١٥٦، وهو يومئذ أمير البصرة وقاضيها. ينظر: الثقات لابن حبان ٦/ ٤٢٣، تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ٧٠.

(٤) أخرجه وكيع في أخبار القضاة ٢/ ٥٠.

روايته للحديث، ومما يُذكر عنه: أنه كان يأنف من مجاورة الحمال والزبال في الصلاة[1].

«وفي هذا المعنىٰ يقول القائل شعرًا:

ألا إنما التقوى هي العز والكرم
وحبك للدنيا هو الذل والسقم
وليس على عبد تقي نقيصة
إذا حقق التقوى وإن حاك أو حجم[2]»

يعني: وإن زاول المهن التي هي في عرف الناس وضيعة، كالحجام الذي جاء في كسبه قوله ﷺ: «**كسب الحجام خبيث**»[3].

وقد رثي أحد العلماء ممن ليسوا من أهل الأنساب العريقة المعروفة فقال فيه الراثي:

(١) في تاريخ بغداد ٩/ ١٣٣، وابن الجوزي في المنتظم ٨/ ١٢٣ عن قيس بن الوليد قال: سمعت أبا يوسف يقول: «كان الحجاج بن أرطأة لا يشهد جمعة ولا جماعة، ويقول: أكره مزاحمة الأنذال»، وفي سير أعلام النبلاء ٧/ ٧٤: «كان حجاج بن أرطاة لا يحضر الجماعة، فقيل له في ذلك، فقال: أحضر مسجدكم حتىٰ يزاحمني فيه الحمالون والبقالون».

(٢) البيتان لأبي العتاهية. ينظر: المستطرف في كل فن مستظرف (ص: ٣١٠).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب، وحلوان الكاهن، ومهر البغي، والنهي عن بيع السنور، (١٥٦٨)، وأبو داود (٣٤٢١)، والترمذي (١٢٧٥)، والنسائي (٤٢٩٤)، من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

لكنه العلم يسمو من يسود به

على الجهول ولو من أصله مضر[1]

فالكلام علىٰ العلم والعمل، أما الأمور الزائلة، فلا عبرة بها، فالعلم والعمل هما الأصل، ولباس التقوىٰ ذلك خير.

ومن الشرف الذي يمنحه الله لمن زهد في الدنيا؛ أن يلقي في قلوب الناس خواصهم وعوامهم هيبتهم وتقديرهم، كما قال المصنف:

«وقال صالح الناجي[2]: الطاعة إمرة، والمطيع لله أمير مؤمَّر علىٰ الأمراء، ألا ترىٰ هيبته في صدورهم؟ إن قال قَبلوا وإن أمر أطاعوا، ثم يقول: يحق لمن أحسن خدمتك ومننت عليه بمحبتك أن تذلل له الجبابرة حتىٰ يهابوه، لهيبته في صدورهم من هيبتك في قلبه، وكل الخير من عندك بأوليائك.

---

(١) الراثي هو: الشاعر محمد بن عبد الله بن عثيمين المتوفىٰ سنة ١٣٦٣، والمرثي هو: الشيخ سعد بن محمد بن عتيق المتوفىٰ سنة ١٣٤٩، وصدر القصيدة: أهكذا البدر تخفي نوره الحفر. ينظر: ديوان ابن مشرف وبآخره مختارات من شعر محمد بن عثيمين (ص: ١٧١، ١٨٢، ١٨٣).

(٢) هو: صالح بن بشير المري، أبو بشر، يلقب بصالح الناجي، مات سنة ١٧٦، وقيل ١٧٢، كان من عباد أهل البصرة وقرائهم، وكان كثير البكاء، يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثوري وغيره من العلماء. ينظر: المجروحين لابن حبان ١/ ٣٧١، البداية والنهاية ١٠/ ١٧٢.

وقال بعض السلف الصالح: من أسعد بالطاعة من مطيع؟! ألا وكل الخير في الطاعة؟! ألا وإن المطيع لله ملك في الدنيا والآخرة؟![1]

وقال ذو النون[2]**: من أكرم وأعز ممن انقطع إلىٰ مَن مُلْك الأشياء بيده؟!**»[3].

نكرر ما قد قلناه من قبل: إن المؤلف ينقل عن بعض الصوفية ما يخدم ما هو بصدده، وكذلك يفعل شيخ الإسلام؛ فينقل عن ذي النون، وعن الجنيد، وعن أبي يزيد البسطامي[4]، وأبي سليمان الداراني وغيرهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٢٥١) عن رجل من أهل الشام يقال له: أمية.

(٢) هو: ذو النون بن إبراهيم، ويقال: ابن أحمد، اسمه ثوبان، ويقال اسمه الفيض، أبو الفيض، وقيل أبو الفياض، الإخميمي المصري الزاهد، توفي سنة ١٤٥، قال ابن يونس: كان عالما، فصيحا، حكيما. ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ١٧/ ٣٩٨، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٣٢.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٤٢١.

(٤) هو: أبو يزيد طيفور بن عيسىٰ بن شروسان البسطامي، أحد الزهاد، توفي ببسطام سنة ٢٦١، كان قليل الرواية، وله كلام نافع. ينظر: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦، ووفيات الأعيان ٢/ ٥٣١. وانظر لنقل ابن تيمية عنه مثلًا: الاستقامة ١/ ٢٥١، والرد علىٰ المنطقيين (ص:٥١٥)، ومجموع الفتاوىٰ١/ ٣٣٠.

«دخل محمد بن سليمان أمير البصرة[1] علىٰ حماد بن سلمة[2]، وقعد بين يديه يسأل، فقال له: يا أبا سلمة ما لي كلما نظرت إليك ارتعدت فرَقا منك؟» أي: خوفًا منك.

«قال: لأن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله خافه كل شيء، وإن أراد أن يكثّر به الكنوز خاف من كل شيء»[3]، أي: خوفا من أن تنقص كنوزه.

«ومن هذا قول بعضهم: علىٰ قدر هيبتك لله يخافك الخلق، وعلىٰ قدر محبتك لله يحبك الخلق، وعلىٰ قدر اشتغالك بالله تشتغل الخلق بأشغالك[4]».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا يمشي، ووراءه قوم من كبار المهاجرين، فالتفت فرآهم فخروا علىٰ ركبهم هيبة له، فبكىٰ عمر

---

(١) هو: محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، جمع له المنصور بين البصرة والكوفة، توفي سنة ١٧٣، وكان من رجالات قريش وشجعانهم، وكان له من الأموال شيء كثير. ينظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٧٤، تاريخ بغداد ٣/ ٢١٥.

(٢) هو: حماد بن سلمة بن دينار، أبو سلمة البصري، توفي سنة ٢٦٧، قال الذهبي: كان بحرا من بحور العلم، وله أوهام في سعة ما روىٰ، وهو صدوق. ينظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٤٤، وشذرات الذهب؛ لابن العماد ٢/ ٢٩٦.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٥/ ١٣٢، عن حماد بن سلمة مرفوعًا من حديث أنس بن مالك، وشطره الأول ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص: ٢٨٦).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٤٨) عن يحيىٰ بن معاذ الرازي، وأخرج الجملة الأولىٰ في حلية الأولياء ٨/ ١١٠ عن الفضيل بن عياض.

فقال: اللهم إنك تعلم أني أخوف لك منهم، فاغفر لي»، يعني: إذا كان خوفهم من الخليفة سبَّب لهم ما حصل، فأنا خوفي منك أعظم، ومقام عمر رضي الله عنه لا يخفىٰ علىٰ أحد؛ كان يردد الآية في قيام الليل ويبكي حتىٰ يمرض ويزار من الغد[1]، وما هو ببكاء الذي يبكي فإذا تجاوز الآية قرأ التي بعدها وكأن شيئًا لم يكن، كحال بعض القراء، والبكاء النافع هو الذي يبقىٰ أثره في القلب، وتظهر آثاره علىٰ الجوارح والأعمال.

«وكان العمري الزاهد قد خرج إلىٰ الكوفة إلىٰ الرشيد؛ ليعظه وينهاه، فوقع الرعب في عسكر الرشيد لما سمعوا بنزوله، حتىٰ لو نزل بهم عدو مائة ألف نفس لما زادوا علىٰ ذلك»[2]، هو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله، العمري الزاهد، كان يأمر بالمعروف ويتقدم بذلك علىٰ الخلفاء ويحتملون له ذلك[3].

«وكان الحسن لا يستطيع أحد أن يسأله هيبة له، وكان خواص أصحابه يجتمعون، ويطلب بعضهم من بعض أن يسألوه عن المسألة، فإذا حضروا مجلسه لم يجسروا علىٰ سؤاله، حتىٰ ربما

(١) إشارة إلىٰ ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤٤٥٧) عن الحسن، قال: كان عمر بن الخطاب: «يمر بالآية في ورده فتخنقه العبرة، فيبكي حتىٰ يسقط، ثم يلزم بيته حتىٰ يعاد، يحسبونه مريضا».

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٥.

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٣، إكمال تهذيب الكمال ٨/ ٤١.

مكثوا علىٰ ذلك سنة كاملة هيبة له»(١)، وابن عباس كان يريد أن يسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا سنة كاملة، فما سأله حتىٰ وجد فرصة في الحج فسأله عنهما(٢).

« وكذلك كان مالك بن أنس يهاب أن يُسأل حتىٰ قال فيه القائل شعرا:

يدع الجـواب ولا يراجَع هيبة
والسائلون نـواكـس الأذقـان
نور الوقار وعز سلطان التقى
فهو المهيب وليس ذا سلطان(٣)

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧٣.

(٢) إشارة إلىٰ حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتىٰ خرج حاجًا فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق عدل إلىٰ الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتىٰ فرغ ثم سرت معه، فقلت: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا علىٰ النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبرتك به... الحديث. أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم:١]، (٤٩١٣)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، واعتزال النساء، وتخييرهن وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ [التحريم: ٤]، (١٤٧٩).

(٣) رواهما الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٨٤ عن ابن الخياط.

وكان بديل العقيلي[1] **يقول: من أراد بعلمه وجه الله تعالىٰ أقبل الله عليه بوجهه، وأقبل بقلوب العباد عليه، ومن عمل لغير الله صرف الله وجهه عنه، وصرف قلوب العباد عنه»**[2]، روي عن حماد بن سلمة أنه قال: من طلب الحديث لغير الله مكر به[3].

«وقال محمد بن واسع: إذا أقبل العبد بقلبه علىٰ الله أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين»[4]، من أرضىٰ الله - جل وعلا - بسخط الناس رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، بخلاف من أرضىٰ الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، فعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ، قال: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلىٰ الناس**»[5].

«وقال أبو يزيد البسطامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طلقت الدنيا ثلاثا بتاتا لا رجعة لي فيها، وصرت إلىٰ ربي وحدي»، كونه وحده ليس بصحيح، معه فئام من خيار الناس وعبادهم وعلمائهم.

---

(١) هو: بديل بن ميسرة العقيلي البصري، توفي سنة ١٢٥، وقيل ١٣٠، اختلف فيه هل هو من التابعين، أم تابعي التابعين. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٣٧٧، إكمال تهذيب الكمال ٢/ ٣٥٩.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٦٢.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٢٥١.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤٥.

(٥) سبق تخريجه (ص: ٧٠).

«وناديته بالاستعانة: إلهي أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك، فلما عرف صدق الدعاء من قلبي واليأس من نفسي، كان أول ما ورد علي من إجابة هذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية، ونصَب الخلائق بين يدي مع إعراضي عنهم[(١)].

وكان يزار من البلدان فلما فلما رأىٰ ازدحام الناس عليه قال:

وليتني صرت شيئًا
من غير شيء أُعَدُّ
أأصبحتُ للكل مولى
لأنني لك عبدُ
وفي الفؤاد أمور
ما تستطاع تُعَدُّ
لكنَّ كتمان حالي
أحق بي وأشدُّ»

أو: وأسَدُّ.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٣٦.

كتب وهب من منبه إلىٰ مكحول: أما بعد، فإنك أصبت بظاهر علمك عند الناس شرفًا ومنزلة، فاطلب بباطن علمك عند الله منزلة وزلفىٰ، واعلم أن إحدىٰ المنزلتين تمنع من الأخرىٰ.

ومعنىٰ هذا أن العلم الظاهر من تعلم الشرائع والأحكام والفتاوىٰ، والقصص والوعظ، ونحو ذلك مما يظهر للناس يحصل به لصاحبه عندهم منزلة وشرف، والعلم الباطن المودع في القلوب من معرفة الله وخشيته، ومحبته ومراقبته، والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، والتوكل عليه والرضىٰ بقضائه، والإعراض عن عرَض الدنيا الفاني، والإقبال علىٰ جوهر الآخرة الباقي، كل هذا يوجِب لصاحبه عند الله منزلة وزلفىٰ، وإحدىٰ المنزلتين تمنع من الأخرىٰ؛ فمن وقف مع منزلته عند الخلق، وانشغل بما حصل له عندهم بعلم الظاهر من شرف الدنيا، وكان همه حفظَ هذه المنزلة عند الخلق، وملازمتَها وتربيتَها والخوفَ من زوالها، كان ذلك حظه من الله، وانقطع به عنه، فهو كما قال بعضهم: ويل لمن كان حظه من الله الدنيا.

وكان السَّرِي السَّقَطِيُّ يعجب مما يرىٰ من علم الجنيد، وحسن خطابِهِ، وسرعة جوابه، فقال له يومًا - وقد سأله عن مسألة فأجاب وأصاب -: أخشىٰ أن يكون حظَّك من الدنيا لسانُك. فكان الجنيد لا يزال يبكي من هذه الكلمة.

ومن اشتغل بتربية منزلته عند الله بما ذكرنا من العلم الباطن وصل إلىٰ الله، فاشتغل به عما سواه، وكان له في ذلك شغل عن طلب المنزلة عند الخلْق، ومع هذا فإن الله يعطيه المنزلة في قلوب الخلْق والشرف عندهم، وإن كان لا يريد ذلك، ولا يقف معه، بل يهرب منه أشد الهرب، ويفر أشدَّ الفرار؛ خشية أن يقطعه الخلْق عن الحق - جل جلاله -.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:٩٦]، أي: في قلوب عباده.

وفي حديث: «إن الله إذا أحب عبدًا نادىٰ يا جبريل إني أحب فلانًا فأحبَّه، فيحبه جبريل، ثم يحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض» والحديث معروف وهو مخرج في الصحيح.

وبكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف الدنيا، وإن لم يُرِدْهُ صاحبه ولم يطلبْه، وطلب شرف الدنيا يمنع شرف الآخرة ولا يجتمع معه، والسعيد من آثر الباقي علىٰ الفاني؛ كما في حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ»، خرَّجه الإمام أحمد، وغيره.

وما أحسن ما قال أبو الفتح البستي:

أمــران مفترقان لست تراهما
يــتــشــوقــان لخــلــطــة وتــلاقــي
طلب المعاد مع الرئاسة والعلى
فــدع الــذي يفنى لما هو باقي

تمَّ الكلام علىٰ شرح الحديث، والحمد له علىٰ كل حال، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

[الشرح]

[الحذر من الانشغال بالعلم الظاهر عن العلم الباطن]

بعد تمام البيان من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمنزلة علو الدنيا وعلو الآخرة، وبيان ما يجب نحو كل منهما، ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكتاب ببيان التحذير من أن يطلب شرف الدنيا ويغفل عن شرف الآخرة، فقال:

«كتب وهب بن منبه إلىٰ مكحول[(١)]: أما بعد، فإنك أصبت بظاهر علمك عند الناس شرفًا ومنزلة، فاطلب بباطن علمك عند

(١) هو: مكحول بن عبد الله الشامي الدمشقي أبو عبد الله، عداده في أوساط التابعين، من أقران الزهري الذي قال عنه: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام، مات سنة ١١٢، وقيل١١٣. ينظر: وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٠، وسير أعلام النبلاء ٥/ ١٥٥.

الله منزلة وزلفىٰ، واعلم أن إحدىٰ المنزلتين تمنع من الأخرىٰ»[1]، يعني: أن الشرف في الدنيا الذي يُقصَد ويُحَبّ، يَمنع شرف الآخرة، لكن الشرف في الدنيا الذي يأتي تبعًا للعلم والعمل، لا يمنع من شرف الآخرة.

وقد بين هذا المعنىٰ المصنف، فقال:

«ومعنىٰ هـذا أن العلم الظاهر من تعلم الشرائع والأحكام والفتاوىٰ، والقصص والوعظ، ونحو ذلك مما يظهر للناس يحصل به لصاحبه عندهم منزلة وشرف، والعلم الباطن المودع في القلوب من معرفة الله وخشيته، ومحبته ومراقبته، والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، والتوكل عليه والرضىٰ بقضائه، والإعراض عن عرَض الدنيا الفاني والإقبال علىٰ جوهر الآخرة الباقي، كل هذا يوجِب لصاحبه عند الله منزلة وزلفىٰ وإحدىٰ المنزلتين تمنع من الأخرىٰ»، وذلك كما ذكرنا إذا كان شرف الدنيا مقصودًا لذاته، ومحبوبًا، ويسعىٰ الإنسان من أجله، فهذا يمنع من شرف الآخرة، لكن قد يأتي شرف الدنيا تبعًا، فمن أشرفُ من الصحابة، ومن الأئمة التابعين ومن جاء بعدهم الذين جمعوا بين العلم والعمل؟!

«فمن وقف مع منزلته عند الخلق، وانشغل بما حصل له عندهم بعلم الظاهر من شرف الدنيا، وكان همه حفظ هذه المنزلة عند

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٥٩، عن وهيب بن الورد يكتب إلىٰ أخ له.

الخلق، وملازمتها وتربيتها والخوف من زوالها»، فيحافظ عليها بما يرضيهم وإن أغضب اللهَ - جل وعلا-، وكان هذا حظه من الله كما قال:

«كان ذلك حظه من الله، وانقطع به عنه، فهو كما قال بعضهم: ويل لمن كان حظه من الله الدنيا.

وكان السَّرِي السقطي[1] يعجب مما يرىٰ من علم الجنيد، وحسن خطابه، وسرعة جوابه، فقال له يومًا - وقد سأله عن مسألة فأجاب وأصاب -: أخشىٰ أن يكون حظك من الدنيا لسانك، فكان الجنيد يبكي من هذه الكلمة»[2]، أي: أثَّر فيه أن يكون حظه من الخير الوعظ والكلام، ولا حظ له في الآخرة، ولا عند الله سبحانه وتعالىٰ.

«ومن اشتغل بتربية منزلته عند الله بما ذكرنا من العلم الباطن وصل إلىٰ الله، فاشتغل به عما سواه وكان له في ذلك شغل عن طلب المنزلة عند الخلْق، ومع هذا فإن الله يعطيه المنزلة في قلوب الخلْق والشرف عندهم، وإن كان لا يريد ذلك، ولا يقف معه بل

(١) هو: أبو الحسن سري بن المغلس السقطي البغدادي، توفي سنة ٢٥٦، وقيل ٢٥٧ ببغداد، وهو من مشاهير الصوفية. ينظر: وفيات الأعيان ٢/ ٣٥٧، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٥.

(٢) أخرج القصة القشيري في القشيرية ١/ ٣١٣، بسند، وينظر: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٨، ببعض اختلاف.

يهرب منه أشد الهرب، ويفر أشد الفرار؛ خشية أن يقطعه الخلْق عن الحق جل جلاله»، أي: تعوقه مزاولة الخلْق ومخالطتهم عما يرضي الحق، وهو: الله - جل وعلا-.

«قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]، أي: في قلوب عباده، وفي حديث: «إن الله إذا أحب عبدًا نادىٰ يا جبريل إني أحب فلانًا، فأحبَّه فيحبه جبريل، ثم يحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»، والحديث معروف وهو مخرج في الصحيح[1].

وبكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف الدنيا وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبْه، وطلب شرف الدنيا يمنع شرف الآخرة ولا يجتمع معه، والسعيد من آثر الباقي علىٰ الفاني؛ كما في حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ» خرَّجه الإمام أحمد، وغيره[2]».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الملائكة، (٧٤٨٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا أحببه لعباده، (٢٦٣٧)، والترمذي (٣١٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٦٩٧)، وابن حبان (٧٠٩)، والحاكم (٧٩٣٤) وصححه، وأعله الذهبي بالانقطاع، وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٩: «رواه أحمد، والبزار، والطبراني، ورجالهم ثقات».

لأن الدنيا والآخرة ضرتان، فمن رجحت عنده إحداهما خفت وطاشت عنده الأخرىٰ.

«وما أحسن ما قال أبو الفتح البستي[1]:

أمــران مفترقان لست تراهما
يــتــشــوقــان لخــلــطــة وتــلاقــي
طلب المعاد مع الرئاسة والعلى
فــدع الــذي يفنى لما هو باقي

تمَّ الكلام علىٰ شرح الحديث والحمد له علىٰ كل حال، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين».

(١) هو: أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي الشاعر المشهور، توفي سنة ٤٠٠، وقيل ٤٠١ ببخارىٰ، لازم أبا سليمان الخطابي، وصحبه وأخذ عنه. ينظر: وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦، وطبقات الشافعيين؛ ١/ ٣٢١.

فهرس المصادر والمراجع

- الإبانة الكبرىٰ لابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ حرب المعطلة والجهمية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣١هـ.
- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت.
- أخبار القضاة، أبو بكر محمَّد بن خلَف بن حيَّان بن صدقة الضَّبِّي البغدادي، الملقَّب بِـ«وَكِيع»، المكتبة التجارية الكبرىٰ، بشارع محمد علي بمصر لصاحبها: مصطفىٰ محمد، الطبعة الأولىٰ، ١٣٦٦هـ=١٩٤٧م.
- أخلاق العلماء، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية.

- الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينىٰ ثم الصالحي الحنبلي، عالم الكتب.

- الأدب، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، دار البشائر الإسلامية - لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- الأذكار، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

- إرشاد طلاب الحقائق إلىٰ معرفة سنن خير الخلائق ﷺ، محيي الدين أبو زكريا يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي، رسالة ماجستير للمحقق - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

- الاستذكار، أبو عمر يوسف بن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

- الاستقامة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- الأسماء والصفات للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- الأعـلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فـارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، مايو ٢٠٠٢م.
- اقتضاء العلم العمل، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٣٩٧م.
- إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله، علاء الدين، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنىٰ والأنساب، الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا ، دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
- الأم، ومعه مختصر المزني، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ط: دار الفكر، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
- أمالي ابن بشران، أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشْران بن محمد بن بشْران بن مهران البغدادي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
- الأمالي المطلقة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦ هـ -١٩٩٥م.
- إنباء الغمر بأبناء العمر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني،

- إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة، الدين أبو الحسن علي بن يوسف ، دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٦ هـ.
- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري ، دار الكتب العلمية – بيروت.
- الأنساب، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد،، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٨٢هـ.
- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، عبد الوهاب بن أحمد الشعراني، دار الكتب العلمية.
- البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين بن إبراهيم (ابن نجيم)، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية.
- البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨،هـ.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، أبو بكر مسعود بن أحمد الكاساني، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- البعث والنشور للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.
- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهب والهاجس، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية.

- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ.
- البيان، يحيىٰ بن أبي الخير بن سالم العمراني، ط: دار المنهاج، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ.
- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٨ هـ.
- التاج والإكليل شرح مختصر خليل، محمد بن يوسف العبدري المواق، دار الكتب العلمية.
- تاريخ ابن يونس المصري، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي، أبو سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ.
- تاريخ أصبهان = أخبار أصبهان، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٠ هـ.
- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠٣م.
- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، الطبعة: الثانية ١٤١٢هـ.
- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار الفكر.

- تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.
- تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.
- تاريخ علماء الأندلس، عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، أبو الوليد، المعروف بابن الفرضي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ.
- تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين، علي بن إبراهيم بن داود بن سلمان بن سليمان، أبو الحسن، علاء الدين ابن العطار، الدار الأثرية، عمان – الأردن، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٨هـ.
- تحفة المحتاج في شرح المنهاج، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، دار إحياء التراث العربي، بدون طبعة وتاريخ.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار طيبة.
- تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي.
- تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي، إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الأولىٰ، ١٣٤٣هـ.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل القاضي عياض بن موسىٰ اليحصبي، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب، الطبعة الأولىٰ.
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري ، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ.

- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار العاصمة.
- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ.
- تقرير القواعد وتحرير الفوائد، المشهور بـ «قواعد ابن رجب»، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩هـ.
- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ،١٩٨٩م.
- تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٠هـ.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ٢٠٠١م
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.
- التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣.

- جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ.
- جامع التحصيل في أحكام المراسيل، صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي العلائي، عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ.
- الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار ابن كثير - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- الجامع الصحيح المسمىٰ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، تحقيق، وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي، محمد بن عيسىٰ أبو عيسىٰ الترمذي، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي،، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٢هـ.
- جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، مكتبة المعارف، الرياض.
- الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – بحيدر آباد الدكن – الهند.
- جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي ، مكتبة الأنصار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة – المغرب، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م
- حاشية الصاوي علىٰ تفسير الجلالين، أحمد بن محمد الصاوي، دار الكتب العلمية.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني، دار السعادة – بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري، عالم الكتب – بيروت.
- دار الكتب العلمية بيروت–لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.

- الدر الفريد وبيت القصيد، محمد بن أيدمر المستعصمي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر اباد/ الهند، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.
- الدعاء، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣.
- ديوان ابن مشرف، محمد بن عبد الله بن عثيمين، مؤسسة مكتبة الفلاح، الأحساء الهفوف، الطبعة الرابعة.
- ديوان الإمام علي، جمع: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية.
- ديوان الزهد والحكمة (شعر محمود الوراق)، جمع: أيمن السيد علي الصياد، دار الكتب العلمية.
- ديوان الضعفاء والمتروكين وخلق من المجهولين وثقات فيهم لين، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، مكتبة النهضة الحديثة – مكة، الطبعة الثانية، ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧م.
- ديوان ترجمان الأشواق، محيي الدين بن علي بن العربي، عبد الرحمن المصطاوي، طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥هـ.
- ذم الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة/ الأولىٰ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م.
- ذيل طبقات الحنابلة، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥م.

- الرد علىٰ المنطقيين، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، دار المعارف، القاهرة.
- الرسالة، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر
- الرقة والبكاء، ابن أبي الدنيا، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.
- الروض الداني (المعجم الصغير)، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت/عمان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ،ط مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- الزهد، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.
- الزهد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولىٰ.

- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- السنة، أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، ومعه ظلال الجنة للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٠هـ.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، ط: دار الفكر - بيروت.
- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، ط: المكتبة العصرية، صيدا بيروت.
- السنن الصغرىٰ (المجتبىٰ)، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- السنن الكبرىٰ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.
- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهَبي، ط: مؤسسة الرسالة.
- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولىٰ ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- سيرة عمر بن عبد العزيز علىٰ ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، أبو محمد المصري، عالم الكتب - بيروت - لبنان.، الطبعة: السادسة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

- شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك، ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة العشرون، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- شرح التبصرة والتذكرة (ألفية العراقي)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
- شرح علل الترمذي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، تحقيق: الدكتور همام عبد الرحيم سعيد، الناشر مكتبة المنار – الزرقاء – الأردن، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- شرح منتهىٰ الإرادات (دقائق أولي النهىٰ في شرح المنتهىٰ)، منصور بن يونس البهوتي، ط: عالم الكتب.
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م.
- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، المكتب الإسلامي.

- صعود المراقي إلىٰ ألفية العراقي، عبد الكريم بن عبد الله الخضير، مؤسسة معالم السنن، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٤٠هـ.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.
- طبقات الأولياء، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.
- طبقات الشافعية الكبرىٰ، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
- طبقات الشافعيين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.
- طبقات الشعراء، عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي، دار المعارف – القاهرة.
- طبقات الصوفية، محمد بن الحسين بن محمد بن موسىٰ بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩هـ١٩٩٨م.
- الطبقات الكبرىٰ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م.
- طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين ، دار إحياء التراث العربي.

- طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ.
- عبد الله بن المعتز خليفة يوم وليلة، محمد رضا مروة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٤ هـ.
- العقوبات، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.
- العلم، أبو خيثمة زهير بن حرب النسائي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ - ١٩٨٣.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسىٰ بن أحمد بن حسين الغيتابىٰ الحنفىٰ بدر الدين العينىٰ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٨ هـ.
- غاية البيان شرح زبد ابن رسلان، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي، دار المعرفة - بيروت.
- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، مؤسسة قرطبة - مصر، الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م.

- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، مؤسسة قرطبة – مصر، الطبعة : الثانية ، ١٤١٤ هـ.
- فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- فتح العزيز بشرح الوجيز (الشرح الكبير)، عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، دار الفكر.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٧٧هـ،١٩٥٧م.
- فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، مكتبة السنة – مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الفروع، محمد بن مفلح المقدسي، عالم الكتب، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيىٰ بن مهران العسكري، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.
- الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧٣.

- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الفوائد، تمام بن محمد الرازي أبو القاسم، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢.
- الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- الفوز الكبير في أصول التفسير، الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلوي»، دار الصحوة - القاهرة، الطبعة الثانية، - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.
- القناعة والتعفف، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان.
- الكافي في فقه الإمام أحمد، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي ، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.
- الكامل في ضعفاء الرجال، للعلامة عبدالله بن عدي أبو أحمد الجرجاني، تحقيق يحيىٰ مختار غزاوي، دار الفكر بيروت، ١٤٠٩ - ١٩٨٨.
- كشف الأستار عن زوائد البزار، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفىٰ بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة، مكتبة المثنىٰ - بغداد، ١٩٤١م.

- الكناش في فني النحو والصرف، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ٢٠٠٠م.
- اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي، أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي (ابن منظور)، دار صادر، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.
- لسان الميزان، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ، ١٩٧١م.
- المبدع في شرح المقنع، للشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- المبسوط، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، ط: دار المعرفة- بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، ١٤١٩هـ.
- مجاني الأدب في حدائق العرب، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، عام النشر: ١٩١٣م.
- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، دار الوعي - حلب، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٦هـ.

- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ط: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.
- مجموع الفتاوىٰ، تقي الدين ابن تيمية، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.
- المجموع شرح المهذب، يحيىٰ بن شرف النووي، مكتبة الإرشاد بالسعودية.
- المحلىٰ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الكتب العلمية بدون طبعة، وتاريخ.
- مختار الصحاح، زين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، المكتبة العصرية.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، محمد بن مكرم بن علىٰ، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعىٰ الإفريقىٰ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٤م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، دار صادر - بيروت.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

- المدخل إلىٰ علم السنن، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار اليسر للنشر والتوزيع، القاهرة - جمهورية مصر العربية، دار المنهاج للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٧م.
- المدونة، مالك بن أنس رواية بن القاسم، ط: دار الكتب العلمية-الطبعة لأولىٰ-١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- المستدرك علىٰ الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، ط: دار الكتب العلمية - بيروت لطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح ، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩ هـ.
- مسند أبي يعلىٰ، أبو يعلىٰ أحمد بن علي بن المثُنىٰ بن يحيىٰ بن عيسىٰ بن هلال التميمي، الموصلي، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث - القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
- مسند البزار (المطبوع باسم البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، ط: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ ، بدأت ١٩٨٨م -٢٠٠٩م.
- مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

- مسند الشهاب، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ – ١٩٨٦.
- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، دار العربية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩هـ.
- مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، المجلس العلمي، الهند، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف، المطبعة العلمية – حلب، الطبعة: الأولىٰ ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢م.
- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، دار الحرمين، القاهرة.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة الثانية.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.
- معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والأعصار، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

- مغني المحتاج في شرح المنهاج، محمد بن أحمد الشربيني الخطيب، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
- المغني، موفق الدين عبد الله بن أحمد الشهير بابن قدامة، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.
- الملل والنحل، أبـو الفتح محمد بـن عبد الكريم بـن أبـىٰ بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي.
- الممتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشلي القيرواني، منشأة المعارف، الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.
- مناقب الإمام أحمد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ.
- مناقب الشافعي للبيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مكتبة دار التراث - القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- المنتخب من مسند عبد بن حميد، عبد بن حميد بن نصر الكسي، أبو محمد، عالم الكتب.
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- المنثور من الحكايات والسؤالات، أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي، مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠ هـ.

- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي ، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- الموضوعات، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م.
- الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي - الإمارات، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.
- نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار، ابن حجر العسقلاني، دار ابن كثير، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- نزهة المجالس ومنتخب النفائس، عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري، المطبعه الكاستلية - مصر، ١٢٨٣هـ.
- نواسخ القرآن (ناسخ القرآن ومنسوخه)، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، شركه أبناء شريف الأنصاريٰ - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار الحديث، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الحديث - القاهرة، رقم الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.
- يتمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ، دار الكتب العلمية – بيروت/ لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.
- اليقين لابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، دار البشائر الإسلامية.

فهرس الموضوعات